

دراسة تحليلية لأهم مراكز مراكز الثقافة العربية

العراق

وما فوقه في علمه من حضارة

تأليف

الدكتور حسن غنّ

الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

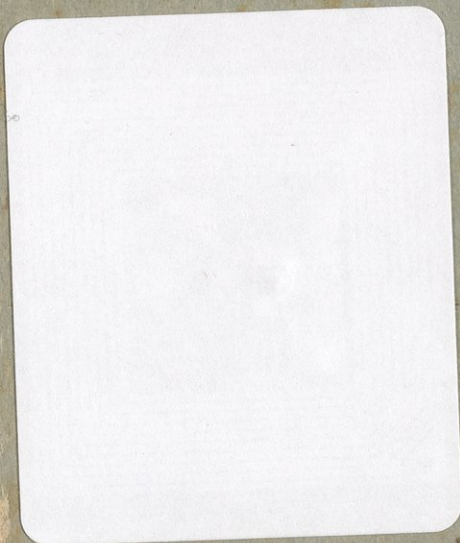
مطبعة زوال خلف مكتبة الإسكندرية لترقية





FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



DS
69.5
A85
1952

دراسة تحليلية لأهم مراكز مراكز الثقافة العربية

العراق

وما توالى عليه من حضارات

تأليف

الدكتور حسن عيون

الاستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الثانية

مطبعة زوال خلف محكمة ايكندرية شرعية

04-B5222

B1319446X
15032954

pw 9-12.04

OCLC
23481743

مقدمه الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

يرى القارئ في مقدمة الطبعة الأولى أن هذا المؤلف لم يكن سوى محاولات لكشف بعض الغموض عن بيئة العراق التي تدين لها الثقافة الإسلامية بكثير؛ وإن هذه المحاولات قد طبعت تحت الحاح طلاب معهد الدراسات العليا، مع الوعد بطبعها مرة ثانية لكي تخرج من دائرة المعارف المسروقة سرداً ومن ميدان الدراسات السريعة إلى دائرة العرض العلوي والتحليل المنطقي مع ذكر السند كلما أتيحت الفرصة وتسجيل المراجع كلما دعت الضرورة.

وفي الحق إن الفكرة عن هذا الموضوع الحيوى لم يكن ينقصها نضوج، والرغبة في العرض والاستقصاء لم يكن يعوزها تحمس، ولكن الذي كان ينقصنا في الواقع إنما هو الوقت فلقد كنا مضطرين إلى أن نساير منهج الدرس في المعهد مسaire سريعة وكنا ملزمين إلى أن نقدم لطلاب المعهد في كل أسبوع جديداً، وكانت تلك هي أول سنة نقوم فيها بهذا العبء الذي لا يخلو من ثقل ومن جسامه ومن لذة أيضاً.

والآن بعد عام آخر من البحث والاطلاع ومن الدرس والمناقشة يتسع أمامنا الوقت، وتزدحم علينا المعارف، ويتيسر لنا أن نقرأ ما لم نكن قد قرأناه عن هذا الموضوع ونطلع على ما لم نكن قد اطلعنا عليه من كشف وآثار في بيئة العراق، تلك البيئة التي لا تزال تستلقت نظر الغربيين وتغري علماءهم ومستكشفيهم إلى الحضور سعيّاً وراء الكشف عن الآثار القديمة ورغبة في الأهمية أو إلى ما يكتنف هذه المنطقة من الأرض من سر وغموض.

كل هذا جعلنا نتقدم ، ونحن مطمئنون إلى الطبعة الثانية لكي نفي بما أخذناه على أنفسنا من وعد كنا نشعر بثقله ونحقق فكرة خامرتنا طويلا وكنا منها في تردد وحذر ، ونقدم للقراء هذا البحث - في ثوب آخر - عن بيئة العراق التي ساهمت بأكبر خط في الثقافة الإسلامية وأنتجت أهم الآثار في تلك الثقافة ، وأمدتها بكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة ، ومع هذا فلا يزال كثير منا يجهل تاريخ الحضارات العراقية ولا يهتم بدراساتها ومعرفة مدى تأثيرها في العقلية الإسلامية بقدر ما يهتم بدراسة علمائها وأدبائها وفلاسفتها الذين كانت لهم اليد الطولى في تأسيس تلك الثقافة الإسلامية وفي الماضي بها قدما حتى استطاعت أن تقف على قدميها وتنافس أعرق الثقافات القديمة من يونانية وفارسية ورومانية . ونعتقد أنه لم يعد هناك مجال للجهل هذه الحضارات ، وللانصراف عن دراسة الصلة بينها وبين ما أنتجته من آثار ، ومن قدمته من علماء ، فقد أصبح من الضروري في الدراسات الحديثة أن تدرس البيئة بنفس العناية التي يدرس بها الأشخاص وأن تحلل آثارها بنفس العمق الذي يحلل به العلماء ؛ وكثيراً ما كان في هذا النوع من الدرس عون على كشف ما غمض من الأسرار ، وتصحيح لما كان مستقراً في الأذهان من أخطاء . على هذا الأساس وبهذه المنهج نشرع في طبع هذا الكتاب للمرة الثانية وكنا أمل أن يحقق ما نهدف إليه من غرض وما تتطلبه طبيعة البيئة العراقية من درس وعناية واهتمام .

وسيرى القارئ للطبعة الثانية أننا لم نحاول تغيير منهج الطبعة الأولى إلا بقدر ما تستلزمه ضرورة تسجيل كل ما لدينا من معارف ، فالمنهج الأساسي لن يمس بقدر ما تمس التفاصيل ، والخطوات الرئيسية الكبرى لن تبدل بقدر ما تبدل النظريات الجزئية والمسائل الفرعية . وسيلج القارئ

كذلك في هذه الطبعة أننا نطوف به خلال بيئة العراق منذ أقدم عصورها
في التاريخ ونستمر في التنقل به من عصر إلى عصر ومن حضارة إلى حضارة حتى
نصل إلى الفتح العربي الإسلامي وهنا نلقى عصا السير ونقف به لحظة نتأمل
فيها الماضي البعيد ، ونتدبر ما صنعته حضارات الأجيال القديمة في هذه
البيئة على مر الأزمان . ونحن إذ نقف بالقارئ عند الفتح العربي إنما
نكتفي بالقاء الضوء على ظلام الماضي ، ونقتصر على كشف معالمه ، وإظهار
حقائقه ؛ وبذلك نكون قد مهدنا السبيل لكتاب آخر يتناول نفس البيئة
بعد الفتح العربي الإسلامي وما كان لها من الماضي البعيد وثقافتها العديدة من أثر
في فروع الثقافة الإسلامية .

وبالله نستعين ومنه نستلهم التوفيق ؟

حسن عون

الإسكندرية في ٢٤ / ٦ / ١٩٥٢

قلم — بيد

ليس من أغراضنا الأساسية في هذا البحث أن نتعرض للعراق كبيئة جغرافية فندرس طبيعة أرضه ومناخه وسكانه ولا أن نتناوله من الناحية التاريخية فنذكر عصوره السياسية وما توالى عليه من دول وأسر وملوك ؛ فذلك جانب من الدرس لا يهمنا وهو متروك للجغرافيين والمؤرخين وكل ما يعنينا هو بيان نشأة الحضارة الانسانية في هذه المنطقة من الأرض ثم بيان مظاهر هذه الحضارة وتطورها على مر العصور وأخيراً مبلغ أثر هذه الحضارة على من وفد إلى بيئة العراق يستوطنها ومبلغ أثر هذه العقلية الجديدة الوافدة من الخارج على تلك الحضارة . ونحن اذ نتعرض إلى ما يمس الجغرافيا أو التاريخ ويتصل بنظرياتها إنما يكون ذلك بقدر ما تستلزمه الضرورة فقط لاجلاء بعض الحقائق الخاصة بالحضارة وتاريخها في أرض العراق . ولعل أول سؤال يخطر ببال القارئ ويجد نفسه في حيرة منه هو :

١ - لماذا نجد أنفسنا في حاجة إلى هذا النوع من الدرس ؟

من المسلم به أن بيئة العراق أو « ميزوپوتاميا *Mésopotamia* » كما يسميها الأجانب كانت أولى البيئات العربية الإسلامية التي بدأت تدون العلوم العربية وتنتشر ثقافته العربية في مختلف فروع المعارف الانسانية . وقد استمرت زمناً طويلاً تكاد تحمل هذا العبء وحدها حتى نهضت عواصم أخرى للبهالك الإسلامية في أجزاء مختلفة من الأرض تتحمل شطراً من هذه الرسالة العظيمة ، وتساهم بجزء كبير في رقيها ونشرها بفضل ما تنتجها فيها وما تضيفه إليها من فكر ، وعلم ، وأدب ، وفن .

ولقد كانت هذه البيئة التي نحن بصدد الحديث عنها بمثابة المركز

الأول للحضارة الإسلامية الواسعة ، والبيئة الخصبة لنموها وازدهارها ، وقد تركزت فيها منذ العهود الأولى للإسلام حركة علمية قوية فيها من آثار العقلية الإسلامية وفيها آثار جديدة أخرى لم تكن معروفة قبل عند العرب فكان من هذا الخليط في العقلية وفي التفكير وفي المعارف إنتاج واسع المدى عظيم الأثر عجيب التكوين ؛ لم يقف أمره على أيام الفتح العربي الإسلامي بل بقي يسير الزمن في تقدمه ويتغلب على كل الصعوبات التي تعترضه ؛ وقد استمرت هذه الحركة تنمو وتنفط بسرعة مع الزمن لا تقف ولا تتعثر حتى وصلت أوج عظمتها في عهد الخلفاء العباسيين الذين انتحوا بالدولة الإسلامية نحواً جديداً لا يتسم بطابع العصبية للعرب ورسوموا لها منهجاً واضحاً يقوم على التأليف بين العناصر المختلفة ، والعقلية المتباينة ، والمعارف العديدة .

ولم يقف الأمر في هذه البيئة عند حد التدوين والتأليف ، ولكنها نشطت كذلك في ناحية الترجمة فنقلت إلى العربية أهم الآثار العلمية والأدبية عند الأمم القديمة الراقية كالحند ، والفرس ، والسيانيين ، والبرانيين ، واليونانيين ، والرومانيين . وهكذا أصبحت المعارف الإسلامية زاخرة بمعارف تلك الأمم وعلومها ، وهكذا ترجم إلى العربية مئات من عيون السكتب في الطب ، والرياضيات ، والفلك والتاريخ ، والأدب ، والفلسفة ، والطبيعات وحسبنا أن نتصفح كتاب الفهرست لابن النديم لنرى مبلغ الآثار الأجنبية التي نقلت إلى العربية ولنقف على عدد أولئك العلماء الأجانب عن العرب الذين كرسوا جهودهم وسخروا عقولهم لخدمة الثقافة الإسلامية حتى وصلت إلى درجة من التقدم يصعب على العقل أن يتصورها في مثل هذه المدة القصيرة من الزمن .

لم تكن هذه النهضة القوية في البيئة العراقية ، ولا تلك الحركة العلمية

الواسعة التي صورنا باختصار جانباً منها ، وليدة الصدفة ، ولكنها من غير شك نتيجة لعوامل متعددة ، منها الزمنى والمكانى والاجتماعى ؛ وقد تألفت هذه العوامل وتعاونت على خلق تلك النهضة الجديدة التي عرفها الاسلام في أرض العراق ، ومن هناك امتدت إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى . فكانت بيئة العراق بمثابة من يحمل مشعل الحضارة وينشر أضواء المعرفة على سائر البيئات الإسلامية الأخرى ولن نستطيع أن نجد لغير هذه البيئة مثل ذلك الأثر في العهود الإسلامية الأولى . ولكي نفهم عوامل تلك الحركة العلمية أو أسبابها لا بد من دراسة البيئة العراقية دراسة تفصيلية تبين لنا كيف كانت هذه البيئة قبل الدولة الإسلامية ؟ ومتى عرفها التاريخ وبدأ يسجل أحداثها السياسية وآثارها العلمية ؟ وإلى أى مدى قد وصل فيها تقدم الحضارة حتى صارت تقارن بأعرق الحضارات الإنسانية القديمة ؟ وما هي الأدوار التي تقلبت فيها تلك الحضارة فكانت سبباً لانتشارها طوراً ولا نكماشها طوراً آخر ؟ ثم ما هو مبلغ صلاتها بالحضارات الأجنبية القديمة وتأثيرها بها ؟

وإذا فهمنا ذلك بوضوح أمكننا أن ندرك لماذا أصبحت هذه البيئة بمثابة المنارة الأولى لنشر المعارف الإسلامية والترية الخصبة الصالحة لبذور تلك المعارف الواسعة ، وكيف اختصت هي وحدها بذلك دون غيرها من الحواضر الأولى في الدولة الإسلامية كالمدينة ، ومكة ، ودمشق ، وذلك بالرغم من أسبقية هذه الحواضر بالنسبة لتاريخ الإسلام ، فمكة والمدينة كانتا مهبط الوحي ومركز الرسالة وجمع الصحابة وأوائل الخلفاء ، وبيئة الشام كانت مقر السلطان ومصدر السياسة الإسلامية أيام الدولة الأموية كلها ، ومع هذا فلم تحظ الثقافة العربية الإسلامية من تلك الحواضر بمثل ما كانت تحظى به في بيئة العراق من أبحاث علمية ومذاهب فلسفية وآراء سياسية واجتماعية ، كل هذا كان لنا بمثابة الحافز القوي لدراسه ببيئة

العراق ومعرفة ما كانت تشغله من مكان ثقافي ممتاز أملاً في ربط القديم بالحديث ، وشرح ذلك الحديث على ضوء معرفتنا بالقديم .

وذلك جانب هام من البحث ينبغي أن يكون من هدفنا دائماً في كل مرة نتعرض فيها إلى دراسة مادة من مواد المعارف الإسلامية كالبلاغة والنحو ، والتفسير ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرياضة إذ أننا في الشرق ، وفي كثير من الأحيان ، قد ألفنا دراسة هذه المواد مجردة في مناهجها ومبادئها ، وقواعدها ، دون أن نغير أى اهتمام إلى البيئة التي نشأت فيها ولا إلى تاريخ نشأتها ، ولا إلى دراسة أولئك الذين أسسوها ونهضوا بها ؛ ومن هنا كانت دراستنا لهذه المواد ناقصة ، ومعرفتنا بها في الغالب غير مثمرة ؛ ومن هنا أيضاً عز علينا تحليلها ونقدها ، وتعودنا قبولها كما وصلت إلينا دون مناقشة ، وعطلنا ملكة التفكير الناقدة فينا ، وألفنا التواكل ، والاستسلام لكل ما رآه الأقدمون ، ونظرنا نظرة استصواب وقداسة لكل ما ورثناه عن أساتذتنا وعلمائنا السابقين . وهذه ، من غير شك ، محنة ابتليت بها أغلبية الدراسات في الشرق منذ زمن قديم ، ولم يحاول رجال العلم والبحث المحدثون محاولة جدية لعلاجها وشفاء عقلية المتعلمين والدارسين من شوائبها وأمراضها ، وليس لذلك من علاج ، فيما نعتقد ، سوى أن ندرس تاريخ العلم وبيئته بجانب دراستنا لمنهجه وقواعده ، ونظرياته ؛ ثم ندرس صلته بغيره من العلوم ، وما يمكن أن يكون هناك من أثر متبادل بينه وبين هذه العلوم .

البيئة العراقية في أول عهودها التاريخية

ليس من شك في أن العوامل الطبيعية في البيئة العراقية توحى لأول وهلة

لمن ينظر اليها نظرة جغرافية عابرة بأنها بيئة صالحة للأقامة الطويلة وللحياة
الرغدة ، وكذلك كان شأنها منذ أقدم العصور التاريخيه فقد وجد فيها
الإنسان مأوى يركن اليه من قسوة الطبيعة وجفافها ، وأرضاً مهيّدة يعتمد
عليها في ممارسة تفكيره وعمله وإنتاجه ، ووادياً خصباً يجد فيه الكثير
من الخيرات ولا يحس في استغلاله بكبير عناء وهذه البيئة تشبه إلى حد بعيد
بيئة وادي النيل والنتيجة الطبيعية للحياة في مثل هذه البيئات هو نشأة
الحضارات ونموها على مدى الزمن ؛ وذلك هو ما كشف عنه التاريخ بالنسبة
للشعوب التي وجدت منذ القدم وعاشت في وديان الأنهار وخصوصاً عند
مصابها . وذلك ما أمكن ملاحظته بالنسبة لوديان الأنهار في بلاد الصين
والهند والعراق في آسيا ، وبالنسبة لوادي النيل في أفريقيا ، ووادي التيسر
في أوروبا . ولهذا فقد كان الشبه عظيماً جداً ومن جهات متعددة بين سكان
وادي النيل وحضارتهم وسكان وادي الرافدين وحضارتهم . وأول شعب
عرفه التاريخ من شعوب هذه البيئة العراقية هو شعب السومريين ، نسبة
إلى المنطقة الجنوبيه التي كانت تعرف باسم سومر *Sumer* بالقرب من
المصب القديم لنهرى دجله والفرات إذ أن هذا المصب بدأ يتقدم نحو الجنوب
نتيجة لانحسار ماء البحر وتحول البحيرات الواسعة إلى سهول بالنسبة للظمى
الذى ينقله ماء النهرين من الشمال كما يتبين ذلك من الخريطة المرسومة في كتب التاريخ
لهذا الأقليم . ولم يكن لفظ السومريين يطلق على سكان هذه المنطقة يوم ظهوروا فيها
بل استمرت مدة من الزمن لا يعرف مداها موطناً لقبائل تفد إليها مرة
من الشرق وأخرى من الغرب والجنوب . والغريب في شأن هذا الشعب
السومري أنه لم يعرف له أصل بالتحديد ، ولا من أى جهة وصل إلى هذه
البيئة : فهو لم يكن من الشعوب الآرية التي كانت تسكن بجانبه من الشرق ومن الشمال ،

ولم يكن كذلك من الشعوب السامية التي كانت تسكن بجانبه من الغرب ومن الجنوب . وقد استمرت آراء علماء الاجناس والتاريخ متضاربة في أصل الشعب السومري : ولعل أوضح الآراء وأقربها الى المنطق السليم هو أنه مكون من خليط من الجنسيتين ، فبعض القبائل قد وفد من بلاد ايران وبعضها جاء من شبه الجزيرة العربية ومن امتدادها في الشمال وعلى مر الزمن قد اندمجت هذه القبائل في بعضها وتم فيما بينها من التآلف والتشابك ما جعل منها شعباً موحداً له نظامه الخاص وحياته الاجتماعية الخاصة ؛ وذلك بحكم طبيعة البيئة وما تقدمه من أغراء في الاقامة ووسائل للحياة ^(١) . ولنترك الآن جانباً الكلام عن أصل هذا الشعب السومري ولنتحدث عنه منذ عرفه التاريخ فذلك هو الذي يعنيننا بالذات .

عرف التاريخ هذا الشعب منذ القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد ، وعرف له كذلك حضارة عظيمة ذات طابع خاص ، ومظاهر متعددة : كان هناك كثير من العلماء ، والادباء ، والصناع ، ورجال الدين . وكل هؤلاء وأولئك على اختلاف عقلياتهم ودرجاتهم في التفكير ومبادئهم في البحث والانتاج قد اضطرتهم لوازم حياتهم وطبيعة بيئتهم إلى أعمال الفكر بجانب أعمال الجسم وإلى استخدام كل ملكاتهم حتى يستغلوا خيرات بلادهم ويبتكروا لكل نوع من ضروريات الحياة ما يسد الحاجة . كل هؤلاء وأولئك قد تكاتفوا على تأسيس هذه الحضارة العظيمة التي عرفت فيما بعد باسم الحضارة السومرية . وبالرغم من أن أهم مظاهر الحضارة السومرية كان وليد الحياة

^(١) وادى الرافدين مهد الحضارة لمؤلفه السير ليونارد وولي ص ١٥ تعريب

احمد عبد الباقي

المستقرة في هذه البيئة الخصبة فإن الانسان ليدّش حقاً حينما يرى بعض آثار هذه الحضارة وما كانت عليه من تقدم وأتقان في عصور تسبق ميلاد المسيح بآلاف السنين ؛ هذا وقد حاول بعض الاركيولوجيين والمؤرخين أن يضعوا حضارة السومريين في صف حضارة الفراعنة من حيث قدم العهد والعظمة والخلود . بل ويذهب بعضهم الى أنها قد وصلت الى درجة من الرقي قبل أن تتكون للفراعنة حضارة في وادي النيل ^(١) . وقد يتلمس المنصف بعض العذر لهؤلاء المؤرخين ؛ ولكن يصعب عليه أن يجاريهم في هذه المغالاة ؛ إذ أن النظرة المنصفه الدقيقة ، والتحليل الواسع العميق لما اكتشف من آثار الحضارة الفرعونية يقوداننا إلى الاعتراف بأن حضارة السومريين ممثلة في هذه الآثار الفجة البسيطة المتشابهة لا تكاد تقف على قدميها إذا ما قورنت بحضارة الفراعنة الواسعة الآفاق المتعددة المظاهر المبدعة في صنعها النفاذة في تحليلها الرائعة في عظمتها المتحدية للزمن في خلودها المحيرة لعلماء العصر في بنائها وأسرارها ، حتى ولو لم يكشف لنا الاركيولوجيين عن أوليات الحضارة الفرعونية ، ولا عن تأريخ مبدئها الحقيقي .

ونعود الآن إلى الحضارة السومرية فنقول لعل أهم علم عندهم هو علم الهندسة المعمارية التي ظهرت آثارها بوضوح في بناء المدن ، والحصون ، والقلاع وهم لذلك أول الشعوب الذين استعملوا العقد ، والقباب في المباني وكان ذلك تطوراً طبيعياً للنظام البدائي البسيط في اقامة الأكواخ من أعواد القصب وخزم الغاب الذي لا يزال نجد صورة منه في بناء الاخصاص والعشش في ريف مصر وقراها . ويغلب على الظن أن ما نراه الآن من نظام هندسي معماري في اقامة القباب المستعملة في بناء الكنائس والمعابد

(١) وادي الرافدين للسير ليونارد وولي ص ٢٥

والمساجد إن هو الا أثر من آثار فن الهندسة المعمارية عند السومريين .

وأهم مظهر لنشاطهم العقلي هو الكتابة ، وهي تعتبر من أقدم الرسوم الكتابية في العالم ، وتسمى بالخط المسماري عند العرب ، وبالرسم ذى الزوايا عند الأوربيين ، وبرسم الاوتاد عند العبرانيين . ومصدر الخلاف في هذه التسمية هو ما يوجد من شبه بين الكتابة السومرية وهذه المسميات .^(١)

ولغة السومريين تشبه الى حد ما لغة الفراعنة في مصر أو اللغة الهيروغليفية اذ أن كل واحدة منهما تعتبر رسماً للمعاني لا للاصوات : كان السومريون يرمزون بصورة النجم مثلاً الى الكلمة الدالة على السماء وهي « أنا - ana » أو على الإله وهي « دينجير - denjir » . وكذلك كان شأن الهيروغليفية في رسمها تقريباً ، اذ أنهم كانوا يرمزون برسم دائرة في وسطها نقطة لتدل على الشمس ، ثم على اليوم : وللدلالة على البقرة كانوا يرسمون صورتها ، وكذلك كانت صورة الصقر تدل عليه .

غير أن لغة الفراعنة قد خبطت في سبيل التقدم خطوة لم تستطع أن تخطوها لغة السومريين اذ أنهم بعد مضي زمن طويل قد اهتموا برسم النطق والاصوات بدلاً من رسم المعاني مجردة ، وأصبح الفم يرسم كدائرة مفرطحة « ○ » وينطق « را Ra » والماء بخط معرج « ㄣ » وينطق « ني - ni » والقفل كسمارين متلاقين عند رأسيهما « ㄣ » وينطق « سي - si » ، ثم ان الفراعنة بعد هذه الخطوة أيضاً توصلوا الى رسم بعض الاصوات مجردة عن المعنى وكان ذلك بمثابة خطوة هامة في تاريخ الكتابة ؛ اذ أنها انتقلت بذلك

(١) فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٢٥ الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠

من طورها البدائي الساذج إلى طور تجريدي جديد ، وقد أخذ الفينيقيون رسم بعض هذه الأصوات مجردة وأتموها وكونوا الحروف الهجائية في وضعها النهائي فنسب هذا الاختراع اليهم ثم أخذها عنهم كل شعوب العالم . فأخذها عنهم العبرانيون واستخدموها في الرسم العبري الحديث ، ثم التدمريون ، والنبطيون ، ثم الآراميون الذين نقلوه بدورهم إلى الهنود ، ثم الينيون وعندهم وصل إلى الاحباش ، ثم الاغريق وعندهم أخذ اللاتينيون ؛ وأخيراً عن الرسم الاغريقي واللاتيني تفرعت كل أنواع الرسم المستعملة الآن في اللغات الأوروبية الحديثة (١)

وإذا كان تطور الكتابة الهيروغليفية كما بينا انتقالاً من رسم المعنى إلى رسم الصوت فإن الكتابة السومرية قد تطورت بدورها ولكنها تطورت من نوع آخر ؛ إذ انتقلت من حالة تصويرها للمعنى إلى حالة رموز ترسم لنفس المعنى لا لرسم الأصوات وكان ذلك نتيجة لنوع القلم الذي كانت تكتب به هذه الرسوم ، فبدل أن كنا نقرأ في الخط المسماري صور الأشياء أصبحنا نجد فيه مجموعات من الخطوط كل مجموعة منها ترمز إلى صورة من صور الأشياء ؛ ومن هنا يظهر في جلاء الفرق بين تطور الهيروغليفية ، وتطور المسمارية فالأول تطور لغوي فلسفي ، والثاني تطور شكلي ظاهري (٢) .

(١) انظر كتاب - وادي الرافدين مهد الحضارة - لمؤلفه السير ليونارد وولي وتعريب أحمد عبد الباقي ص ٣٢ حيث توجد لوحة تبين تطور الكتابة المسمارية من حالة التصوير الخالص للأشياء إلى حالة الرمز إلى تلك الصور . وقد عرف هذا التطور بفضل اللوحات الطينية التي عثر عليها في مدينة اوروك ، ثم في مدينة كيش ، وأخيراً في مدينة جمدت نصر .

(٢) انظر فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي - الطبعة الثالثة ١٩٥٠ م ص ٣٦-٣٧

أما مظاهر حضارتهم من الناحية الدينية فقد تجلت في بعض مفرداتهم اللغوية التي ورثها عنهم بعض الشعوب السامية التي نزحت إلى هذه البيئة وأقامت ممالك سامية على أنقاض مملكتهم . وكذلك فيما اكتشف لهم من معابد كانت تحتوى على كثير من التماثيل المتقنة الصنع ، والنقوش المتعددة الأشكال مثل معبد تل العميد ، وفيما عرف لهم من مراسيم دينية كانت تقام في المواسم والأعياد ، وفيما أثر عنهم من دعوات وأغاني كانت ترتل تقرباً إلى الآلهة وتخلصاً من أدران الدنيا وملاذ الحياة .

ثم ان بعض الباحثين قد أثبت وجود صلة قوية بين الحضارة عند العبريين وحضارة السومريين من الناحية العلمية ، وقد اعتمدوا في ذلك على ما جاء في مزامير داود خاصة بتلك الإشارات العلمية ولعلنا نستطيع أن ندلل كذلك على حضارتهم بوجه عام ، وذلك بواسطة ما وجد لهم من نقوش وصور ، ثم من تحف وتماثيل قد لا تقل في اتقانها وروعيتها عن غيرها من الآثار التي وجدت عند الأمم الأخرى . فما عثر عليه التمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، ثم إن المنقبين قد عثروا في مدينة أور على رأس بقرة مصنوع من الفضة وذلك في مقبرة الملكة شب-آد ، ويعتبر هذا التمثال آية فنية رائعة ، أما الصور والنقوش فقد وجد منها عدد كبير في آثارهم بعضها عن طريق الرسم والبعض الآخر عن طريق الحفر . وإذن فقد استطاع السومريون بفضل ما نعموا به من حياة الاستقرار وخصوبة الأرض ووفرة الخيرات أن ينشئوا لهم حضارة متعددة المظاهر تتناول نواحي الحياة من سياسة واقتصاد ودين .

وقد بقيت هذه الحضارة في ازدهارها وتطورها نحواً من عشرين قرناً من الزمن ؛ فكانت بمثابة اللبنة الأولى في بناء الحضارة البابلية الواسعة وفيما

جاء بعدها من حضارات ؛ ومن هنا نشأت السومريين على الشعوب
الذين ورثوهم ، وأسسوا دولهم على انقاض دولتهم .

الأكاديون

في نفس الوقت الذي كان يعيش فيه شعب السومريين في الجزء الجنوبي
من أرض الجزيرة ، كان يقيم في الجزء الشمالي من هذه الجزيرة ، شعب
آخر يعرف بالشعب الأكادي نسبة إلى بلاد أكاد *Akkad* كما كان يسميها
السومريون أو إقليم « كده » كما كان يسميه الساميون .

لم يعرف كذلك أصل هذا الشعب لا من الناحية الجنسية ولا من الناحية
التاريخية ولعله تكون من خليط من الأجناس وفدت من الشرق ومن
الغرب بنفس الطريقة التي تكون بها شعب السومريين الذين احتلوا المنطقة
الجنوبية من وادي الرافدين ؛ ولكنه لا يقل في معارفه ، وفي حضارته عن
شعب السومريين في الجنوب ؛ بل أننا نستطيع أن نقول أن الأكاديين
والسومريين قد تعاونوا معاً على اظهار حضارة موحدة ، ذات مظاهر متعددة .
ولقد كانت هذه الحضارة بمثابة الأساس الاول لكل ما عرف في هذه
البيئة من حضارات واليكم ما كتبه الأستاذ ول ديورانت في الجزء الثاني من
كتابه « قصة الحضارة » . (١)

ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً في هذا التناقض
بين خزفها الفج الساذج وحليها التي أوفت على الغاية في الجمال والإتقان .
لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع في

(١) انظر الجزء الثاني - الشرق الادنى ص ٤٠ ، ترجمة الاستاذ محمد بدران .

بعض الأحيان . وفي تلك البلاد — على قدر ما وصل اليه علمنا في الوقت الحاضر — نجد أولى ما أسسه الإنسان من دول وامبراطوريات ، وأول نظم الري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب للقوانين ، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، وأول قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأولى أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن في الترصيع والتزيين . وهنا نجد في البناء أول العقود والأقواس وأولى القباب ؛ وهنا كذلك تظهر لأول مرة في التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة في نطاق واسع : يظهر الرق والاستعباد وتسلب الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة مهذبة موفورة النعم متعددة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفي تلك البلاد كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر . ومن هذه الصفحة المجيدة التي سطرها هذا الكاتب الغربي مستوحياً في ذلك ما اكتشف من آثار تاريخية وعلمية في هذه البيئـة نستطيع أن نرسم لأنفسنا صورة واضحة عن حضارة هذين الشعبين ونستطيع كذلك أن نتصور الأثر العميق الذي تركته هذه الحضارة في الشعوب السامية التي وفدت إلى هذه البيئـة فيما بعد وأقامت ممالكها على أنقاض دولة الأكاديين والسومريين .

استمر وادي دجلة والفرات أهلاً بالسومريين جنوباً والأكاديين شمالاً وخاضعاً لنفوذهم حتى حوالي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، أي أنهم

استمروا يحكمون هذه المنطقة مدة عشرين قرناً تقريباً . ومنذ هذا التاريخ يظهر على مسرح هذه البيئة شعوب سامية دخيلة تنفع بحضارة السكان الاصليين وتضيف إليها ما يجعلها في صف أرق الحضارات القديمة عند الشعوب الأخرى .

البابليون — الآشوريون

يطلق هذا الاسم على الأمم السامية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية واستقرت في وادي دجلة والفرات شمالاً وجنوباً . وهؤلاء البابليون — الآشوريون يكونون شعبة مستقلة متميزة عن باقي الشعب السامية الأخرى التي تعرف كآلآتي : الكنعانيون في بلاد سوريا وفلسطين ، والآراميون في الأراضي المحصورة بين الآشوريين — البابليين شرقاً والكنعانيين غرباً ، واليمنيون في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، والحبشيون في بلاد الحبشة ، والعرب في بلاد الحجاز . وليس لنا هنا أن نعرض بالتفصيل للخلاف الناشئ بين العلماء خاصاً بالموطن الأول لهذه الشعوب السامية ، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى الرأي الذي استقر عليه أكثر العلماء فقد رجح أكثرهم أن يكون الموطن الأول لهذه الشعوب هو شبه الجزيرة العربية ، ولأسباب طبيعية واجتماعية اضطر الساميون أن يهجروا هذا الموطن الأول ، ويستقروا في مواطن أخرى . ونحن لو تصورنا الحياة في شبه الجزيرة العربية وما تختص به من قسوة ، وفقر ، وجفاف ، وخشونة ، ولو تصورنا كذلك ما يبدو كظاهرة طبيعية عند الشعوب السامية من كثرة الفسل لأمكننا أن نفهم في سهولة تعليل تلك الهجرات الكثيرة المتوالية التي كونت ولا تزال إلى حد ما تكون جزءاً من حياة الأمم السامية ولنفس هذه الأسباب قد وجدت

عند العرب في الجاهلية تلك العادة التي نهى الإسلام عنها وأشار إليها القرآن في غير موضع ، وهي قتل الاولاد خشية الاملاق . وأظننا جميعاً نذكر تلك القصة التي يرويها مؤرخوا العرب ^(١) من أن أسد بن هاشم بن عبد مناف كان له وهو في حداثة سنه صديق من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ؛ فجاءه هذا الصديق في يوم من الايام وشكا له مجاعة أصابت أسرته وخشى أن يكون مآل أسرته الهلاك كما كانت عادة قريش إذ ذاك حين تصيب واحداً منهم مخمصة فيخرج هو وأسرته ويضرب على الكل خباء يبقون فيه حتى يموتوا جميعاً . ولما سمع أسد هذه الشكاية من صديقه دخل باكياً على أمه وقص عليها ما سمعه فأرسلت إلى أسرة صديق ولدها بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ؛ ثم لم تجد الأسرة المخزومية ما تسد به رمقها بعد أن نفذ الدقيق والشحم فجاء صديق أسد مرة أخرى شاكياً مستعطفاً متوسلاً ، فقام هاشم في قريش خطيباً ودعاهم جميعاً إلى الاشتراك في أعمال التجارة وتقسيم الرخ على كل الأفراد حتى يمكن معالجة هذه العادة العربية الجاهلية ؛ فكان هذا من هاشم بمشابة العلاج الموقوت ؛ ولكن الإسلام قد حسم الأمر فيها فاقتلعها من النفوس اقتلاعاً وحرماً تحريراً قاطعاً .

إن أول هجرة عرفها التاريخ لهذه القبائل السامية ، التي كونت فيما بعد شعبة البابليين - الآشوريين ، كانت حوالى القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد . نزحت هذه القبائل من قلب شبه الجزيرة العربية نحو الشمال ،

^(١) ينسب مؤرخو العرب هذه الرواية إلى ابن عباس مستدلاً بها على أن قريشاً بدأت رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن بسبب هذه الحادثة - انظر أسواق العرب ، للأفغانى ص ١٢٤ - ١٢٥

واستمرت في سيرها شمالاً متتبعه آثار المرعى والسكّاء ، وباحشة عن مكان يصلح الإقامة الدائمة . وفي شمال شبه الجزيرة العربية اتجهت نحو الشرق حتى وصلت حدود مملكة السومريين التي تقدم الكلام عليها . ولعلها أقامت في ضواحي هذه المملكة القوية مدة طويلة من الزمن لا تستطيع أن تهاجمها ولا تتعمق في بلادها وحينما كثر عددها ، وازداد نفوذها ، وأحسّت من نفسها القوة بدأت تشن غاراتها على السومريين والاكاديين وتنزع السلطان من يدهم شيئاً فشيئاً حتى قضت على سلطانهم السياسي نهائياً حوالي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد .

وأول جزء استولت عليه القبائل السامية من هؤلاء السكان الاصليين هو بلاد أكاد ، ثم بعد ذلك زحفت إلى الجنوب وضمت كذلك منطقة سومر وبذا أصبحت بلاد سومر وأكاد تكون مملكة سامية واحدة ؛ اتخذ الساميون عاصمتهم الاولى في منطقة أكاد . ثم انتقلت العاصمة إلى سومر ؛ وأخيراً عادت إلى الشمال حيث استقرت في مدينة بابلونيا ، ومن هنا جاءت تسمية الساميين المقيمين في هذه البيئة باسم البابليين .

لم تقف هجرة الامم السامية النازحة من شبه الجزيرة العربية عند هذه القبائل التي استقرت في بلاد الاكاديين والسومريين ، ولكنها استمرت تتلاحق مع الزمن ؛ إذ أن العوامل الطبيعية والاجتماعية التي دفعت القبائل السامية الاخرى إلى ترك موطنها الاول ، استمرت كما هي في حرب مستمرة مع سكان الجزيرة العربية تقسو عليهم فيندفعوا أمامها تاركين بواديهم القاحلة ، وباحثين عن موطن جديد تتوفر فيه شروط الحياة وتكثر فيه موارد الرزق . وأهم هجرة لتلك القبائل الاخرى حدثت في حوالي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . إذ سارت في نفس الاتجاه الذي سلكته

القبائل الأولى .

تجاوزت هذه القبائل في سيرها شمالاً موطن الساميين الذين وفدوا قبلها واتجهت إلى الجزء الشمالى من بلاد العراق حيث الحوض الأعلى لنهر دجلة . وهناك تغلبوا على السكان الأصليين ، وأقاموا لهم مملكة عاصمتها مدينة آشور - *Assur* ؛ ثم نقلوا هذه العاصمة فيما بعد إلى مدينة نينوى - *Ninive* . وهنا نجد وادى دجلة والفرات من الشمال إلى أقصى الجنوب خاضعاً لسلطان الساميين ومكوناً لمملكة سامية مترامية الأطراف .

بدأ النزاع السياسى فى وادى دجلة والفرات يأخذ صورة جديدة ، فبدل أن كان النزاع قائماً بين الساميين من ناحية وسكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى ، أصبح نزاعاً بين الساميين أنفسهم من أهل الشمال وأهل الجنوب ، فطوراً يتغلب أهل الجنوب وتسمى المملكة كلها بمملكة بابل ، وطوراً يتغلب أهل الشمال وتسمى المملكة السامية كلها بمملكة آشور ، وهكذا استمر هذا النزاع قرناً عديدة من الزمن .

ليس يعنينا هنا أن ندخل فى تفصيل هذا الصراع السياسى بين بابل وأشور فتلك هى مهمة المؤرخ السياسى ، ولكن الذى يهمنا قبل كل شئ هو بيان ما كانت عليه الأمم السامية فى هاتين المملكتين من حضارة ورقى على وأدى .

ورث الساميون فى أرض الجزيرة العراقية حضارة قديمة ومدنية واسعة راقية . وهناك ظاهرة اجتماعية ينبغى ألا تغيب عنا بالنسبة للشعوب السامية : ذلك أن الإنسان السامى من طبعه أن يقبل الجديد ولكنه مع ذلك لا بد وأن يفهمه ، ويهضمه ، ثم يشكله بعد ذلك بأسلوبه الخاص ، ولا يتنازل

هو عن شخصيته أبداً ، وهذا عين ما حدث في بيئة العراق أو في غيرها من
البيئات الأخرى التي احتلها الساميون ، فقد رأيناهم قديماً في وادي دجلة
والفرات وفي بيئة الشام ، ثم في بلاد الحبشة ، ولكنهم ظلوا مع ذلك
ساميين في كثير من أخلاقهم وعاداتهم ، ومتشابهين في كثير من خواطرهم
وأفكارهم وبقيت لغاتهم كذلك متقاربة ، بالرغم من الخلافات الظاهرة
العديدة . في كثير من مفرداتها وصيغها ، وتراكيبها ، ورسومها الكتابية .

ورأيناهم كذلك حديثاً في بيئات نائية مختلفة كأواسط أفريقيا ، وشمالها
وبلاد الأندلس ، وأمريكا الجنوبية ، وجزر المحيط الهندي ، ولكن عوامل
الشبه العديدة لا تزال تجمعهم وتربط فيما بينهم . أصطبغت إذن حضارة
السومريين بالعقلية السامية ، واتسعت دائرتها وتعددت مظاهرها حتى
استطاعت أن تنافس أرق الحضارات في العالم القديم . إذ أن الحضارة
البابلية كادت تكون على قدم المساواة مع الحضارة المصرية القديمة ، مع
ما نعرفه لهذه الحضارة من عظمة ، وعمق ، واتساع . ولم يعد هناك مجال
للشك في أن المصريين والبابليين قد تعاصروا ، واتصلوا ، وتبادلوا كثيراً
من الأفكار ، والعلوم والمعارف . غير أننا ينبغي ألا نبالغ في أثر تلك
الصلات وألا نذهب مذهب القائلين بأن قسماً كبيراً من الحضارة البابلية
مأخوذ عن المصريين ؛ إذ أن الواقع أن الفروق متباعدة جداً بين الحضارتين
والأسس التي بنيت عليهما كل من الحضارتين متغايرة تماماً ؛ وهما هي ذى
بقايا الحضارتين من ناحية المبانى ونظمها ، والعقيدة ومراسمها ، والأدب
ومعامله تشهد بوجود تلك الفروق ، وهذه الخلافات . لقد كانت هذه الصلة
بين شعبين متحضرين منظمين لكل منهما مجتمعه ، وسياسته ، ومعارفه ، وأهدافه
ولم تكن بين شعبين أحدهما منظم متحضر والآخر همجي بدائي ؛ وعلى

هذا فن السهل أن نتصور مبلغ ما يكون من أثر حضارة أحد الشعوب على حضارة الشعب الآخر .

ولو تصورنا الحالة التي كانت عليها دولة الاشوريين - البابليين من نظم سياسية ، وعقائد دينية ، وقوانين اجتماعية لاستطعنا أن نفهم الدرجة التي كانت عليها حضارة الساميين في هذه البيئة ، وسنرى عما قريب كيف كانت هذه الحضارة أساساً لكثير من الحضارات الاخرى ، شرقية وغربية ؛ وذلك بفضل تلك الابحاث العديدة التي قامت على أساس المكتشفات الحديثة لما بقى من آثار البابليين خاصة بالعلوم والادب والعقيدة والقانون .

قد اندثر كثير من معالم هذه الحضارة ، ولم يبق لنا من آثارها إلا القليل ، ولكن هذا القليل يستطيع مع ذلك أن يرسم لنا صورة كفيلة بتبينها وترسم معالمها حتى النواحي التي لم تكتشف ، بعد ، آثارها .

ولنحاول الآن ، قبل كلامنا عن مظاهر الحضارة البابلية ، أن نبين باختصار ماذا وجدته البابليون في بيئة السومريين من نظم ومعارف حتى استطاعوا على أساسه أن يقيموا تلك الحضارة الواسعة ، والدولة الادارية المنظمة :

ورث البابليون من السومريين والاكاديين دولة واسعة على جانب عظيم من النظام السياسى والاجتماعى ، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والحضارة ، فلم يجدوا عناء كبيراً فى الرقى بدولتهم الخاصة إلى مكانة تجعلها فى صف أرقى الامم القديمة ، ولا فى التنوع والاكثار من مظاهر حضارتهم حتى تغدو سيدة الحضارات فى كل البيئات الواقعة فى غرب آسيا ، وأساساً هاماً للحضارات الغربية كال يونانية واللاتينية . وجد البابليون أمامهم تربة خصبة فى

سهول ممتدة واسعة ، وسائل الرى فيها مهيأة ، وأنواع النبات والثمار فيها
عديدة مختلفة . وجدوا أمامهم نظاماً هندسياً متبعاً فى البناء فطبقوه بسهولة
على مبانيهم وأقاموا على أساسه قصورهم ومعابدهم وحصونهم وقلاعهم ؛
وجدوا نظاماً من الكتابه موضوعاً ومدرساً ومتقناً فاستغلوه مباشرة فى
تدوين أفكارهم ومعارفهم وعلومهم وقوانينهم ؛ وجدوا نظاماً من النحت
والنقش والزخرفة فاستعملوه فى إقامة تماثيلهم ، وتصوير آلهتهم وتزيين
قصورهم وهياكلهم ؛ وجدوا طرق المواصلات مرسومة بين القرى والمدن
فاستطاعوا بواسطتها أن يوسعوا تجارتهم وينموا ثروتهم ويسيطروا سيطرتهم
ويحكموا إدارتهم ، على كل البيضة العراقية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ؛
وجدوا عقيدة منظمة إلى حد ما ، لها مبادئها ومراسمها ، وأهدافها فوضعوا
على أساسها ديانتهم وتمكنوا بعد ذلك من أن ينفذوا إلى الناحية الفلسفية
من تلك المبادئ الدينية ؛ وجدوا مبادئ الطب والفلك والرياضة فذهبوا فى
دراسة هذه المبادئ وتوسعوا فى تحليلها وتنظيمها وتطبيقها حتى أصبحت
علومها متينة الأساس واضحة المعالم ، محددة الأهداف ؛ وجدوا آثاراً أدبية
تقوم على الخرافات والاساطير وتتناول الشعر والغناء فى حالتها الأولى ؛
فنسجوا على منوالها وأقاموا على أساسها القصص التاريخى ، والشعر القصصى ،
والادب الدينى وهكذا فى وقت من الزمن قصير استطاع البابليون أن يكونوا
لأنفسهم حضارة متعددة الآفاق ، مترامية الأطراف ، محكمة الصنع لا تسكاد
تدانيها فى وقتها حضارة أخرى فيما اكتشف ، إذا استثنينا من ذلك حضارة
قدماء المصريين . ولولا هذه الأسس الممهدة لما استطاع البابليون أن يصلوا
إلى هذه الدرجة العظيمة من الحضارة فى خلال نحو أربعة قرون فقط ؛ إذ
أن مبدأ قيام الدولة البابلية كان فى حوالى القرن الخامس والعشرين وتاريخ
وصولنا إلى أوج العظمة العلمية والسياسية والاجتماعية ، والقانونية كان فى

في أيام حكم حمورابي ، أى حوالى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ؛
وذلك قليل جداً فى تاريخ تكوين الحضارات .

من هذا العرض السريع نلّس تعدد مظاهر الحضارة البابلية ؛ وليس من
السهل أن نتناول كل مظهر من تلك المظاهر بالتفصيل ؛ ولكننا نخض من
ذلك مظهرين اثنين لأنها عنوان رقى عقلى واجتماعى لا يكاد يقل عن رقى
الأمم المتحضرة الحديثة ، ثم نجمل الكلام على بعض المظاهر الأخرى .

قد اهتمدى المنقبون حديثاً الى كشف أثرين عظيمين من آثار تلك
الحضارة ، وكلاهما يدل على نشاط علمى ، ورقى فكري لا يكادان يقلان
عن نشاط ورقى أى أمة من الأمم القديمة الراقية .

أما الأثر الأول فيدل على ما كان لدى الساميين فى هذه البيئة من حركة
علمية واسعة ، وحرص ، ودأب متواصلين فى سبيل الحصول على الكتب
فى مختلف المعارف الإنسانية . هذا الأثر هو ما كشف من بقايا مكتبة قديمة
أنشأها أحد ملوكهم فى مدينة كانت تقع فى المنطقة السومرية ، وبذل لها
من الجهد ووجه لها من عنايته ما جعلها تضارع أكبر المكتبات فى العالم
الحديث من حيث الأسس والمبادئ والمناهج وإن كانت تقل عن هذه
المكتبات من حيث ما صنف لها وجمع فيها من كتب .

والآن نترك الأستاذ جورجى زيدان يقص علينا ما كتبه فى الجزء الأول
من كتاب « تاريخ أداب اللغة العربية » تحت عنوان أقدم مكتبة فى العالم ^(١)
« عبر النقبابون على قرميدة بابلية عليها كتابة مسمارية فيها قائمة بأسماء

(١) انظر ص ١٢ من الكتاب - الجزء الأول - الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ م

ملوك بابل منذ أكثر من ستمين قرناً : ويدل ذلك على قدم التمدن في ذلك البلد المبارك ، وفي جملة أولئك الملوك ملك اسمه « شرجينا » كان محباً للعلم والعلماء ، راغباً في العبارة ، أنشأ مكتبة في « وركاء » من أعمال العراق سماها مدينة الكتب ، وعهد إلى رجال من خاصته في جمع الكتب قديماً وحديثاً وأن يفسروا بعضها بالترجمة أو التعليق ، واستعان بالعلماء من سائر الأقطار لينقلوا علوم الآخرين إلى لسانهم وتدوين علومهم . واشتغل آخرون بالشرح والتعليق - كما فعل بطليموس فيلادلفوس بالاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكسرى أنو شروان في جنديسابور في القرن الخامس للميلاد ، وكما فعل الرشيد والمأمون في بغداد في القرنين الثاني والثالث للهجرة . وقد دون شرجينا هذه العلوم بالحرف المسماة نقشا على الطين وهي القراميد الآشورية المعروفة .

فكانت مكتبة وركاء هذه مملوءة بالكتب اللغوية والفلكية والشرعية والأدبية وغيرها . ثم نسخت بعد إنشائها بخمسة عشر قرناً بأمر من أمير آشوري وحفظت في دار خاصة بها كما تحفظ المكاتب اليوم . وعثر النقباءون بالأمس على بقايا هذه المكتبة بين النهرين ونقلوها إلى المتحف البريطاني في لندن فهي هناك إلى هذه الغاية .

من ذلك نرى أن البابليين ومن بعدهم، الآشوريين قد ضربوا المثل الأول لغيرهم من الملوك في العناية بجمع الكتب ، والاهتمام بالانتاج العقلي وإنشاء المكتبات . ثم إن ما صنعوه كذلك من ترجمة وشرح وتعليق ليسدل على مبلغ الرغبة في التوسع العلمي والاستزادة من المعارف الأجنبية ؛ وما عهدنا وجود مثل تلك الرغبة في دولة لم تكن على درجة كبيرة من النظام والاستقرار والثقافة ؛ والذي صنعتته الدولة البابلية في هذا السبيل يترجم

عن رغبة الطبقة الارستقراطية على الاقل ، وذوق الخواص في جمع الكتب والعناية بها ؛ إذ أن ذوق الدولة صورة من ذوق الافراد ؛ وإذن فمن المرجح أنه بجانب هذه المكتبة الملكية كان يوجد عدد غير قليل من المكتبات الخاصة .

أما الاثر الثاني فيدل بلا شك على مبلغ ما كان عند البابليين من ثقافة واسعة وعقلية منظمة ، هذا الاثر هو قانون حمورابي ، وهو في الواقع صورة ناطقة عن الحياة العقلية في بابل ، بل هو أجل أثر تهديده حضارة تلك الامة السامية إلى حضارات العالم قديمها وحديثها على السواء . وإن الباحث ليدعش حقاً حينما يطالع مافى هذا القانون من النظرة الشاملة في أمور هذا المجتمع ومن الفلسفة العميقة في وضع كثير من أحكامه وتخير صور العقاب الرادعة لكي تستأصل شأفة الفساد من النفوس ؛ وإن تلك الدهشة لتزداد عند الباحث حينما يقارن هذا القانون في وضعه وتقسيمه ، وتنسيق أحكامه بما جاء في قانون الاثني عشر لوحاً عند الرومانيين وبين وضع القانونين نحو من ثمانية عشر قرناً من الزمان ؛ إذ أن الاول وضع في حوالى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، والثانى وضع حوالى القرن الثالث قبل الميلاد .

وهذا القانون الرومانى مع ضيقه ، وبساطة مواده ، وسذاجته ، وركه عبارته قد شاد به سييسرون ، خطيب الرومان ، وغالى في قيمته ، ودقته مغالاة جعلته ينادى بهذه العبارة المأثورة : إن ما تحويه مادة واحدة من مواد هذا القانون من فلسفة تساوى فلسفة الدنيا بأجمعها !!

اكتشف هذا القانون منقوشاً على مسلة حجرية عظيمة بالخط المسهارى في مدينة السوس وهى أهم مركز في إقليم يقع في الشرق من بابل وكان

يسميه اليهود قديما بلاد عيلام . وهؤلاء العيلاميون يكونون شعبا من الشعوب الهندو - أوروبية ، وكان لا يفتأ يشن غاراته المتتابعة على مملكة بابل . وفي إحدى غاراته نقل فيما نقل من أسلاب ، هذه المسئلة حوالي القرن الحادى عشر قبل الميلاد - بقيت هذه المسئلة بما عليها من نقوش فى طى الكتمان حتى جاء المنقبون من علماء الآثار واكتشفوها حديثا فى بقايا مدينة السوس القديمة سنة ١٩٠٢ م ، ولا تزال هذه المسئلة محفوظة حتى الآن فى متحف اللوفر بباريس وقد اعتبر هذا الكشف بحق فاتحة عهد جديد ، اذ انه ألقى ضوءا عاما على حضارة البابليين وأوضح الى حد بعيد كيف كانت تلك الحضارة القديمة مصدرا لكثير من الحضارات التى نشأت فيما بعد ومنذ هذا الكشف قد وجدت فى مختلف البلاد الاوربية دراسات عدة حول الحضارة البابلية : من هذه الدراسات ما هو خاص باللغة ، ومنها ما هو خاص بالعلوم ، ومنها ما هو خاص بالقانون ، وهكذا فى فترة وجيزة من الزمن رأينا كتبنا قد ألفت ، ورسائل قد قدمت ، وعلماء قد تخصصوا لدراسة هذه الحضارة العريقة ، وتصدوا للمقارنه بينها وبين سائر الحضارات القديمة كالسومرية والمصرية واليونانية .^(١)

وقانون حمورابى مكون من مجموعة من المواد تصل الى ٢٨٥ مادة : قد قسمت ونظمت باعتبار الموضوع لا باعتبار العقوبة ، والترتيب الذى دونت به تلك اللوائح يعتبر ترتيبا علميا دقيقا فهو لا يكاد يقل عن ترتيب أى قانون فى أرقى الدول الحديثه فضلا عما عرف من قوانين الدول القديمة : فهناك قسم خاص بالاملاك المنقولة ، وقسم آخر يختص بالاملاك العقارية ، وقسم

(١) من هؤلاء العلماء الاستاذ jacque pirenne فى كتابه *civilisations antiques*

ثالث يتناول التجارة والصناعة ، ورابع يختص بشئون الاسرة وما يتفرع عنها كالزواج ، والتبني ، والارث : وهناك قسم خامس يختص بالاضرار الجسمية . وأخيراً القسم الذى يدور حول العمل وما يترتب عليه من صلة بين المالك والاجير . وإذا كنا نسمع الآن بأن أعرق الامم حضارة فى العصر الحديث قد بدأ ينادى بمبدأ التأمين فى الصناعات وفى المهن الحرة ، فأننا نستطيع أن نجد صدى هذا المبدأ يتردد فى قانون حمورابى ؛ إذ أن الدولة كانت تفرض على الاطباء معالجة بعض المرضى بأجور لا تكاد تذكر (١) .

من ذلك نرى أن شئون المجتمع كله لم تغب عن نظر المشرع لهذا القانون فهو من ناحية يدل على عقلية مثقفة منظمة ، ومن ناحية أخرى يدل على مجتمع ذى حضارة واسعة ، وإدارة قوية ، ورعاية شاملة ، وسلطان مستتب ونفوذ كامل .

ولو نظرنا إلى هذا القانون نظرة تحليلية لا يمكننا أن نلص فيه تطوراً فى العقلية البابلية وفى المجتمع البابلى على السواء : فبينما نجد قسماً كبيراً منه يعتمد على الدين الخالص وتحكيم الآلهة بين المتخاصمين شأن الشعوب البدائية التى لا تستطيع أن تفكر فى وضع حدود بينة منظمة لحسم النزاع فى الاسرة أو فى المجتمع ، إذا بنا نرى قسماً آخر من القانون يعتبر بحق من أرقى التشريعات الإنسانية وأعظمها استنارة واستيعاباً . وهذا بلا شك قد جعل قانون حمورابى مزيجاً من إجراءات قضائية محكمة ومن أرفع العقوبات وأشدّها وحشية . ولعل من أهم المبادئ فى قانون حمورابى هو مبدأ « النفس بالنفس » وقد جاء هذا المبدأ مفصلاً فى التوراة ، وتناولته كذلك الآية القرآنية

(١) قصة الحضارة - الجزء الثانى - الشرق الادنى - الباب التاسع ص ٢٥٢

الكريمة ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... الخ ، ومن أمثلة التحكيم
الآلهى هو أن يلقي بالمتهم فى الماء أو فى النار ويوكل أمره الى الآلهة فإن
كان بريئاً أعانته الآلهة على النجاة ، وإن كان مذنباً تخلت عنه فهلك غرقاً
أو حرقاً . ولعل من آثار ذلك ما تشير إليه قصة ابراهيم فى القرآن الكريم
حينما حطم أصنام قومه فاتهموه بذلك وألقوا به فيها ولكنها كانت عليه
برداً وسلاماً .

ولعلنا لا نتجاوز موضوع درسنا كثيراً حينما نذكر أثر هذا القانون
على التشريعات الأخرى قديمها وحديثها ، فذاك يدل على قوته واحكامه ،
ويشير الى مبلغ صلاحيته لختلف الشعوب والبيئات ؛ ولكن ينبغى ألا نبالغ
فى هذا الأثر ، بل ندرسه ونتفهمه فى شئ من الحيطة والحذر ، فنحن
لا نذهب الى القول بأن هذا القانون قد نسخ كله أو بعضه ونقل من بابل
الى البيئات الأخرى كبيئة العرب ، أو بيئة الكنعانيين ؛ أو بيئة اليونان ؛
أو بيئة الروم . ولكن مما لا شك فيه أن هذا القانون قد عرف فى كثير
من هذه البيئات ؛ وسمع الناس عن بعض مواده ومبادئه ؛ وفهمت روحه
ومراميه فأصبح بمثابة المصدر الذى يلهم المشرعين ورجال القانون ؛
وفى هذه الدائرة فقط نتناول أثر قانون حمورابى فيما عرف من تشريعات
فى البيئات الأخرى .

عرف قانون حمورابى فى بيئة الحجاز ؛ ثم بيئة اليمن ؛ وقد كان ذلك
عن طريقين : أولاً عن طريق الصلات المتبادلة دائماً بين عرب شبه الجزيرة
العربية وأخوانهم الساميين فى وادى دجلة والفرات . ثانياً عن طريق البابليين
أنفسهم الذين نزحوا من بابل حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ؛ على أثر
سقوط دولة حمورابى ؛ وتعرضها للكثير من عسف المغيرين وتخريبهم لمظاهر

الحضارة في طول البلاد وعرضها .

والذى يحدث في مثل هذه الهجرات السياسية أن يكون أغلب المهاجرين من الطبقة المثقفة سواء أكان ذلك من ناحية العلم أم من ناحية الادب أم من ناحية الدين ، ولا تزال الأحداث السياسية التي تفتاب الأمم في هذه العصور ترينا صورة مما كان يحدث في الماضي حينما تغزو أمة مملكة أمة أخرى . فعلماء الألمان الذين تركوا بلادهم أثناء الحروب ، ووجدوا في الولايات المتحدة وفي روسيا حماية ومقرا قد استطاعوا أن ينهضوا بكثير من العبء في حضارة ورق هاتين البيئتين من الناحية العلمية ، والأدبية ، بل ومن الناحية الصناعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعمرانية . ولقد رأينا في أثناء هذه الحرب العالمية الأخيرة كيف كانت الدول تتسابق وتتنافس في البحث عن هؤلاء العلماء وفي الترحيب بهم والعناية بشأنهم حتى يتسنى لهم البحث ، والانتاج ، والابتكار .

وقد عرفنا كذلك قديما كيف كانت روما تفتح أبوابها للمهاجرين من علماء اليونانيين وأدبائهم وفلاسفتهم ، وكيف كان هؤلاء جميعا النواة الأولى للثقافة اللاتينية والحضارة الرومانية الواسعة العظيمة التي تأسست في روما ثم استطاعت فيما بعد أن تنشر ألويتها على كل حوض البحر الأبيض المتوسط وفي كل البلاد المعروفة في العالم القديم . من هذا نستطيع أن ندرك في سهولة مكانة أولئك المهاجرين البابليين في المجتمع من الناحية الثقافية ، ولا نجد كذلك صعوبة في إدراك ما يمكن أن يكون لهم من أثر في البيئات الجديدة التي يتخذونها موطنا ومقرا .

عمالة العراق

مبدأ التحكيم الإلهي :-

إذن فقد نرحل فريق من البابليين إلى الجنوب طلباً للحياة الهادئة أو فراراً من قسوة المغيرين التي كثيراً ما كانت تأخذ شكلاً وحشياً عند الفاتحين في العصور القديمة . استقر فريق من هؤلاء البابليين في بلاد الحجاز ، واستمر فريق آخر يوالى السير حتى وصل إلى بلاد اليمن ، وفي كلتا البيئتين قد تكونت جالية عظيمة من هؤلاء المهاجرين الذين أطلق عليهم في بعض الأحيان « عمالة العراق » . ونحن لا نستطيع أن نتصور هجرة من هذا النوع ، يقوم بها أناس تلك مكانتهم من الثقافة والمعرفة ، ثم يستقرون مدة طويلة في بيئة أخرى أقل ثقافة وعلماً دون أن يتركوا فيها طابعاً قوياً وأثراً عميقاً ، فقد عرف عند العرب قديماً قانون « النفس بالنفس » ، وكذلك عرف عنهم في كثير من الأحيان مبدأ التحكيم الإلهي وقد أشار إليه القرآن الكريم كما تقدم الكلام على ذلك ، ولا نزال نرى آثار هذا المبدأ في طبائع البدو المنعزلين الذين يعيشون عيشة لا تكاد تختلف في شيء عن حياة البداوة في عهودها الأولى . وإن العقل ليدعش أمام بعض النتائج التي تبدو للعيان من وراء هذا المبدأ ، ومن جراء ذلك التحكيم ، وإن العلم ليقف حائراً في تحليل هذه النتائج التي لا تمهد لها المقدمات .^(١)

^(١) من ذلك ما يعرف « بالمشعة » وهي طريقة متبعة عند بعض البدو لمعرفة حقيقة المتهم إن كان بريئاً أو مذنباً وقد سمعنا من ثقات مرارا أن هذه التجربة قد أثبتت براءة بعض المتهمين بعد أن أقدموا على عملية من أقسى العمليات وأخوفها =

أما معرفة العبرانيين بقانون حمورابي فقد كان عن طريق جالية بابلية أخرى قد استقرت في منطقة مدين الواقعة في الشرق من بلاد الشام ، ويقال إن هذه الجالية قد جاءت من عمالة العراق في اليمن عن طريق التجار اليمنيين الذين ينقلون تجارتهم الى بلاد الشام ، واستقرت في هذه البيئة بعد أن وجدت فيها الشروط المواتية للحياة وللعمل والاستقرار .

الكاهن (يثرو رعوئيل)

وعرف من بين هؤلاء البابليين فيما بعد كاهن اشتهر باسم « يثرو رعوئيل » استمر هذا الكاهن يمثل بقية من حضارة البابليين في هذه المنطقة الصحراوية التي كانت في شبه عزلة اجتماعية حتى وفد اليه موسى من مصر .

وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن نشأة موسى في مصر ، وما كان بينه وبين المصريين من خصومة دفعته الى أن ينتصر لواحد من شيعته ويقضى على خصمه المصري . ولم ير موسى بدأ بعد الذي صنع من أن يفر من مصر وهكذا يستمر في سيره حتى يصل إلى منطقة مدين ؛ وهناك يجد بنات « يثرو رعوئيل » يقمن برعاية غنم الحرم فيظهر من القوة والمروءة والامانة مايجب فيه الكاهن وبناته ، ثم ينتهي الامر بأن يتزوج صغرى بنات هذا الشيخ الكبير وكانت تسمى (صبور) .

= ذلك انهم لعقوا مراراً قطعة من المعدن حميت بالنار حتى صارت كالجر حرارة ووهجا ؛ ومع ذلك لم يصابوا بأذى .

تعاليم موسى وشريعته

ومن تلك اللحظة يذشأ موسى نشأة خاصة في احضان تلك البيئة المقدسة وفي رعاية ذلك الكاهن الذي كان يقيم شعائر دينه على نظام البابليين . ولقد كان لهذه النشأة بلا شك اثرها فيما عرف من تعاليم موسى ، كقصة الخلق الاولى ، قصة الطوفان ، وما جاء في مزامير التوراة من حكم ، ومعارف ، وانشيد ، ثم ما جاء في احكامه من قانون النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والسن بالسن ^(١)

ولقد تصدى لتحليل تلك التعاليم ومبلغ اثر القوانين البابلية فيها كثير من علماء الغرب ؛ ولم يجدوا كبير عناء في إبراز ذلك الاثر بعد ان اكتشف قانون حمورابي في اوائل القرن العشرين الميلادي ؛ وعقدت الصلة بين حضارة الدولة البابلية وتاريخ موسى من حيث النشأة ؛ والتربية ؛ والتعاليم .

انتشرت شريعة موسى وتعاليمه بسرعة في كل البيئة الكنعانية التي كانت تشتمل إذ ذاك على سوريا ؛ وفينيقيها ؛ وفلسطين وما جاور ذلك شرقا وجنوبا من البيئات الآهلة بالسكان في وسط الصحراء الممتدة في تلك الجهات .

(١) لتفصيل ذلك انظر العدد الخامس من مجلة الهلال في سنتها الثالثة عشرة ؛ ثم انظر الجزء الاول من كتاب - تاريخ آداب اللغة العربية للاستاذ جورجى زيدان ص ٢٣ ، ٢٤ ؛ الطبعة الثالثة ؛ حيث يلخص فيه فصلا طويلا كتبه في هذا الموضوع الباحث نيلسن - في كتابه الالماني - *die altarabische mondreligion* عبادة القمر عند العرب وشريعة موسى ؛ ثم انظر اخيراً - العرب قبل الاسلام ص ١١١ ؛ للأستاذ جورجى زيدان .

انتقال اثر قانون حمورابي إلى اليونان

وإذا كان من المسلم به ان اليونان كانوا في تلك الاثناء على صلة مستمرة ببلاد الكنعانيين ؛ سواء بواسطة الفينيقيين الذين يجوبون موانئ البحر الابيض المتوسط من اقصاه الى اقصاه ناقلين بضاعتهم ؛ ومستبدلين بها بعض المواد الاولية من اوروبا وافريقيا ؛ او بواسطة التجار اليونانيين انفسهم الذين كانوا يجيئون الى بلاد الكنعانيين يوزعون في اسواقهم ما يحملونه معهم من مواد اولية ؛ ثم يتزودون بما كان في تلك الاسواق من مصنوعات ومنتجات ؛ نقول اذا كان هذا من المسلم به فلا غرابة اذن ان تصل تعاليم موسى الى بيئة اليونان عن طريق اولئك التجار ؛ الذين كانوا ينقلون ضمن ما ينقلون من بضائع كثيرة من المعارف ؛ والاساطير وكثيراً من الاخلاق والعادات ؛ وكثيراً من الديانات والمعتقدات .

وها نحن اولاء حتى الآن لا نزال نرى ان التبادل التجاري يصحبه دائماً تبادل في المعارف والافكار ؛ ثم في الانظمة والقوانين . حتى ان كثيراً من الباحثين ليذهب الى القول بأن التبادل التجاري اهم وسيلة للتبادل الثقافي قديماً ؛ إذ به يتم الاتصال المباشر ، والاقامة الطويلة ؛ والاختلاط الكامل .

ويمكننا على ضوء التاريخ وما أثبتته الكشف الحديث في الشرق الادنى أن نؤكد أن اليونان عن طريق صلتهم بالفينيقيين والebraانيين قد اعتمدوا الى حد بعيد على تعاليم الشرق ، وقوانين الشرق في تأسيس حضارتهم الاولى إذ لم يكن عن طريق المصادفة أن تنشأ الحضارة اليونانية أول ما تنشأ في خلال القرن الحادى عشر والقرن العاشر قبل الميلاد ، وذلك بعد أن تأسست شريعة موسى وتكونت حضارة العبرانيين بنحو ثلاثة قرون ، حينما

كانت صلة اليونان بالفيزيقيين والعبرانيين على أشدها . وينبغي ألا يغيب عنا أيضاً أن العناصر اليونانية الأولى ، التي مهدت ، لتلك الحضارة اليونانية الواسعة كانت أما عناصر يونانية قد هجرت شبه الجزيرة الإغريقية وأقامت في آسيا وإما عناصر قد اتصلت على الأقل بتلك البيئات الآسيوية التي كانت مهددا للمعارف والثقافات الشرقية . وسنرى بعد قليل مدى أثر تلك المعارف الشرقية عند أوائل العلماء ، والادباء ، والشعراء والمشرعين من رجال اليونان وذلك بفضل الدراسات التاريخية والمقارنة التي تناولت هذه الحضارات القديمة في نشأتها ، وفي تطورها ، وفي مظاهرها .

ليس من هدفنا الآن أن نتناول كل مظاهر حضارة الشرق من دينية ، وفلسفية وتشريعية ، وطبية ، وفلكية فنيين كيف انتقلت أولاً من بابل إلى البيئتين السكنعانية ثم من هذه البيئة إلى بلاد اليونان ، فذلك له موضع آخر ، ولكننا بصدد مظهر واحد من مظاهر تلك الحضارة البابلية ؛ ذلك المظهر هو قانون حمورابي . لقد اعترف كثير من المشرعين وعلماء القانون في الغرب بما لشريعة موسى من أثر واضح في قوانين سولون - *solon* ، أكبر مشرع عند اليونان قديماً ؛ لقد كانت قوانينه بمثابة أساس للقانون الروماني في بعض اتجاهاته ^(١) . وعلى القانونيين اليوناني والروماني نشأت القوانين الحديثة في العالم الغربي ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ثبت لدى الباحثين حديثاً من أثر قانون حمورابي في شريعة موسى وتعاليمه القانونية فإنه يظهر لنا في جلاء كيف انتقل قانون حمورابي عن طريق غير مباشر أولاً إلى القانون اليوناني ثم إلى القانون الروماني . وهنا يجب ألا نبالغ أيضاً في هذا الأثر

(١) انظر : *page 13-histoire de la litterature latine par j.humbert*

فمنسب أثر كل بيئة طبيعياً واجتماعياً فيما نشأ فيها من قوانين ، إذ أن كثيراً منها كان يستلهم البيئة نفسها فيستمد بعض مواده مما فيها من أخلاق ، وعادات ، وطباع ؛ ولقد شوهد ذلك واضحاً في دراسة القوانين القديمة ؛ وحتى في التشريعات الدينية لم يلاحظ على القوانين أنها تجردت تماماً عن طبيعة البيئة التي نزلت فيها بل اعتمدت عليها واستمدت منها ما يصلح لبناء المجتمع الجديد ثم أضافت إليه ما يقوم ذلك المجتمع .

وإذا كنا فيما مضى قد أجمالنا الكلام عن حضارة بابل في الحديث عن أثريين اثنين من آثارها ، هما مكتبة (وركاء) وقانون (حمورابي) فإن ذلك ينبغي ألا يصرفنا عن الإشارة إلى بعض العناصر الأساسية في تلك الحضارة لكي تكون الصورة التي نأخذها عنها واضحة المعالم ؛ بيئة السمات منسجمة الألوان ؛ ولكي نستطيع كذلك أن نتبين من خلال تلك العناصر أثر مجهود البابليين أنفسهم فيما ورثوه عن أسلافهم السومريين ؛ وفيما أضافوه إلى ذلك التراث من دين أو أدب ، وعلم ، وفن . وبهذه الطريقة يسهل على الباحث أن يلاحظ ظاهرة النمو والتطور في عناصر الحضارة ، ويلاحظ كذلك مدى أثر القديم فيما يحدث ويستجد ، ثم يستطيع أخيراً أن يدرك مصدراً من أهم المصادر التي استقى العرب قديماً منها معارفهم ؛ وأن يعلل في يسر ما أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث : لماذا نجد أنفسنا في حاجة إلى دراسة الحضارات المتعاقبة في بيئة العراق .

بعض العناصر الأساسية في تلك الحضارة

١ - من الناحية الدينية :

ورث البابليون عن السومريين ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، ديانة لها تقاليد ومراسمها ، وأنظمتها ومعابدها ، ولكنهم لم يقنعوا بما كان في ذلك التراث الديني من بساطة ، وسطحية فأخذ رجال الدين منهم يتأملون فيما لديهم من معتقدات ويحاولون الملاءمة بينها وبين مصالح الشعب حتى استطاعوا أن يجعلوا من تلك العقيدة رقيباً على الأفراد في معاملاتهم لأنفسهم ولذويهم وللناس . الآخرين على السواء ، وبهذا قد تمكن الكهنة من بسط النفوذ الديني والسيطرة الكاملة على النفوس بفضل ما كانوا يؤكدونه من رغبة ورهبة : رغبة في حسن جزاء الآلهة لمن يخلص في عمله ويدين بالطاعة للرؤساء ؛ ورهبة من هول العقاب لمن يتهاون أو يتمرد أو يحاول العبث بحقوق الآلهة أو واجبات الدولة والأفراد ، على هذا الأساس تطورت العقيدة وعمت عالمها وكثرت الآلهة ؛ وعلى هذا الأساس أيضاً توحد المجتمع ، وتحدت أهدافه ، وساد فيه النظام ، وعلى هذا الأساس أخيراً كان سلطان الدين والكهنة أقوى وأعظم من سلطان الملك والدولة فكان الملك لا يعترف به إلا إذا خلع عليه الكهنة ولاية الملك وكان ينظر إليه كوكيل ينفذ إرادة الآلهة وكان للكهنة نفوذ عظيم في تصريف أمور الدولة وفي فض النزاع بين المتخاصمين فوجد فيهم القضاة ، والأدباء ، والعلماء ، ورجال القانون . ونظرة فاحصة في ديانة البابليين ترينا عقيدة قوية مهيبة منظمة ، ولقد كانت هذه العقيدة في آلهتها ؛ وفي نظمها ، وفي أساطيرها مصدر الكثير من العقائد الوثنية في الأمم القديمة وعلى الخصوص الأمة العربية ، وكثيراً ما امتدحها

اليونانيون واللاتفيون وشادوا بها في سبيل المقارنة بينها وبين ديانة المصريين الذين كانوا على حد تعبيرهم يعبدون أنواعاً مختلفة من الحيوان ؛ والطيور ، والنبات . وأشهر الأساطير الدينية عند البابليين هي قصة الطوفان ؛ ثم قصة الخلق الأولى للعالم وما في ذلك من تاريخ الانسان منذ عهده الأولى .

٢ - من الناحية الأدبية :

ثم أننا لو تجاوزنا الناحية الدينية وذهبنا إلى الناحية الأدبية بمعناها الضيق لوجدنا لديهم كثيراً من الشعر الديني لا يكاد يقل في موضوعه ، لا في كميته ، عن الشعر الديني عند اليونان أو الروم ، وكذلك نجد لديهم كثيراً من القصص المنظومة على ألسنة الحيوانات تكاد تشبه ما نراه مذكوراً في كتاب كريمة ودمنة ، وهنا ينبغي أن ندخل في حسابنا على الأقل حينما ندرس أصل هذا النوع الأدبي - فقد اجتمع على ألسنة الطيور والحيوانات نقول ، ينبغي أن ندخل في حسابنا الحضارة البابلية ؛ إذ أن كثيراً من الباحثين في العصر الحديث قد اتجه في درسه لهذا النوع الأدبي إلى افتراض أن البيئة الأولى لهذا الأدب إنما هي الهند وقد ذهب الفرس إلى الهند لترجمة هذا الأدب من الهندية إلى الفارسية ومن ذلك إلى العربية ^(١)

ولم نجد ، فيما قرأنا ، واحداً من الأدباء أو النقاد قد حاول أن يتلصق أصل هذا الأدب في بيئة بابل . وإذا كان الأمر كذلك فأننا نرجح أن أصل هذا الأدب إنما هي الآداب البابلية بالقرب بين البيئتين (بابل وفارس) واضح ، والتشابه بين الظاهرتين الأدبيتين ملموس ، وعلى هذا فانتاج الفرس

(١) انظر مقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام على كتات كريمة ودمنة .

في هذا الأدب إن هو إلا امتداد لانتاج البابليين ؛ ثم عن الفرس انتقل
هذا النوع الأدبي الى اليونانيين بفضل إيزوب - *esope* ، الذي كان أسيراً
من الأسرى الشرقيين الذين عاشوا في بيئة اليونان ؛ وعن اليونانيين انتقل
هذا الأدب الى الرومانيين بفضل الأديب فيدر - *fedre* ، الذي كان تلميذاً
اليونانيين ومن أصل يوناني ثم عاش في روما وألف مجموعة أساطيره المنظومة
على السنة الطيور والحيوانات ؛ وعن هذين المصدرين - إيزوب عند اليونانيين
وفيدر عند الرومانيين - استقى الأديب الفرنسي لافونتين *la fontaine*
قصصه الأدبية المجموعة تحت هذا العنوان : *ables de la fontaine*

وهذا موضوع للبحث طويل ، نكتفي منه بهذه الاشارات العابرة
والنقط الأساسية ، ونترك التفصيل فيه لمباحث مستقل ، أو لأديب ناقد
أو اطالب يتخذ موضوعاً لرسالة يمين فيها متى ، وكيف ، وأين نشأ هذا
النوع الأدبي ؛ ثم يتبعه في البيئات الأخرى متناولاً مظاهر التطور وعوامل
ذلك التطور فيه .

ولقد عرف عند البابليين كذلك بعض المسرحيات التي كانت تمثل في
بعض الطقوس الدينية ؛ إما لأحياء ذكرى الآلهة ، واستحضارهم في صور
واقعية ملموسة ؛ وأما لتصوير الرحمة والجبروت عندهم فيتم لهم من وراء
ذلك الدعوة إلى الرغبة فيهم والرهبة منهم .

وهذه المسرحيات تشبه إلى حد كبير مسرحيات اليونان في نشأتها
الأولى يوم كانت تقوم حول المعتقدات الدينية لخدمة الآلهة أو لتصوير
أحداثهم وما أثرهم ^(١)

(١) - نشأت المسرحيات بأنواعها : الدرامه ، والتراجيديدى ، والكوميدي حول =

ولعل أهم أثر أدبي عند البابليين هو تلك الملحمة التي ذاع صيتها وتحدث عنها كثير من الأدباء والباحثين وعرفت باسم ملحمة (جلجميش) هذه الملحمة ، بالرغم مما يبدو من اضطراب في تأليف أجزائها ، تعتبر بداية طيبة لما ظهر عند اليونان من شعر قصصى عظيم ، إذ أنها تحتوى على العناصر الهامة التي تميز الملاحم عن غيرها من الأنواع الأدبية كالخيال الواسع ، والحوادث الخارقة للطبيعة ، وإشراك الآلهة مع الإنسان في التكوين أو في الصراع ، أو في الأخلاق ، أو في الطباع ، أو في الغرائز الجنسية ، أو في غير هذا وذاك مما ألفنا وجوده في الياذة هوميروس أو في ملحمة الأخرى المعروفة بالأوديسا ، أو في إنياده فيرجيل عند اللاتينيين ؛ إذ أن هندسة التأليف أو بناء الملحمة في كل ذلك يكاد يكون واحداً وإن اختلف الموضوع ، وتباينت في الظاهر الأهداف . ولنجمل الآن الكلام عن ملحمة جلجميش فيما يأتي تاركين التفصيل للترجمة الكاملة لما عثر عليه منها في قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، الفصل الخاص ببابل ، ترجمة الأستاذ بدران : تنسب هذه الملحمة الى جلجميش ، حاكم مدينة أروك ، وهو من نسل الآلهة شمش - نيشتين الذى قد نجا من الطوفان في نظر الأساطير القديمة ؛ وتصف الملحمة هذه الشخصية وصفاً خارقاً لطبائع الناس

= الفكرة الدينية والعقيدة الخاصة بالاله ديونيزوس - *sozypoir* ، إله الخمر عند اليونانيين ؛ وكان نشأة ذلك في خلال القرن السابع والسادس قبل الميلاد ولو أردنا أن نبحث عن ذكر أسماء بعض المسرحيات في ذلك الزمن . فأننا نجد منها : *les prêtres, les jeux funébres de pelias, les jeunes gens* ، وقد كانت هذه المسرحيات عبارة عن تمثيليات ساذجة تبين روح التهمك والسخرية ، أو شعور الحزن والأسى ، أو أحساس الفرح والطرب ؛ وأول من نهض بهذا الفن الشعري هو *thespis* وقد عاش في القرن السادس ق.م

من حيث جمال الخلقة ، وعظم الجسم ، ونفاذ البصيرة ، وإدراك الأسرار .
ثم يستبد هذا الحاكم بأفراد مملكته استبداداً عظيماً إذ يسخر الرجال في بناء
الأسوار ، ويغدر بالزوجات والفتيات فيشكوه الشعب إلى الآلهة إشتار فتدخل
هذه الآلهة في مساعدة الشعب ضد هذا الحاكم الظالم وتستعين بكثير من
الوسائل كي تغلب عليه فتذهب إلى أورور ، وهي عرابة جلجميش ثم
ترجوها في خالق ولد آخر يشغل جلجميش ، فتصور العرابة انجيدو من
الطين . ينشأ انجيدو هذا نشأة غريبة إذ يعتزل الإنسان ويعاشر الحيوان
وكأنه واحد من الحيوانات ؛ فيحتال صائد على صيده حتى يمكن لسكان
المدينة أن يتغلبوا بواسطته على جلجميش ولكن الصياد لا يفلح فيتوسل إلى
جلجميش كي يعيره كاهنة تستطيع بجهاها وإغرائها أن تصطاد انجيدو .
تنجح الكاهنة في إغرائها فتوقع أنجيدو في شرك حبها ويستمر معها سبعة
أيام معتزلاً كل أنواع الحيوانات وبعد أن يفيق من سكر اللذة مع
الكاهنة يأخذ في الزم في الدم على مفارقة أصدقائه الحيوانات ولكن الكاهنة له
بالمرصاد فتزجره على هذه الحياة في وسط الوحوش وتغريه بالذهاب إلى
أروك ومخالطة جلجميش حاكم المدينة فيخضع انجيدو لمشيئتها ويعود معها إلى
المدينة وهنا تسر الآلهة وأفراد الشعب بما صنعت الكاهنة وبمقدم انجيدو
مؤمنين أن يتغلب على الحاكم المستبد جلجميش ؛ ولكن هذا الأخير ينتصر
بقوته على انجيدو ثم يتخذه صديقاً له . وهنا نجد الآلهة إشتار تظهر مرة
أخرى على مسرح الملحمه فتقع في حب جلجميش الذي عجز انجيدو عن
هزيمته ؛ ولكن جلجميش يرفض حبها وإغراءها فتتوعدده وتنذره بعد أن
تعدده وتمنيه ولكنه يقابل كل ذلك بالرفض ؛ فتذهب إشتار وهي محنقة إلى
الاله الأعظم - أنو - وتتوسل إليه بأن يخلق وحشاً قوياً يصرع جلجميش
يرفض الاله طلبها ويؤنبها عليه ولكنها تصر على ذلك وتتوعد الاله - أنو -

إن هو لم يخضع لارادتها . وأخيراً يجيب الاله طلبها ويخلق الوحش ولكن
جلجميش يتغلب على ذلك الوحش بمعاونة أنجيدو .

يفيظ ذلك إشتار وتدرك السبب في هزيمة الوحش وهي قوة أنجيدو
فتنقلب بحبروتها ضد أنجيدو وتساط عليه مرضاً يصرفه . وهنا يحزن جلجميش
ويبلغ منه الحزن كل مبلغ فيأخذ في التفكير في سر الخلود؛ ولا يجد وسيلة لأدراك سر
الخلود الا بواسطة الاله شمش - ينشتم فيأخذ الطريق اليه ويصارع الطبيعه والمردة
أياماً، وليالي حتى يصل الى ذلك الاله ويطلب منه سر الخلود فيعطيه نبتته
ثمها يحدد الشباب . يسر جلجميش بتلك النبتة ويأخذ طريق العودة الى
أروك وبينما هو يستحم أثناء العودة اذ جاءت أفعى وسرقت النبتة .

يعود جلجميش اذن الى أروك حزيناً يائساً ولكنه يلبأ الى الآلهة مرة
أخرى فيطوف بالهيكل ويقيم الصلوات متوسلاً الى الآلهة ان يعيدوا الحياة الى
انجيدو لكي يستطيع ان يتحدث اليه ولو بكلمة واحدة . تقبل الآلهة دعواته
وتبعث الحياة في انجيدو فيتوجه اليه جلجميش بالسؤال عن حال الموتى .
يرفض انجيدو اول الامر الاجابة عن هذا السؤال رحمة بجلجميش وخوفاً عليه
بما يصيبه من الفزع والرعب ولكن جلجميش يصر على هذا ولو كان في
ذلك حتفه فيأخذ انجيدو في وصف الجحيم وما تشتمل عليه من احوال .

وهنا بهذا الوصف الرهيب يقف سير الملحمه .

٣ من الناحية العلمية

أما من الناحية العلمية فقد ظهرت عندهم مبادئ قوية لكثير من العلوم
التي نعرفها اليوم فقد عرف لديهم التاريخ ووجد كثير من الألواح البابلية
التي تنقص أحداث العالم ، والمدن والملوك ، ويشبه هذا ما نجده من قصص

تاريخي في الكتب المقدسة عند اليهود والمسيحيين ؛ وإن الحيرة لتلك على
المطلع نفسه حينما يقرأ ما جاء في تلك الألواح وما دون في هذه الكتب
المقدسة ولكنه ينتهي إلى أحد أمرين : إما أن تكون هذه الكتب قد
استقت معارفها من تلك الألواح ، وإما أن يكون الكل قد استقى معارفه
من مصدر واحد ، وفيما عدا التاريخ قد وجد لديهم كذلك ما يعرف بالعلوم
اللسانية التي تهتم باللغة ، وتحاول أن ترسم لها حدوداً وتصنع لها ضوابط
وتنظم فيها وسائل التعبير الشعري والأدبي إذ أنه قد عرف لديهم من ذلك
علم اللغة ، والنحو ؛ والصرف وقد اضطرتهم ظروف المجتمع وطبيعة اللغة
نفسها إلى التفكير والتدوين في هذه العلوم الثلاثة . إذ أنها كانت الوسيلة
الوحيدة لمعرفة اللغة الفصحى التي تدون بها كل الآثار العلمية ، وتقام بها
الطقوس الدينية ، وتنظم بها الأشعار ؛ وتسجل بها القوانين ، وتكتب بها
الرسائل ، وتفيد بها الأفكار الأدبية .

علم الطب

ولقد كان ضمن ما عرف عندهم كذلك علم الطب الذي كان في أول عهدهم به بسيطاً ،
سطحياً محدوداً ساذجاً يعتمد على التماثل والرقى ويكاد يكون من عمل الكهنة وحدهم ،
ولكنه بمضي الزمن قد استطاع هذا العلم أن يخرج من حظيرة المعابد والهيكل ومن
سلطان الكهنة ورجال الدين ثم يأخذ له ميداناً مستقلاً فتنشأ مهنة الطب
يشرف عليها أطباء قد تخصصوا في معرفة هذا العلم وعاشوا من ممارستهم له
ويتضح ذلك مما وجد في قانون حمورابي من لوائح تنظم صلة المريض بالطبيب
وتفرض أجراً خاصاً على كل نوع من العلاج أو على كل عملية من العمليات
الجراحية ، كما نجد شبيهاً لذلك عند الأمم المتحضرة المعاصرة . وإذا كان
فهمهم لمصدر الداء هو اختلاط أجسام روحانية شريرة بأجسام البشر ، وعدم

الملاءمة بين هذين النوعين ، الا أن تفكيرهم في العلاج وفي تركيب الدواء لا يكاد يختلف عن مبادئ حكماء اليونانيين وأطبائهم ؛ الذين نادوا بهذا القول : كل داء يعالج بذات أرضه . وما نادى به اليونانيون لا نزال نراه مطبقاً الى حد ما حتى الآن . وهكذا كان أطباء البابليين يبحثون عن الدواء في أعشاب أرضهم ، وحيواناتهم ؛ فهم وإن أدخلوا التقدير في مصدر الداء فقد أصابوا في اتجاههم نحو تركيب الدواء .

علم الفلك

ولعل أهم العلوم البابلية على الإطلاق هو علم الفلك فقد بلغ عندهم درجة لا تقل عن درجة هذا العلم في مصر الفرعونية ؛ وها هو ذا العالم الحديث لا يزال يدين للبابليين بكثير من الأسس والقواعد التي وصلوا هم اليها . ولقد علل اليونانيون واللاتينيون تقدم هذا العلم عند البابليين بطبيعة البيئة والمناخ في تلك المنطقة، ولكن مهما يكن من شيء فإن ذلك لا يقلل من مجهود البابليين وفضلهم في الوصول الى معرفة كثير من النظريات الفلكية التي لا تزال صحيحة ثابتة حتى الوقت الحاضر . ولقد استعانوا على ذلك بواسطة مبادئ بسيطة ورثوها عن السومريين ولكنهم ساروا في هذا الطريق سيراً حثيثاً ومبكراً في وقت واحد فاستطاعوا أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة الى الشمس وذلك حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ؛ ثم أنهم درسوا النجوم الثابتة والمتحركة ، ورسوموا لها خرائط تبين أماكنها ؛ وطرق سيرها فأمكنهم بذلك تحديد مواقع كثير من الكواكب ؛ ولعلمهم قد سبقوا المصريين في رسم السماء وقد بين عليها كل الابراج الاثني عشر .

وكان من نتيجة أبحاثهم الفلكية الواسعة أن توصلوا إلى توقيت الزمن فقسموا السنة القمرية إلى اثني عشر شهراً قرياً ثم أنهم قد أدركوا الفرق

بين السنة القمرية وبين الدورة الحقيقية لمدار الشمس التي تلتج عنها الفصول
الأربعة ، إذ أنهم كانوا يقدرّون ستة أشهر من السنة القمرية يتكون كل منها
من ٣٠ يوماً ؛ والستة الأخرى يتكون كل منها من ٢٩ يوماً .

نقول حينما أدركوا هذا الفرق اصطلاحوا على اضافة شهر لكل مجموعة من
السنين حتى يحصل تعادل بين السنة القمرية ودورة الفصول الحقيقية . ولعل
ما كان عند العرب قبل الاسلام من طريقة في التوقيت يرجع في أصله إلى
الغادة البابلية ، التي نرجح أنها وصلتهم عن طريق البابليين إما بواسطة
صلاتهم بهم في بابل ولما بعد هجرة البابليين أنفسهم واستقرارهم في شبه
الجزيرة العربية .

ولمّا هذا تشير الآية الكريمة « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين
كفروا ، يحلونّه عاماً ويحرمونه عاماً » .

أليس ذلك أيضاً صورة لما جرى عليه المصريون قديماً من اضافة أيام
الى سنّهم كي يوازنوا بين توقيتهم ودورة الفلك الحقيقية ؟

ثم ما أدخله الرومانون من تعديل أيضاً على السنّ الشمسية التي أخذوها
عن المصريين حينما أضافوا يوماً الى كل أربع سنوات : أليست هذه المحاولة
شبيهة بما تلّبه له البابليون منذ آلاف السنين ؟

ولقد كان من نتيجة أبحاثهم الفلكية أيضاً وملاحظتهم لأوجه القمر الأربعة
أن قسموا الشهر الى أربعة أسابيع ، وقسموا اليوم الى اثنتي عشرة ساعة ،
والساعة الى ثلاثين دقيقة ، ولقد اضطروهم هذا الى التفكير في آلات يقيسون
بها الزمن وفق هذا الحساب فاخترعوا لذلك المزولة والساعة المائية .

كل هذا يلغى ضرراً على تقدم هذا العلم واتساعه عند البابليين ، ويرينسا

الى أى حد يجد العالم الحديث نفسه عالة على القدماء فيما فكروا فيه ، وفيما أوجدوه . ثم ان الباحث فى علم الفلك عند البابليين لا يستطيع أن يمتضى فى بحثه دون أن يعرج على معارف القدماء من العرب بالنسبة للزمن ، والسماء والنجوم ، والكواكب لى يقارن بين معارف الشعبين ويدرك الأثر المتبادل بين بيئة البابليين وبيئة العرب .

وهنا يجد الباحث صدق معارف البابليين الفلكية ، التى اندثرت ضمن ما اندثر ، ممثلة عند العرب تمثيلاً واضحاً ، لا فى القواعد والمبادئ فحسب ، ولكن فى الأسماء والمصطلحات أيضاً ، فعرفتهم بالنجوم وسيرها وبالقمر وأوجهه ؛ وبالشمس ومدارها ، وبالبروج الاثنى عشر واسمائها ، وبالسنة القمرية وحسابها ، وبدورة الشمس وعد أيامها ، وبالفارق بين دورة الشمس والقمر والتوفيق بينهما ، كل ذلك يعتبر صورة لما لاحظته البابليون ودروسوه ، واذن فمن العسير أن نلتمس له عند العرب مصدراً آخر غير معارف أقربائهم من الساميين الذين استقروا فى بيئة العراق واستمروا على صلة بهم وقرب منهم ، كما أنه من العسير أيضاً أن نقبل الرأى القائل بنشأة هذا العلم فى البيئة العربية وبأصالته عند العرب أنفسهم ، اذ مهما كان صفاء الجو فى شبه الجزيرة العربية ، ومهما كانت حاجة العرب فى حلهم وترحالهم الى معرفة حالة السماء والمناخ وتغير الأجواء ؛ نقول مهما كانت الضرورة التى تدفع بالعرب لمعرفة ذلك فإن كل ما يمكن تصوره فى مثل هذه البيئة لا يتجاوز بعض المعارف الأولية البسيطة المحدودة التى تلائم حياة العرب ؛ ومعارفه الضئيلة الطبيعية ، وظروفه الاجتماعية ، أما الدراسة الطويلة المتسلسلة المتشعبة التى لا تكفى بالظواهر تصفها ، وانما تنفذ الى الجوهر تحلله ، وتهلل أعراضه ؛ وتبين أوجه الصلة بين الجوهر والعرض

ثم الاثر المترتب على تلك الصلة بالنسبة لظروف المجتمع وحياة الافراد ،
نقول ان الدراسة التي هي من هذا النوع لا يلائمها غير بيئة متحضرة فيها
حياة مستقرة ؛ وفيها معاهد للدرس والبحث والتجارب ؛ وفيها وحدة اجتماعية
منظمة السياسة محددة الاهداف ؛ وما عهدنا مثل ذلك في حياة العرب قبل
الاسلام ؛ ولكننا عرفناه ممثلاً واضحاً في بيئة السومريين ؛ ثم مهذباً ناضجاً
في بيئة البابليين .

ولعل من أوضح الامثلة التي تدل على تأثر العرب بالبابليين في علم النجوم
هو ما نجده من تشابه بين الشعبين في الاسماء والمصطلحات والقواعد الخاصة
بذلك العلم ؛ من ذلك لفظ - المريخ - فإنه يقابل عند البابليين في اللفظ وفي
المعنى كلمة - مرداخ - ؛ وكذلك كلمة - زحل - عند العرب ، اذ أنها تقابل
عند البابليين كلمة - كاون - ، وهي وان اختلفت عنها في اللفظ الا أن المعنى
واحد عند الشعبين ، اذ أن معناه في اللغتين هو الارتفاع والعلو .
ثم اننا نجد كذلك تشابهاً عظيماً في أسماء الابراج السماوية عند العرب والبابليين
على السواء ، وقد ذكر الأستاذ جورجى زيدان قائمة هذه الابراج وما يقابلها
عند البابليين أو السكديانيين ^(١) فليرجع اليها القارئ وليلاحظ بنفسه مبلغ
التشابه بينها ، في اللفظ وفي المعنى .

(١) - تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الاول ص ١٦٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦
يلبغى أن يلاحظ القارئ هنا التسمية التي درج عليها كثير من العلماء والباحثين وهي
السكديانيين - ونظن أن هذه التسمية عند العرب ومؤلفيهم يقصد منها سكان بيئة العراق
قديمًا من سومريين وأكاديين ، وبابليين ، وأشوريين ، إذ أننا لا نجد ما يوافق هذه
التسمية تاريخياً ولا علمياً . وهناك رأى يثبت أصل السكديانيين إلى الآراميين =

ولنعد الآن قليلا إلى بابل لئرى ماذا آلت اليه حالها ، وبواسطة أى الهزات العنيفة قد تأثرت حضارتها بعد أن غزت وادى دجلة والفرات ، واستطاعت فيما بعد أن تغزو الجزيرة العربية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ثم تمتد فيما وراء ذلك حتى تستقر فى شواطئ البحر الابيض المتوسط ، بل تتجاوزه إلى الغرب ، ويصل صداها إلى بيئة اليونانيين .

لم يمض على موت حمورابى غير بضـع سنين حتى تصدعت مملكة بابل تحت ضغط الكاشيين الذين جاءوا من الشرق يخربون ما يحدونه أمامهم ، ويسلبون ما تقع عليه أيديهم ؛ وكان هؤلاء الكاشيون يعيشون فى منطقة جبلية فى الشرق من بابل ، ويـكونون حلقة ضمن سلسلة الشعوب الهندو-أوربية - *indo europeans* ؛ وكان صنيع هذه القبائل شبيها إلى حد ما بصنيع الساميين مع السومريين غير أن الساميين كانوا يضعون نصب أعينهم تأسيس مملكة جديدة على أنقاض مملكة قديمة فاحتفظوا بآثار حضارة أسلافهم وأضافوا إليها كثيراً من مجهودهم السياسى والأدبى والفنى ؛ أما الكاشيون فقد كانوا يضعون نصب أعينهم بيئتهم الفارسيه الأولى فحاولوا أن يهدموا تلك المملكة البابلية وينقلوا ما يستطيعون نقله من آثار الحضارة البابلية إلى بلادهم وهذا يذكرنا بما كانت تصنعه روما فيما تغزوه من البيئات المثقفة المتحضرة وهكذا نجد مرة أخرى كيف تتشابه أو تتكرر الظواهر الاجتماعيه فى العصور المختلفة وفى البيئات المتباعدة .

== الذين وفدوا إلى جنوب العراق وأسسوا لهم مدينة تسمى كده فى جنوب مدينة بابل (انظر تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الاسلامى للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدى البكرى - الصفحات الأولى من المقدمة) .

استمر هذا الشعب يعيش فساداً في مملكة بابل على حساب حضارتها مدة ستة قرون مثل ما صنع الهكسوس في مصر تماماً ؛ ولقد كان من نتيجة هذا الاضطراب أن اندثر كثير من معالم تلك الحضارة ، ووقفت حركة نموها وتقدمها ، ولكن بيئات أخرى قد استطاعت أن تخرج من ثمارها بواسطة العناصر المثقفة التي هجرت بابل وبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الهدوء والاستقرار مثل آشور شمالاً وبيئة الحجاز واليمن جنوباً . ويدلنا على مبلغ الاضطراب السياسي والاجتماعي في بابل بعد سقوطها مجموعة من الرسائل وفدت الى مصر حيث يستنجد أهل البلاد الاصليون بمعونة المصريين لكي يتخلصوا من ظلم أولئك الغاصبين .

وقد عثرت فلاحه مصرية على هذه الرسائل في (تل العمارنة) فألقت بذلك ضوءاً على ما آلت اليه حالة البلاد من الفوضى والاضطراب .

أثر الاشوريين الخاص

ذكرنا فيما مضى أن البابليين والاشوريين يسكونون شعباً واحداً من حيث الأصل ، وحضارة واحدة من حيث المبدأ ، واتجاهها واحداً من حيث السياسة وأهدافها .

وذلك حق الى حد بعيد ، إذ أنهم ينتمون الى الأصل السامي ، وأنهم نزحوا من موطن واحد ، ثم انهم كذلك استقوا حضارتهم عن مصدر واحد ذلك المصدر هو حضارة السومريين والاكايين ، حضارة البابليين والاشوريين لا تعدو أن تكون امتداداً لحضارة السومريين التي نشأت في جزء كبير من وادي دجلة والفرات ، مع ملاحظة التقدم العظيم الذي نالته على أيدي البابليين والاشوريين ؛ ونستطيع بوجه عام أن نقول أن الاشوريين

ساروا في علومهم ومعارفهم على النهج الذي وضعه البابليون من ناحية
السياسة ، والمعتقدات ، والعلوم ، والآداب ، والقوانين ، وترجمة الكتب ،
ونسختها ، والمحافظة عليها منظمة مرتبة في دار خاصة .

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نلحس أثراً خاصاً للأشوريين أضافوه من
عندهم وبمجهودهم الى تلك الحضارة ، ذلك هو تفكيرهم في أنواع النباتات
المختلفة ، وفي انساب الآلهة العديدة ، وذلك يعتبر جديداً على الحضارة البابلية

النباتات

أما النباتات فكان تفكيرهم في شأنها وليد رغبة أكيدة لاستخدامها في
الطب كوسيلة لعلاج المرضى . ولقد دعاهم ذلك الى معرفتها كلها ، وعمل
قوائم بأسمائها ثم اجراء تجارب على كثير منها حتى يمكن الوصول الى مدى
الانتفاع بها . ولقد كان ذلك بداية طيبة للتاريخ الطبيعى الذى استغله
اليونانيون والرومانيون فيما بعد الى حد كبير ، فاتخذوه موضوعاً لأبحاثهم ،
وميداناً لتجاربتهم ، ومخلفاتهم ، وسنرى بعد ذلك كيف استطاعوا أن يجعلوا
منه علماً مستقلاً منظماً ، وكيف استطاعوا أن يوسعوا دائرة معارفهم في ذلك
العلم فلم يقف عند حدود نباتات يسهل بعينها وإنما امتدت آفاقه حتى شمل كثيراً
من نباتات البيئات الأجنبية كشمال أفريقيا ومصر وآسيا ولعل أهم مثل
يضرب لذلك هو ذلك المؤلف الضخم الذى كتبه بلين القديم *pliny l'ancien* ^(١)

^(١) عاش بلين القديم في القرن الأول الميلادى (من سنة ٢٣ الى سنة ٧٩ م)
وكان له انتاج واسع لم يبق منه الا هذا التاريخ الطبيعى .

وسماه - التاريخ الطبيعي *historia naturalis* : فهو دائرة معارف لكل
النباتات المعروفة قديماً .

أنساب الآلهة

أما أنساب الآلهة والتفكير في ترتيبها ووضع تاريخ لها فقد دعاهم الى ذلك كثرتها الى درجة يتعذر على الإنسان ادراكها وعلى الذاكرة احصاؤها وهم وإن كانوا قد ورثوا عن البابليين عدداً كبيراً من الآلهة إلا أنهم قد أضافوا اليه كثيراً من آلهتهم الخاصة ، ولكي ندرك السبب في هذه الكثرة من الآلهة يجب أن نعرف فكرة القدماء عن معنى الألوهية ، فقد كانوا يتصورون ألهة أعظم هو سيد الآلهة جميعاً ، ثم إن هذا الإله يوزع السلطان على آلهة أخرى أقل درجة منه ، ثم إن هؤلاء يدخل تحت إشرافهم أنواع أخرى من الآلهة ، وهكذا دواليك حتى يتكون من مجموع الآلهة عالم آخر أقرب شها إلى العالم الدنيوى المحسوس . ثم إن الأمر في شأن الآلهة لم يقف عند هذا الحد ، بل كل مدينة كانت تتخذ لها جمعاً من الآلهة يشبه في نظامه وترتيب مهامه ما يجرى في المدن الأخرى ، ولذا فقد كانت الآلهة عند القدماء تعد بالآلاف . ولقد أحصى عددهم رسمياً في القرن التاسع قبل الميلاد فبلغوا في الدولة البابلية حوالى ٦٥,٠٠٠ (١)

وجد الآشوريون إذن ألا وسيلة لمعرفة هذه الآلهة وتمييزها إلا بتاريخها ودراسة أنسابها ، وكانت الآلهة عندهم كانوا يتناسلون كما يتناسل البشر

(١) قصة الحضارة ص ٢١٣

ويكونون مجتمعاً له نظامه ، ونفوذه ، وسياسته كما كان في المجتمع الإنساني وهذه الفكرة في جوهرها عن العقيدة ، والآلهة بما في ذلك الصلة بين هذه الآلهة وأفراد المجتمع الإنساني قد انتقلت إلى اليونانيين ، وعندهم إلى اللاتين .

وإن من يدرس تاريخ الديانة اليونانية والرومانية ليدش مما يراه من تشابه عظيم بين ديانة هذين الشعبين والديانة البابلية - الآشورية . وسنرى بعد قليل كيف استأنس اليونانيون بتاريخ أنساب الآلهة عند الآشوريين فكانت لمحدثي بواكير حضارتهم ديواناً شعرياً ضخماً يحوى أنساب الآلهة للشاعر اليوناني هيزيود *hesiode* ، واسم الديوان هو - تيوجوني - ^(١) *la théogonie*

وفيما عدا هذين الأثرين الجديدين نجد أن حضارة الآشوريين في شمال وادي دجلة والفرات هي عبارة عن امتداد لحضارة البابليين في الجنوب من دين ، وهندسة ، وطب ، وفلك ، وقانون ، ثم إن نشاطهم في جمع الكتب ونسخها ، وتأليفها ، والحرص عليها ، والبحث عنها في مظان وجودها ، ثم في إنشاء المكتبات ، ووضع نظام لها ، وإدارتها ، وتيسير سبل المعرفة أمام أفراد الشعب وتنمية الذوق في البحث والاطلاع . وتشجيع العلماء ورجال

(١) قد عاش هذا الشاعر في القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو من يوناني آسيا ويرجح أنه كان تلميذاً للقصاصين في آسيا ، ويشتمل هذا الديوان على أكثر من ١٠٠٠ بيت من الشعر قدمه بقصة الخلق الأولى ثم تناول تناسل الآلهة - انظر ص ٨٧ - ١١٨ من كتاب : *litteratur grecque par alfred croiset et maurice croiset*

الفن لا يقل عن نشاط البابليين في كل ذلك ، فهي سلسلة متصلة الحلقات
ورغبة متنقلة من شعب الى آخر في المحافظة على التراث القديم والعمل
ما أمكن على تهذيبه وتنميته ورقه .

أشور بانيبال

ولعل أشهر ملوكهم في هذه الناحية هو (أشور بانيبال) الذي كان
يستدعى المهندسين والمفتمين من جميع أنحاء مملكته الواسعة ليستعين بهم في
بناء المعابد ، والحصون ، وتخطيط الطرق وإقامة التماثيل ، ثم في تحسين
المدن وإنشاء القصور وتزيينها بالرسوم والنقوش ، وهو في هذه الدولة يشبه
إلى حد بعيد حمورابي في الدولة البابلية حينما وجه عنايته الخاصة إلى المحافظة
على تراث الحضارة السومرية وبذل الجهد في اعلاء شأن دولته ثقافياً كما أعلاه
حربياً وسياسياً .

وتسكاد هذه الحركة وذلك النشاط يذكرنا بما كان يصنعه القياصرة في
روما إذ أنهم كانوا ينقلون العلماء والأدباء والصناع والمفتمين ، مختارين
كانوا أم مكرهين ، وما كانوا يدخرون في سبيل ذلك وسعاً ، حتى لقد
بلغ بهم الأمر في فتوحهم وحروبهم أن يعتبروا هذه الفئة المستنيرة في
الممالك التي يغزونها بمثابة أسلاب تنقل مع غنائم الحرب ، كي ينفع بها في
تأسيس عظمة روما ومجدها العلمي والأدبي والفني ، وهكذا غدت روما
في آثارها ، وفي حضارتها العلمية ، والأدبية مدينة الى حد بعيد الأجانب
ما بين يونانيين وفينيقيين ، ومصريين ، وهكذا تفتقل الحضارة من بيئة الى
أخرى ، وتبادل المعارف من شعب الى آخر ، وهكذا أخيراً يعيد التاريخ
نفسه كما يقولون .

والفكرة الأساسية التي نستطيع أن نستخلصها من كل ذلك هو أن الحضارة إذا نبتت وأينعت في بيئة من البيئات ليس من السهل أن يقضى عليها في يوم وليلة كما يقضى على السياسة أو نظام الحكم بل تبقى بمرزجة بدم الشعب ، ومكونة جزءاً هاماً من كيانه وحياته وأن تلك الحضارة لا تستقر في محيط مغلق ووقفاً على شعب دون آخر بل تنتقل الى البيئات الأخرى بحكم الجوار ، والصلة والاختلاط كما تفتقل عروض التجارة . وهذه الفكرة تمهد أمامنا سبيل الدراسة لتاريخ الحضارات فنفهم الاصيل منها والدخيل ، ونميز الظواهر الاجتماعية لكي نرجع كل ظاهرة إلى أصلها ؛ وفي هذا تتحقق الغاية التي أشرنا إليها في أول هذا البحث ، ويتضح الهدف الذي وقفنا أنفسنا من أجله ، ذلك هو درس الحضارة الإسلامية درساً تاريخياً عميقاً ، وتحليلها تحليلًا علمياً شاملاً .

وإذا كنا فيما مضى قريباً قد تحدثنا عن أثر الآشوريين الخاص في الحضارة البابلية ، ثم أجمالنا الكلام عن أثرهم العام في نهضة تلك الحضارة ورقبها فأننا لانحب أن نترك هذا الفصل دون أن نبين في شيء من التفصيل مبلغ حرصهم العلمي ومحافظةهم على التراث القديم .

أثر الآشوريين العلمي

وأعظم أثر لنشاط الآشوريين العلمي هو ما قام به آشور بانينغال نفسه من إرساله عدداً كبيراً من المكتبة والنساخ إلى جهات عديدة كي ينقلوا ما تركه السومريون والبابليون من علم وفن وأدب ثم إنه وضع كل تلك الآثار العلمية والأدبية في مكتبة عظيمة أنشأها لذلك الغرض خاصة في مدينة نينوى .

ومن هنا ندرك كيف كانت الحضارة الآشورية امتداداً للحضارة البابلية حتى في وسائل جمع العلوم والمحافظة عليها .

وقد اكتشفت هذه المكتبة حديثاً ، ووجد أنها تكاد تكون كاملة لم تمس بالرغم من مضي خمسة وعشرين قرناً من الزمان . وها نحن أولاء ننقل ما كتبه صاحب « قصة الحضارة »^(١) خاصاً بتلك المكتبة كي نرى صورة لما رأيناه في بابل . « أهم ما يخلد ذكر آشور في تاريخ الحضارة هو مكتباتها فقد كانت مكتبة آشور بانيبال تحتوي ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة ، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه .

وكان على كثير منها تلك العبارة التي كانت من شارات الملك الخاصة :
فليجل غضب آشور وبليت ... على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه ..
وليحوا اسمه واسم أبناؤه من على ظهر الأرض . »

وكثير من هذه الألواح مفسوخة من أخرى أقدم منها لم يبين تاريخها ،
تكشف أعمال الحفر عنها في كل يوم

وقد أعلن آشور بانيبال أنه أنشأ مكتبة لينع الآداب البابلية أن يجر عليها النسيان ذيله . ولكن الألواح التي يصح أن تسمى الآن أدبا لا تتجاوز عدداً قليلاً منها ، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاء يقصد بها التنجيم والفقأ والطيرة والنبؤ بالمستقبل ، ووصفات طبية ، وتقارير ورقى سحرية ، وترانيم وصلوات وأنساب الملوك والآلهة . وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لو حان يعترف فيها آشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة ، وهو اعتراف يزرى به في أعين مواطنيه ، والغريب أن يكرر فيها هذا الاعتراف ويصر عليه إصراراً .

(١) قصة الحضارة - الجزء الثاني ص ٢٨٤

« أنا ، أشور بانيبال ، فهمت حكمة نابو ، ووصلت إلى فهم جميع فنون
كتابة الألواح .

وعرفت كيف أضرب القوس وأركب الخيل والعربات ، وأمسك أعنتها ..
وحباني مردك ، حكيم الالهة ، بالعلم والفهم هدية منه .

ووهب لي إتورت وشرجال الرجولة والقوة ، والبأس الذي لا نظير له .
وعرفت صنعة أديبا الحكيم ، وما في فن المكتبة كله من أسرار خفية ،
وقرأت في بناء الأرض والسموات وتدبرته ، وشهدت اجتماعات الكتبة
وراقبت البشائر والنذر ، وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت
عمليات الضرب والقسم المعقدة التي لا تتضح لأول وهلة .

وكان من أسباب سروري أن أكرر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة
باللغة السومرية ، والكتابات الأكادية التي تصعب قراءتها ..

وأتمطيت الامهار ، ركبته بحكمه حتى لا يتجمح ، وشددت القوس ،
وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح
قصيرة ... وأمسكت بالاعنة كسائق المركبات ...

ووجهت ناصبي دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التي
يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت
في الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة ، وسرت في طرائق الملكية »

هذا جانب واحد من جوانب نشاطهم قد قام به ملك واحد من ملوكهم
وعلينا بعد ذلك أن نتمثل الجوانب الأخرى التي ينبغي أن تكون متمشية
إلى حد كبير مع هذا النشاط العلمي ، وأن نتمثل كذلك ما يمكن أن يكون
الملوك الآخرون قد ساهموا به في ميدان الحضارة الواسع ، ولقد آثرنا

الاكتفاء بهذا الجانب ، والاشارة إلى بعض الجوانب الاخرى حتى لا نطيل
على القارئ ولا نتعرض لترديد ما ذكره المؤرخون والمنقبون بشأن الحضارة
الاشورية ؛ ومن يرغب من القراء في الاستزادة من ذلك فليرجع إلى
الفصول الرائعة التي كتبها صاحب - قصة الحضارة - عن آشور ، وناريخها
ومعارفها ، وفنونها ليرى بنفسه في أى مكان يستطيع أن يضع تلك الحضارة
بالنسبة للحضارات القديمة الاخرى ؛ وايذهب إلى لندن وباريس لينظر بنفسه
ماذا خلفته تلك الحضارة من زخارف ونقوش وتماثيل ، ثم ليرجع بخياله
إلى الوراء البعيد يستعرض في سلسلة من الصور السريعة حياة هؤلاء
الاشوريين ، ونشاطهم العقلي والادبي والفني ، ويقارنهم بغيرهم من الشعوب
المعاصرة التي كانت تعيش عيشة بدائية ساذجة تقسو عليهم الطبيعة وتحاربهم
بتقلباتها فلا يجدون من نشاطهم العقلي ، ولا من انتاجهم العلي ما يحميهم
ويرد عنهم ذلك العدوان . وهنا فقط يستطيع أن يتصور قيمة الحضارة
الاشورية وفضل الحضارات السابقة عليها .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن مصير تلك الحضارة العظيمة التي بقيت
في تقدم مستمر خلال مئات السنين ، بالرغم من تلك الاحداث السياسية
الخطيرة التي هزت أركان السلطان المتبادل بين بابل وأشور هزات عنيفة -
متتابعة . ذلك هو موضوع حديثنا في الفصل الآتي :

وادی دجلة والفرات بعد البابليين والاشوريين

ليس من شأننا أن نتحدث عن السياسة في هذا الجزء من الارض ،
فذلك ميدان التاريخ السياسي ومن مهمة المؤرخ السياسي الذي يتخذ من
التغير السياسي ميدانا لبحثه ، ومن الاحداث السياسية موضوعا لاحكامه ،

ومقدمة لما يريد أن يسجله من نتائج .

ولقد التزمنا فيما مضى أن ندع السياسة جانبا حتى لا تشغلنا بأحداثها وتقلباتها عما وقفنا أنفسنا من أجل درسه . وهو موضوع الحضارة في تلك البيئة بالرغم من الصلات الوثيقة بين السياسة والحضارة .

ومع اعترافنا بأن الحضارة تسير في ركاب السياسة إلى حد بعيد فإننا نكتفي هنا كصنيعنا من ذي قبل ، بمجرد الإشارة إلى أهم الاحداث السياسية التي كان لها أثر بالغ في مجرى سير الحضارة ، وما انتابها من اشراق وأفول .

رأينا أن السلطان السياسي كان أولا في يد السومريين والاكاديين واستمر ملوك هذين الشعبين يقبضون على زمام الامور من القرن الخامس والاربعين حتى القرن الخامس والعشرين تقريبا قبل الميلاد .

ومنذ ذلك التاريخ يمتقل الامر إلى يد البابليين ، ويستمر حكمهم في تلك البلاد حتى تسقط دولة حمورابي في القرن الحادى والعشرين بواسطة الكاشيين ويبقى هؤلاء في البلاد حتى ينهض البابليون من جديد ويخرجوهم في حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وهنا تعود السلطة الى البابليين ولكنهم يحكمون حكما مضطربا تسوده الفوضى حتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، فتأتى آشور لتخرب بابل وتضمها الى مملكتها . ومنذ ذلك الوقت يبدأ نوع من الصراع السياسى بين بابل وأشور تكون الغلبة فيه دائما لاشور .

وعلى حساب هذا النزاع يتكون شعب الميديين في الشرق من وادى دجلة والفرات ، ويظهر كقوة سياسية ينبغى أن يحسب لها حساب . وأخيرا لا يجد البابليون وسيلة للتخلص من حكم الاشوريين سوى استعانتهم بهذا

الشعب الفتي فيتمكنون بذلك من القضاء على آشور وإنشاء دولة بابل الثانية
في القرن السابع قبل الميلاد .

ويبقى سلطان البلاد في يد بابل حتى يأتي قورش ملك الفرس في حوالي
منتصف القرن السادس قبل الميلاد ويقضى على سلطان الساميين نهائياً في
وادي دجلة والفرات . وإذا كانت هذه البيئة قد تواردت عليها كما رأينا
تلك الدول العديدة ، ومرت بها تلك الحكومات المتباينة فإنها قد بقيت
مع ذلك موطناً لثقافات متشابهة إن لم يكن هذا التشابه في مداها فهو على
الأقل في أصولها وفي العناصر الهامة التي يعتمد عليها :

إذ أن الثقافة الدينية ظلت نخباً من أربعين قرناً وهي تستمد أصولها
من دين السومريين وكذلك مبادئ الطب والفلك والرياضة أو لعل أهم من
ذلك كله هو أن الوسيلة الوحيدة التي كانت تدون بها كل تلك العلوم
والمعارف ظلت الكتابة المسمارية لم تتغير حتى أزال الفرس نهائياً سلطان
الساميين من وادي دجلة والفرات ، ثم من مستعراتهم في آسيا الصغرى ،
وفي بلاد الشام ، بل أن الفرس أنفسهم ظلوا يستخدمون هذا الخط المسماري
حيناً من الزمن .

ومن هنا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن سلسلة الحضارة القديمة في هذه
البيئة بقيت متصلة الحلقات بالرغم مما أصابها من تصدع أثناء الهزات
السياسية العنيفة .

ثم ماذا أصابها بعد فتح الفرس ؟

لقد كان من حسن الحظ بالنسبة لهذه الحضارة أن كان الفرس الفاتحون
أقل من أصحابها ثقافة وعلماً ، وأن كانوا كذلك يتسمون في أغلب أحيانهم

بسمات التسامح فأبقوا على حضارة البلاد التي ادخلوها تحت سلطانهم ، واخذوا منها ما استطاعوا بواسطته تقويم حضارتهم ، والرقى بها إلى درجة تجعلها تعد في صف الحضارات القديمة الراقية .

بما حدث في وادي دجلة والفرات يظهر الفرق بين من يؤرخ للحضارة ومن يؤرخ للسياسة فالمؤرخ السياسي يستطيع أن يقول وهو صادق في قوله : إن الدولة البابلية قد سقطت على يد قورش عام ٥٣٨ قبل الميلاد ، ولكنه لا يستطيع أن يقول قد زالت الحضارة البابلية بزوال دولتها في نفس التاريخ ، إذ أن قيام الدولة أو سقوطها قد يكون وليد يوم وليلة ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لحضارتها التي هي وليدة أجيال وقرون ، والتي امتزجت بدماء الشعب فأضحت تكون عنصراً من كيانه ، ولذا فقد تزول الدولة سياسياً ولكن حضارتها تبقى ماثلة حية لا تتأثر بالأحداث السياسية المفاجئة إلا قليلاً ، بل ربما تؤثر حضارة الشعب المغلوب على أمره في الشعب الغالب تأثيراً بعيد المدى مثل ما حدث في وادي دجلة والفرات ، وما حدث بين الروم واليونان ، إذ أن روما بعد أن استولت على بلاد اليونان وأخضعتها لسلطانها ، استمرت حضارة اليونان تسير في الطريق الذي رسمته لنفسها ، لا في بلاد اليونان فقط ، بل في جزر البحر الأبيض المتوسط وفي شمال أفريقيا ، وفي سوريا وما جاورها شرقاً وشمالاً وكل هذا كان من مستعمرات الروم .

بل لقد وجدت لها في عاصمة الروم انفسم اشياء ومؤيدين ، فانتشرت في روما ، وأخذت تغزو معارف الروم الضئيلة وافكارهم المحدودة . ولهذا فقد ردد كثير من الكتاب اللاتينيين هذه العبارة ، وما كانوا يجدون حرجاً في ترديدها ، ولا ضيقاً في الاعتراف بها :

« إن اليونان المنهزمة قد عزت غازيها العنيد وادخلت الفنون في بيئته
 لاسيوم المتوحشة ^(١) . والذي صنعه الروم في بلاد اليونان هو نفس ما صنعوه
 في ممتلكاتهم كسوريا ، وفلسطين ، ومصر . وكذلك حين غزا القوط روما
 واسقطوها في اوائل القرن الخامس بعد الميلاد ^(٢) فإن الحضارة اللاتينية لم
 تنته بانتهاء الحكم الروماني ، بل استمرت تؤدي رسالتها مدة طويلة من
 الزمن حتى لقد تبناها الغزاة انفسهم ، فأخذوا عنها ، وتأثروا بها ، وكان
 في مسلكهم إزاءها اعتراف منهم بما لها من سبق على معارفهم الضئيلة ، وبما
 يؤمل منها من خير بالنسبة لرقبهم ، وللسير قدماً بدولتهم ؛ فكانت نظرهم الى
 حضارة روما بما فيها من علم وفن وادب ، بل وبما كانت تسجل به من
 لغة ؛ نظرة احترام وتقدير بالرغم مما اعملوه في العاصمة نفسها من تخريب
 وتدمير ؛ ولهذا فأنهم سرعان ما وقعوا على تلك الحضارة يبحثون عن
 آثارها ؛ ويديون بمبادئها ويدرسون لغتها ؛ ولا يألون جهداً في رعاية
 تراثها ، إذ أنهم ما كاد يستتب لهم الأمر ، وتهدأ الاضطرابات حتى بدأوا
 يكلفون كثيراً من العلماء والادباء بأن يؤلفوا وينتجوا باللغة اللاتينية .
 والذي صنعه الفرس بالنسبة للحضارة البابلية - الاشورية ، وصنعه الروم
 بالنسبة للحضارة اليونانية ، وصنعه القوط بالنسبة للحضارة اللاتينية هو
 صورة لما صنعه العرب في بيئة العراق بعد فتحهم لها ، وخصوصاً بالنسبة

^(١) هذه العبارة هي ترجمة البيت ١٥٧ في القصيدة الثانية من الجزء الأول من
 الديوان المعروف باسم - القصائد الهجائية - *epitres* وهو للشاعر اللاتيني المشهور
 هوراسيوس - *horatius*

^(٢) تاريخ سقوط روما هو سنة ٤١٠ بعد الميلاد وكان سقوطها على يد أاريك

لم يقض الفرس إذن على الحضارة (البابلية - الآشورية) كما قضوا على سلطان الساميين ، بل إن هناك من الأدلة ما يثبت أنهم أبقوا عليها ؛ واستغلوا مظاهرها ، وأنفقوا بما وجدوه منها إلى حد بعيد . إذ أنهم ألقوا بكثير من زمام أمورهم إلى بقايا الساميين الذين لم يتمكنوا من الهجرة ، أو الذين فضلوا البقاء في بلادهم بالرغم من احتلال الفرس لها . فكانوا يستعينون بعلمائهم ومشرعهم ؛ ثم بصناعاتهم وفنانيهم ، فاستمر النشاط العقلي كما كان بفضل ما وجدوه من استتباب في الأمن بعد الفتح . وما رأوه من تسامح وتشجيع من جانب الفاتحين .

وكثير من قصورهم ومدنهم . وطرق مواصلاتهم لم يتم إلا بواسطة مهندسين وفنانين من بابل وأشور . وكثير من أفكارهم ومعارفهم . على قلتها . مستمد من أفكار ومعارف بابلية وآشورية . وهكذا استمرت سلسلة الحضارات القديمة متصلة في بيئة العراق بالرغم من فترات الحروب والاضطرابات . وهكذا أصبح الفرس ورثة لتلك الحضارات . لا مهملين لها . ولا جناة عليها .

وإذا كان لنا أن نبحث عن الأثر الذي تركه الفرس في الحضارة البابلية - الآشورية مثل صنيعنا عند الكلام على كل دولة حكمت العراق سياسياً فإن ذلك يبدو واضحاً في ناحيتين : الناحية الدينية ، والناحية اللغوية .

أما بحثنا في الأثر الديني فيلزمنا بأن نعود إلى الوراء قليلاً كي نعرف

^(١) ليس أدل على ذلك مما ذكره ابن النديم في كتابه - الفهرست - من أسماء علماء السريان ، وفلاسفتهم ، ومترجميهم ، وما تركوه من تراجم ومؤلفات .

شيئاً عن الدين الفارسي كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ ثم ماذا كان أثره في وادي دجلة والفرات بعد أن خضع هذا الوادي لسلطان الفرس وأصبح جزءاً من مملكتهم المترامية الأطراف ؟

إن الباحث في هذه المسألة يجد أنه لا يكاد يختلف الدين الفارسي القديم عن سائر الأديان الأخرى التي كانت تعاصره والتي وجدت من قبله : عدد من الآلهة يتزعمهم رئيس أعلى ، وقد تمثل هذه الآلهة في أشكال تماثيل أو في كائنات حيوانية ، ثم مزيج من العبادات والطقوس الدينية . وأغلب الظن أن هذا الدين الفارسي قد تأثر في أول عهده بالديانة البابلية . وكانت الفلسفة الدينية إذ ذاك متمشية في بساطتها مع الدين نفسه . ولكن هذا الدين قد خطا خطوة واسعة نحو النضوج والكمال وذلك أثر وجود رسول ذي رسالة دينية خاصة ، كما يزعم الفرس أنفسهم حينما يتحدثون عن دينهم ، وعن المراحل التي مر بها .

وهذا الرسول هو زرتشترا صاحب الديانة الزردشتية . وليس لنا أن نتعرض لطبيعة هذا الرسول ولا لعقائد الفرس فيه من حيث نشأته وهبوط الوحي عليه ، وتسجيل المبادئ الدينية في كتاب مقدس ، فإن ذلك قد يشير خلافاً طويلاً لا جدوى منه ولا طائل تحته ، إذ أن حياة هذا الرسول الفارسي كما يصورها الفرس أنفسهم تؤكد تكون صورة من حياة الرسل الساميين أصحاب الكتب المقدسة ، والديانات السماوية ، والمبادئ الإلهية .

وحسبنا من كل ذلك أن نعرف فقط أن (زرتشترا) بدأ دعوته الدينية بإعلان حرب لا هوادة فيها ضد أصحاب الديانة الفارسية القديمة : واستمر ينشر دعوته ويبطل ديانة المجوس حتى دانت بلاد الفرس لرسالته ، وانزوت الديانة القديمة في بعض الجهات النائية . شأن كل ديانة جديد

تدخل في صراع مع الديانات القديمة . ولعل من أثر هذا الاضطهاد الديني أن هاجر كثير من الكهنة المجوس واستقروا في وادي دجلة والفرات يمارسون تعاليمهم الدينية حتى جاء الإسلام فوجد كثيراً من آثارها في هذه البيئته ، وقد نقلت لنا كتب التفسير ، والتاريخ ، والأدب صورة واضحة عن تلك الديانة وعن تعاليمها ، وما كانت تتطلبه من أتباعها من نظام ، وتقديس ، وعبادات .

وأهم ما نلاحظه في الديانة الزردشتية هو ما يختص بفكرة التوحيد . وهذا يدل بوضوح على درجة نضوج العقل والتفكير : إذ أن العقل الذي بدأ يتصور الوحدة في الألوهية ، ثم يجرد هذه الوحدة عن عالم المحسوسات ذوات القوة الظاهرة والأثر الفعال في نظام الكون ، هو بلا ريب عقل متحرر كبير ممتاز . ولقد نشأت بعد فكرة الوحدة في الألوهية عند الفرس فكرة الثنائية التي تدين بقوتين خطيرتين في العالم : هما قوة الخير وقوة الشر : يرمز إلهها بالهين : إله الخير هو أهورا - مزدا ، وإله الشر هو أهرمان ومع ذلك فلا نزال نلاحظ كذلك مع الثنائية فكرة التجريد من عالم المحسوسات وبمضى الزمن قد تعددت قوى الشر بتعدد صورته وما كان يصاحب ذلك من دوافع وإغراءات ، وقد أدخل أتباع هذا الرسول كثيراً من التعديل على هذه الديانة ولكنها مع ذلك استمرت تستمد عناصرها الأساسية من الفكرة الأولى - فكرة التجريد - وتستلهم تعاليمها من مبادئ المؤسس الأول لها - زرتشترا - .

ومما يمكن من شيء فأن الفرق يبدو واضحاً بين الأسس الأولى لهذا الدين الجديد والعقائد القديمة لدى البابليين والآشوريين : فبينما نجد هنا فكرة التوحيد أو الثنائية المجردة ، إذ بنا نجد عدد الآلهة المجمعة في كثير

من الأحيان عند البابليين يصل إلى ٦٥٠٠٠ له حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وفكرة التجسيم فى الآلهة فكرة ساذجة فى حد ذاتها ؛ ولكن من الغريب أنها استطاعت أن تسيطر على كثير من العقول الكبيرة الواسعة فى أزمان طويلة .

وهكذا استطاعت الديانة الفارسية أن تثبت شخصيتها فى العقائد ، والطقوس والعبادات ، واستطاعت كذلك أن تبرز للناس فى ثوب جديد له رواؤه بالرغم مما نراه فى ثناياها من آثار للديانة البابلية والآشورية ، وعلى الأخص فيما هو من قبيل الأساطير كقصة الطوفان ، وقصة الخلق الأولى .

من ذلك نرى أن وادى دجلة والفرات قد تعرض لغزو دينى جاءه من الشرق أولاً بواسطة المجوس ، أصحاب الديانة الفارسية القديمة الذين اضطهدوا فى بلاد فارس حينما اعترفت الدولة بالدين الزردشتى الجديد ، وثانياً بواسطة أتباع زرتسترا ، الذين جاءوا معترفا بهم وبتعاليمهم من الحكومة المسيطرة على تلك الجهات . وفى هذا يتمثل الصراع الدينى بين اتباع كل عقيدة فى وادى دجلة والفرات ويستطيع القارئ بعد ذلك أن يتصور الآثار البعيدة المدى التى يمكن أن تخلفها هذه الخلافات الدينية فى العقلية وما تنتجها من علوم ومعارف ، وأن يعمل وجود هذه العقائد التى تجاوزت أصدائها فى الأدب العربى أيام العصر العباسى .

هذا هو أثر الفرس الدينى فى الحضارة البابلية - الآشورية أو بالأحرى بيئة بابل وأشور .

أما الأثر الهام الثانى للفرس فيتمثل فى الكتابات التى اتخذوها وسيلة لتدوين أفكارهم وآدابهم وعلومهم . نحن نعلم أنه قبل الفتح الفارسى لمملكة

بابل وأشور كانت النقوش المسمارية هي لغة الكتابة في وادي دجلة والفرات منذ القرن الخامس والاربعين تقريباً حتى القرن السادس قبل الميلاد . ولكن حينما جاء الفرس ورأوا هذا الخط المسماري سائراً في كل تلك البلاد لم يجدوا بداً من استخدامه أو الأمر : ثم لم يلبثوا أن استخدموا الحروف الهجائية الآرامية ، وهي الحروف المأخوذة عن الفينيقيين .

غير أن ذلك لم يكفهم فبدءوا يتصرفون في الخط المسماري ويدخلون عليه من التعديل ما جعله يأخذ طابعاً جديداً في شكله ومؤداه : إذ أنهم اقتصروا منه على ستة وثلاثين رسماً بدلاً من ثلاثمائة علامة ثم لأنهم بعد ذلك حاولوا محاولة أخرى فاستعاضوا عن هذه الرسوم ، التي تدل على المعاني كما رأينا ذلك في اللغة الهيروغليفية بحروف هجائية مسمارية تدل على أصوات . ولعل الجهد الذي بذله الفرس في تحويل هذه الرسوم المعنوية إلى رسوم صوتية لا يقل عن الجهد الذي بذله الفينيقيون من قبل في اختراع الحروف الهجائية ، فكل من الشعبين قد استعان بمجهود شعب آخر : الفينيقيون بالمصريين والفرس بالسومريين ؛ وكل من الشعبين كان له مجهوده الخاص في التهذيب وفي الوضع .

هذان الاثران ، الدين والكتابة ، يعتبران النواة الأولى لصبغ الحضارة البابلية - الاشورية بصبغة جديدة . وفيما عدا هذين الاثرين بقيت الحضارة القديمة ممثلة في مظاهرها ومؤثرة في كيان الدولة ونظام المجتمع حتى بدأت شخصية الفرس تحتل أهم الميادين في إدارة الشعب ، ومعارفهم تتبلور وتتسرب إلى سائر الاوساط ؛ وهكذا أخذ أثر الفرس يتسع ، وقد استمر أثرهم يطغى شيئاً فشيئاً على هذه الحضارة القديمة حتى استقل بكل مظاهرها : فعرف الدين الفارسي وانتشرت الكتابة الفارسية ، وظهرت هندسة معمارية جديدة تتجلى

في حفر القنوات ، ومد الطرق ، وإنشاء المؤسسات ذوات الاعمدة بدلا من
ذوات القباب . ومع هذا فمن الخطأ أن نتصور نحو الحضارات القديمة من
بيثة العراق محوآ كاملا ؛ فانها كانت بمثابة الاساس الذي بنى عليه الفرس
حضارتهم ؛ ونستطيع أن نشبهها بجذع شجرة ضخمة قد طعم بأغصان أشجار
أخرى ؛ وقد بقي ذلك الجذع يغذى تلك الاغصان ولكنها انتجت أزهارا
غير الأزهار الاولى ، وثمارا تخالف الثمر الاول .

ولقد تعرض وادي دجلة والفرات في الفترة ما بين فتح الفرس أثناء
القرن السادس قبل الميلاد ، وفتح العرب بعد ألف عام تقريبا إلى ألوان
وتأثيرات من حضارات أخرى وردت اليه من أمم أجنبية ، هي أمة
الآراميين وأمة اليونان ، وأمة الروم . ولقد تركت هذه الحضارات الاجنبية
بلا شك ، في بيثة العراق كثيرا من معارفها العلمية والادبية ، والدينية ،
والفلسفية ، والفنية ، وسرى بعد فتح العرب للعراق كيف كان هذا الخليط
من الثقافات ، وكيف ظهرت آثار ذلك واضحة في الحضارة الإسلامية ،
وفي انتظار هذا سنحاول أن نمضي سريعا في بيان مدى هذه التأثيرات وكيف
وصلت إلى هذه البيثة ، وما هو مبلغ الانفعال الذي تم بينها وبين العناصر
الاصيلة من حضارات العراق السابقة .

ولكن قبل أن نتكلم عن ذلك نحب أن نبين مسألة هامة قد استمرت
مجهولة مدة طويلة من الزمن ، ثم تردد الكلام فيها أخيرا بعد أن اكتشفت
بعض آثار الحضارة البابلية - الاشورية . تلك هي حضارة الغرب القديمة
وصلتها بالشرق ، وهذه المسألة في نظرنا جديرة ببحث طويل وفصول عدة
تتناول عناصر الحضارات الشرقية القديمة وتحللها ثم تذكر صلات الغرب
بالشرق علميا ، وأديبا ، وماديا ؛ وعلى ضوء ذلك كله يستطيع القارئ أن

يلبس كيف كان الغرب يستقي معارفه ، ثم إلى أى حد كان يطبعها بطابعه الخاص ؛ ولكننا لن نستطيع في بحثنا هذا أن نتناول ذلك بالتفصيل بل سنعرضها عرضاً موجزاً ونفرغ لها من وقتنا ما يكفي لترسم معالمها وتبين خطوطها الرئيسية .

هناك كثير من الناس يعتقدون أن الغرب قد أثر في الشرق بما أنتجه في ميدان الحضارة من علم وأدب وفن . وهذا حق لا مرأى فيه ، ولكنهم لا يعرفون كيف نشأت حضارة الغرب ، ولا يزالون يجهلون على أى الاسس العلمية والروحية قد قامت هذه الحضارة الغربية . ولو أنهم تحملوا قليلاً من العناية في درس تاريخ حضارة الغرب ، وبذلوا شيئاً من الجهد في تحليل عناصرها وارجاعها إلى أصولها الأولى لما وجدوا صعوبة ليصدقوا أن الشرق هو الذى ألهم الغرب وأوحى اليه بكثير من المعارف الدينية والإنسانية ، فاستطاع الغرب بهذا المدد الواسع أن يؤسس عليه ، ويوسع معارفه ، ويكون حضارته . ومع هذا ينبغي ألا نبالغ في تصوير المسألة فنجازف بالقول بأنه لولا الشرق لما كانت للغرب حضارة ، إذ أنه من الثابت قديماً أن بعض البيئات يصلح لأن يكون مهداً للحضارة بواسطة ما أتاحت له من ظروف طبيعية غير أن الآثار الأجنبية على تلك البيئات تظهر في تكوين الحضارة بسرعة أو صبغها بصبغة خاصة .

وما دام ثابتاً أن صلة الشعوب بعضها ببعض كان ولا يزال ينظر اليه كأهم وسيلة في نقل الحضارة من بيئة إلى بيئة أخرى فما الذى يحول بيننا وبين الاعتراف بأثر الحضارة البابلية والآشورية في بلاد اليونان حيث إن هذه الصلة بين البيئتين قد وجدت قديماً واستمرت كذلك خلال قرون عديدة ؟ ثم ألا يكون عجيباً أن يتصور وجود الحضارة اليونانية دون استعانة

بالشرق مع أن اليونان أنفسهم قد اتصلوا بشعوب الشرق ورأوا نظمهم ووقفوا على حضاراته قبل أن يتكون لهم في بلادهم شعب موحد منظم ، وقبل أن يعرف لهم علم أو يؤثر عنهم أدب وفن ؟

لقد رأينا في وادي دجلة والفرات منذ القرن الخامس والأربعين تقريباً قبل الميلاد شعوباً موحدة ، وحكومات منظمة ، وحضارات واسعة متعددة المظاهر : كتابة لتقييد الأفكار ، وتسجيل المعارف ؛ وهندسة معمارية لتأسيس المدن ، وشق الطرق وأقامة المعابد والقصور ، وبناء الحصون والقلاع ، وعقيدة تسيطر على الناس بطريق الرغبة أو الرهبة ، وتفرض صلة ما بين المرء وبين القوى المؤثرة في الكون كما كانوا يتصورونها إذ ذاك ؛ وقانون منظم يوضح الصلة بين الحاكم والمحكوم والمؤجر والاجير ثم بين المرء وأفراد أسرته ، وبينه وبين سائر أفراد المجتمع ؛ وفنون عديدة للنحت والنقش والزخرفة وصنع أنواع الزينة من حلى وملبس ؛ وعلوم ليست بالقليلة لدراسة السماء وما فيها من كواكب ، ودراسة الأرض وما تنبت منه من شجر وأعشاب ، ودراسة التاريخ وما يحتوي عليه من حقائق وأساطير .

ولقد رأينا كذلك أن آثار تلك الحضارات قد بقيت بمثابة مشكلة في كثير من أنواع النشاط الحيوي عدة أجيال طويلة حتى ظهور الفرس في تلك الجهات ولقد كانت معارف تلك الحضارات تنتقل في شكل موجات متتابعة من وادي دجلة والفرات إلى كل آسيا الغربية حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، أي الجزء الممتد من البحر الأسود شمالاً حتى صحراء سيناء جنوباً .

كان يحدث أن تختفي آثار تلك الحضارات في بعض الأحيان ولكن ذلك لا يلبث طويلاً حتى تفد موجة أخرى من المعارف إثر غزوة من الغزوات أو اتحاد ثورة قام بها شعب من الشعوب فتحي تلك الموجة بعض

ما اندثر ، وتضفى على ما بقى لونا جديداً آخر . وهكذا كان ما يحدث في
بيثة العراق يتردد صداه في تلك المساحات الواسعة من الأرض ، ثم لا يلبث
أن يستقر وتظهر آثاره ممثلة في معارف أولئك السكان وفنونهم .

وهكذا وجد الباحثون كثيراً من آثار الفكر البابلي والعلوم البابلية في
الولايات التي نشأت في آسيا الصغرى كالحثيين ، والفريجيين ، أو في بلاد
الشام كالعبرانيين والفينيقيين . ولقد كان من الصعب قديماً أن توضع الحدود
السياسية والحواجر الجغرافية بين تلك الولايات التي تعيش في غرب آسيا
كما نرى ونسمع الآن .

ان ما كان يظهر في بابل وأشور كان يردد صداه بسرعة في تلك
الولايات وذلك بفضل التبادل للتجاري بين وادي دجلة والفرات وغيره من
الولايات المنتشرة في آسيا الصغرى ، وكذلك بفضل الحملات العسكرية التي
تقوم بها الامبراطوريات من وقت إلى آخر سواء أكان ذلك لاتساع رقعة
المملك ، أو لتثبيت سلطانه ، واتحاد روح الثورة التي تبدو في فترات ليست
بالنادرة ؛ وقد لعبت هذه الحملات العسكرية في العالم القديم دوراً هاماً في
نقل الحضارة من بيثة إلى بيثة أخرى ؛ وليس تصور ذلك بصعب على من
يرجع بخياله إلى الوراء ليرى كيف كانت تقاد الجيوش ، وتقام المعارك ،
ويتم الاستعمار كما حدث بين اليونان والشرق ، وكما حدث بعد ذلك بين
الروم واليونان من ناحية ، وبينهم وبين الشرقيين من ناحية أخرى .

ولم يكن أمر تلك الحملات العسكرية قاصراً على بابل وأشور ، بل وجد
هناك أيضاً من الامبراطوريات عدد استطاع أن ينهض بهذا العبء ويلعب
في السياسة الاستعمارية دوراً لا يكاد يقل عن دور البابليين والاشوريين في
الاستيلاء على الولايات وفرض السلطان على سكانها ، والعمل على استئجاب

الأمن ودوام الخضوع أطول مدة ممكنة من الزمن ، ثم القيام بدور الوسيط في نقل الحضارة وتبادل العلوم والمعارف ، وليس لنا أن ندخل في التفصيل السياسي لهذه الامبراطوريات من حيث التكوين ، والانظمة ، والغزوات ، والاستعمار .

ولكن حسبنا أن نعرف أن شعب الحيثيين من بين هذه الشعوب قد تمكن من التغلب سياسياً على كل الولايات الصغيرة المنتشرة فيما بين الدردنيل وبحر إيجه غرباً إلى أعلى نهر دجلة شرقاً . وهكذا استطاع هذا الشعب أن يجمع بين أطراف تلك المساحات المترامية ، وأن يؤلف بين تلك الدويلات المتعددة ، فيجعل من كل ذلك حكومة واحدة ، ويعمل جاهداً لا على مجارة الآشوريين والبابليين في الإدارة والسلطان فحسب ، بل على مجاراتهم في بعض العلوم والمعارف أيضاً .

وقد استمر هذا الشعب يتحكم في تلك المنطقة الواسعة من الأرض ، ويفرض سلطانه على ذلك الخليج العجيب من الشعوب حوالي عشرة قرون من الزمن ، أي من القرن الثامن عشر حتى القرن الثامن تقريباً قبل الميلاد وفي خلال تلك المدة قد استطاع الظهور بمظهر القوة التي يخشى بأسها ، وأن يلعب في سياسة الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط دوراً هاماً ؛ ولم يكتف بوقف غزوات البابليين والآشوريين ، بل إنه دخل في صراع مع المصريين كذلك .

وبجانب هذا ينبغي أن نعلم فوق ذلك أن شعب الحيثيين هذا كان يدين بكثير من تمدنه ، وقوته ، وحضارته للبابليين ، فليس من شك في أنه استعمل الخط المسباري لتدوين آثاره العلمية ، والعقلية وكذلك أخذ كثيراً من شرائع حمورابي وعمل بها في تنفيذ أحكامه ، وزيادة على ذلك فقد نقل

استعمال الألواح الطينية المعروفة عند البابليين لتسجيل العلوم والمعارف إلى جزيرة كريت التي كانت تعتبر جزءاً لا ينفصل من بلاد اليونان ؛ بل لأنها كانت بمثابة المعبر الأول للآثار العقلية في الشرق إلى الشعوب الاغريقية ؛ ولهذا الجزيرة وما كان فيها من معارف الشرق أثرها البعيد فيما نتحدث عنه بعد قليل .

وبعد أن انقرض شعب الحيثيين نجد شعباً آخر ، هو شعب الفريجييين ، يقوم على أنقاضه ويرث حضارته ، وذلك حوالى القرن الثامن قبل الميلاد . ويستمر هذا الشعب الجديد قرنين من الزمن يسير فيها على نهج الحيثيين من الناحية السياسية والعمرانية ، ويحافظ فيها على ذلك التراث العقلي ؛ ولكنه يوجه أنظاره إلى الغرب أكثر من سابقه ، فيتصل اتصالاً مباشراً بالاغريق بل ويعمل على إيواء الكثيرين منهم في أرضه وتحت سلطانه .

ومن هذا نعلم كم كانت آسيا الصغرى تعد بحق موطننا آخر للثقافة البابلية - الآشورية من ناحية ، وقنطرة بين الشرق والغرب من ناحية أخرى !!

وبعد سقوط دولة الفريجييين في القرن السادس قبل الميلاد نشأت هناك دولة أخرى هي دولة الليديين ، واستمرت تنفع بالحضارة السابقة وتكثر من صلاتها ببلاد اليونان حتى اعتبرها المؤرخون معبراً هاماً يتلاقى فيه الآسيويون باليونانيين . ولعل القارئ يلاحظ شيئاً من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسى في ذلك العرض السريع الذى تناولنا فيه تاريخ هذه الشعوب المتعاقبة دون أن يكون هناك عصور طويلة تسمح باستنباط الأمور وتتيح الفرص للانشاء والتعمير ؛ وهذا صحيح إلى حد ما ؛ غير أن الحضارة البابلية - الآشورية التي استقرت في هذه البيئة المضطربة سياسياً لم تتأثر كثيراً بسقوط تلك الدول ، بل بقيت محتفظة بكيانها وبكثير من مظاهرها

رغم ما أصابها في بعض الاحيان من تعويق . ويهمننا من كل هذا أن نلاحظ تاريخ نهضة هذه الشعوب الاسيويه ، فإن لذلك أثره البعيد حين نتحدث عن نشأة الحضارة وريقها عند اليونان . ولورجعنا قليلا إلى الوراء للاحظنا أن الحثثين سادوا من القرن الثامن عشر حتى القرن الثامن ، وأن الفريجين سادوا من القرن الثامن حتى القرن السادس ، وأن الليديين قد ورثوا هؤلاء جميعا واستمروا حتى وصلت الحضارة الاغريقية إلى درجة عظيمة من الرقي ، وصار لها في كل الميادين أبحاث وإنتاج ، وهذا بلا شك يمهّد السبيل أمام الباحث ليدرك مدى تأثير الاغريق في حضارتهم بالشرق .

والآن بعد أن عرفنا شيئا من الفضيل عن حضارة بابل وأشور ، وأدركنا زمن ومدى انتشارها في آسيا الصغرى يحق لنا أن نتساءل .

أولا : كيف وصلت حضارة الشرق الأدنى إلى اليونانيين ؟

ثانيا : ما هو مدى تأثير اليونان بهذه الحضارة الشرقية ؟

أما الجواب عن السؤال الاول فيمكننا تلخيصه فيما يلي : قد يبدو للناظر أول وهلة أن المسافة بعيدة بين الشرق والغرب ، وأن الصلة بين هذين العالمين تكاد تكون متعذرة إذا ما قورنت وسائل النقل القديمة بوسائل النقل الحديثة . ولكن هذا الزعم لا يلبث أن يتلاشى إذا ما درست صلات الشرق بالغرب قديما .

وفي الحق لم يكن البحر الابيض ، كما يتبادر إلى الذهن حاجزا منيعا بين اليونان والشرق الأدنى ، بل كانت هناك صلات تجارية كثيرة متبادلة منذ أقدم العصور فكان الفينيقيون يجوبون بمصنوعاتهم وسلعهم التجارية جزر اليونان كقبرص وروُدس ، وكريت ، وكذلك شواطئ بلاد اليونان الممتدة

في شكل ثنايا داخل البحر الابيض المتوسط ؛ بل إن نشاط الفينيقيين لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه إلى درجة بعيدة ، فوصلوا إلى المحيط الاطلنطي ، واتجهوا شمالاً حتى بحر الشمال ، وكونوا لهم مراكز ومستعمرات تجارية أهمها قرطاجنة في بلاد تونس الحالية .

وكذلك كان اليونانيون أنفسهم ، وقد اشتهروا بالملاحة منذ القدم يفدون إلى بلاد آسيا يتزودون من منتجاتها ويعودون إلى بلادهم ، وقد يتركون وراءهم أسرا بأكملها إما لكسب العيش والاقامة المستمرة ، وإما ليكونوا بمثابة جاليات تعمل على نمو الحركة التجارية ، وتنشيط الصلات الفكرية المتبادلة ، وهكذا لم تكن صلوات اليونانيين بالآسيويين في مواسم خاصة من السنة وإنما كانت صلوات يومية مستمرة ؛ وأهم ظاهرة لوحظت على تلك الصلات في العالم القديم هي اتجاه الفينيقيين إلى الغرب واتخاذهم إياه ميداناً واسعاً لنشاطهم التجاري ، واتجاه اليونانيين إلى الشرق واستغلالهم له مادياً وأدبياً وعلمياً ؛ ولقد كان من نتيجة تلك الظاهرة أن نظر اللاتينيون إلى اليونانيين نظرتهم إلى شعب شرقي في أخلاقه وتقاليده وعاداته ، وكثيراً ما كانوا يعيرونهم بذلك حينما يلاحظون عليهم تدهوراً سياسياً أو انحلالاً خلقياً .

وهنا يجب أن ننظر إل التجارة عند القدماء نظرة تخالف نظرنا إلى الحركة التجارية في العالم الحديث ؛ فالتاجر الآن يستطيع أن يعقد أكبر صفقة تجارية في أبعد بلد وهو جالس في مكتبه بواسطة مكالمات - تليفونية أو إشارة تلغرافية ، ثم تأتيه تلك الصفقة إلى بلده دون أن يتحمل عناء السفر أو يرى واحداً من عملائه الذين أمضوا معه تلك الصفقة ؛ ولم يكن الأمر قديماً كما نراه الآن .

إذ أن وسائل النقل عندهم كانت بسيطة محدودة ، فالدواب برأ ،

والمراكب الشراعية بحراً ؛ وليس هناك سوى الصلات الشخصية المباشرة والاشراف المستمر على وسائل النقل كي تتم تلك العملية المرهقة الشاقة .

وفي كلتا الحالتين كان التجار يتعرضون لأخطار عديدة ، مصدرها قطاع الطرق من ناحية ، ولصوص البحر من ناحية أخرى ، ولكي يتفادوا هذه الأخطار ، أو يتغلبوا عليها إن هي صادفتهم ، كانوا ينتقلون في شكل قوافل إن كانت التجارة برأ ، أو في جمع من المراكب إن كانت بحراً حتى يمكنهم الدفاع عن النفس وعما لديهم من بضاعة وأمتعة . ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ القديمة بأوصاف تلك القوافل البرية والبحرية ، وبما كانت تتعرض له من صعوبات .

ولقد كانت اللصوصية في ذلك الزمن القديم مهنة مشهورة تجر كثيراً من المغانم بالرغم مما تحمله في ثناياها من الأخطار . ولقد بلغت اللصوصية في بعض الأحيان درجة استطاعت أن تهدد معها كيان الدول وسلطان الحكومات ونحن لا ننسى تلك الفترات العصيبة التي مرت بحكومات روما ، وقوادما من أجل تأمين طرق التجارة في البحر الأبيض المتوسط أولاً ، ثم في البحر الأحمر ثانياً ضد هؤلاء اللصوص الذين كثر عددهم وزاد تمردهم حتى اضطرت روما أن تنشئ أسطولاً حربياً ، وتجرد حملات عسكرية بغية القضاء على هذا الخطر المتزايد ؛ فحرب الروم للعرب في البحر الأحمر وفي شبه الجزيرة العربية بعد أن استقر لهم الأمر في مصر لم يكن لسبب آخر سوى تأمين طرق التجارة واستتباب الأمن في تلك النقطة الحساسة من الامبراطورية الرومانية ؛ وهم وإن فشلوا في حملاتهم العسكرية ضد العرب إلا أنهم قد نجحوا كما يقول مؤرخوهم في عقد معاهدات تجارية معهم تجعل البضائع تغدو وتروح وهي في أمان .

ولقد تكرر هذه الحروب أيضا في البحر الأبيض المتوسط ، ودامت مدة من الزمن حتى أطلق عليها الروم « حرب لصوص البحر » ؛ انفقوا في سبيلها كثيراً من المال ومن الرجال ؛ ولم يهدأ لهم بال إلا بعد أن قضوا على لصوص البحر قضاء تاما .

وكان هناك خطر آخر يعترض التجارة لا يكاد يقل عن خطر لصوص البر والبحر ، ذلك هو خطر الطبيعة ، وما يأتي به تغير المناخ من عواصف وبرد ، وصواعق وأمطار ؛ ولم يكن عند القدماء ما نراه الآن من وسائل الملاحة والوقاية ضد ثورات الطبيعة وتقلباتها .

لذلك كانت قوافل التجار في أغلب الأحيان تحت رحمة الطبيعة ، تقوم في مواسم خاصة ، وترجع في مواسم خاصة ، وفيما بين الذهاب والعودة يتم شيء من المعاشرة والاختلاط بين هؤلاء التجار وسكان البلاد الأصليين . وما تشير به الآية القرآنية الكريمة « لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، يصور هذا المعنى أحسن تصوير ؛ ثم ما عرفناه من نظام القوافل وإقامة الأسواق في شبه الجزيرة العربية يشرح لنا كيف تدوم المعاشرة بين القبائل المتباعدة ، ويتم الاختلاط بين الأجانب والعرب .

لكل هذه الأسباب كان التجار يأتون جماعات لا أفرادا ، ويضطرون في كثير من الأحيان إلى الإقامة شهورا لا أياما . ومن هنا كانت التجارة في الزمن القديم وسيلة من أهم الوسائل في نقل آثار الحضارات من بيئة إلى أخرى ، ومن شعب إلى آخر . ومن هنا أيضا نستطيع أن ندرك في سهولة كيف انتقلت آثار الحضارات البابلية والآشورية إلى بلاد اليونان ؛ فالفينيقيون كانوا يذهبون إليهم في جزرهم مزودين بالمعارف الشرقية كما كانوا مزودين بمواد التجارة ، وكانوا هم أنفسهم يأتون إلى الشرق يبحثون

عن العلم كما كانوا يبحثون عن السلع التجارية . ولقد عرفنا التاريخ أن
اليونانيين كونوا لهم مستعمرات في داخل الممالك الشرقية كما حصل ذلك في
آسيا الصغرى وفي شمال الدلتا من مصر ؛ ولقد عرفنا التاريخ أيضاً أن
الديانة المصرية القديمة لم تنتقل إلى بلاد اليونان ، ومن بعدها إلى شبه
جزيرة إيطاليا إلا مع التجارة وبواسطة الملاحين التجاريين .

مسألة الحروب :

وبجانب التجارة كانت هناك وسيلة أخرى لنقل الحضارة وتعرف آثارها
تلك هي مسألة الحروب وتبادلها فيما بين الشعوب ثم ما كان يتبع ذلك من
استعمار سياسي ونفوذ أدبي . لقد رأينا بابل وأشور تتناوبان في غزو فلسطين ،
وسوريا ، وفينيقيا ، وأرمينية وكثيرا ما امتد سلطانها على تلك الولايات التي
كانت في حقيقة الأمر ملتقى هاماً لليونان سواء من كان يحىء منهم بقصد التجارة
أم من يحىء مهاجرا طلبا للعيش ورغبة في الاستيطان . ولقد رأينا كذلك كيف
تجاوز سلطان سرجوس الثاني حدود آسيا ، ووصل حدود قبرص وكل سكانها
من اليونان ، فالحرب في الحقيقة لم تكن فقط عند القدماء مجرد عملية
للبحث عن مغنم مادي وراء الأسلاب أو عن كسب أدبي وراء إحراز نصر على
الاعداء ، بل كانت في نفس الوقت وسيلة من وسائل الاتصال ، وميدانا من
ميادين الخبرة والدرس والمعرفة . ولعل أوضح شاهد على ذلك هو ذلك
النظام الذي كان يتبعه الاسكندر الأكبر في حروبه وتلك النتائج التي تولدت
عن تلك الحروب ؛ إذ كان يصحب معه العلماء ، والأدباء ، ورجال الفن ؛
وكان يحرص على التعرف بما في البلاد المفتوحة من آثار عقلية وعلمية .
وكان من نتيجة ذلك أن انتفع اليونانيون أنفسهم بتلك المعارف الأجنبية

بقدر ما انتفع أهل تلك البلاد المفتوحة بمعارف اليونانيين وآدابهم .
ولا نستطيع الزعم هنا بأن كل حروب القدماء كانت على نمط حروب
الاسكندر ؛ ولكن كان هناك وجه من الشبه إلى حد ما قد لاحظناه في
الحروب التي نشبت بين بابل وأشور ، ثم بين الفرس والبابليين . ولعل مما
يجدر بنا أن نلاحظه أيضاً في هذه المناسبة هو أن هذه الحروب كان يتبعها
في غالب الأحيان ظاهرة سياسية امتازت بها حكومة بابل وأشور على
الخصوص ، وكان لها أثر بالغ في نشر الحضارة ونقل العلوم والمعارف من
ولاية إلى أخرى ، وهما نحن أولاء حتى الآن لا نزال نرى آثار ذلك في
الحروب الحديثة ؛ التي قامت بين الالمان وغيرهم من الدول الأوروبية ، أو
بينهم وبين الأمريكيين ؛ تلك الظاهرة هي السياسة التي كان يجري عليها أعظم
الملوك الفاتحين من نقل أهل البلاد المفتوحة إلى بلاد أخرى يعيشون فيها
ويعتزلون بأهلها رجاء أن تضعف وطنيتهم ، ويفتر تمردهم وعصيانهم
ولم يكن سبي نبوخذ نصر ، ملك بابل ، لليهود في المرة الأولى والثانية إلا
صورة من تنفيذ تلك السياسة . ولقد عرف السبي بسبي بابل ، وذلك حين
رجع الملك نبوخذ نصر إلى عاصمة مملكته بعد أن حارب اليهود في أورشليم ومعه
في السبي الأول عشرة آلاف من اليهود ، معتقداً أن هذا العدد من الطبقة
المستنيرة منهم كفيلاً بأضعاف شوكة الباقين وخضوعهم لرجال الإدارة الذين
نصبهم الملك عليهم ؛ ولكن ذلك لم يؤثر فيهم ، ولم يقض على ثورتهم
تماماً ؛ إذ لم يكد يستقر الأمر بعض الشيء حتى ثارت أورشليم مرة ثانية
على حكم بابل فأسرع إليها نبوخذ نصر وأخذ ثورتها بكل قسوة ، وعاملها
أسوأ معاملة ، فترك جنده في المدينة يفتكون الحرمات ، ويعيشون فيها فساداً ؛
ولقد صور اليهود أنفسهم ما لحقهم في هذه المرة من خسف وتعذيب

وما نكبوا به من خسارة في الاموال والارواح تصويراً يفيض قسوة
وبشاعة وظلماً ؛ ولكن بنوخد نصر لم يكفه هذا بل ساق أمامه كل سكانها
تقريباً أسرى كي يبعدوا نهائياً عن وطنهم الاصلى ، وبعد مائة عام قضاهما
اليهود في بابل مختلطين بأهلها ، ومتفهمين لآثار حضارتها جاءهم الفرس
فحرروهم وتركوهم يعودون إلى وطنهم الاول ، أورشليم ؛ فعاد منهم من
عاد ، وبقي منهم في بابل من تربطه بها صلة ؛ ومن السهل أن ندرك العقلية
التي رجع بها اليهود إلى وطنهم الاول ، والتراث الواسع الذي ورثوه من
آثار الحضارة البابلية ؛ وأظننا بعد هذا نستطيع أن نتصور الاثر البعيد
المدى الذي يترتب على عودة هؤلاء اليهود بعد تلك المدة الطويلة التي قضوها
بين البابليين ، وفي أحضان الحضارة البابلية . وهكذا كان أثر الحروب قديماً
في نقل الحضارة من بيئة إلى بيئة أخرى ؛ ولقد استمرت الحروب تؤدي
هذه المهمة وتخدم ذلك الغرض حتى العصور الحديثة ؛ غير أن طرق نقل
الحضارة كانت تختلف باختلاف العصور ، والمحاربين ؛ فمرة تنقل الحضارة
عن طريق الاسرى ، ومرة تنقل عن طريق الطبقة المستنيرة التي تصحب
القائد ، ومرة تنقل عن طريق العلماء المضطهدين في بلادهم بواسطة حاكم
مستبد أو فاتح حربي جديد . وقد لاحظنا مثلاً كيف كانت تنقل
الحضارة من بابل إلى بلاد اليهود ؛ أما نقلها عن طريق حروب الاسكندر
فكان يتم بواسطة العلماء والادباء الذين يصبحون القائد في فتوحه ؛ وإذا
القينا نظرة على حرب الروم وجدنا أن قواد الروم كانوا يستولون على
الطبقة المثقفة في البلد المفتوح ويرسلونها إلى روما كما يرسل السبي للشر
عليهم ومعارفهم في العاصمة ، وكذلك كان يحصل منهم في بعض الاحيان
أن يستبدوا في أحكامهم ويقسوا في معاملتهم لبلد ثائر أو لطائفة متمردة

فيقر علماء ذلك البلد من وجه الاضطهاد باحثين عن مقر آمن وحياة هادئة
كما حدث في عهد كسرى أنو شروان الذي فتح أبواب مملكته للفارين من
بيثة فلسطين بسبب اضطهاد امبراطور الروم جوستينيان . ومن ذلك أيضا
ما كان يصنعه الإسلام في عهده الأول حينما كان يكلف الأسرى من
المشركين بتعليم عدد من المسلمين .

وإذا أردنا أن نلص صورة لتلك الظاهرة السياسية القديمة في العصور
الحديثة ، فما علينا إلا أن نذكر ما صنعه الأمريكيون مع أسرى الألمان
في الحرب الأخيرة ، فقد كانوا يتركونهم شبه أحرار في بعض الولايات
المتحدة ، يختلطون بأهلها ويقفون على ما هم فيه من حرية في القول ودعة
في الحياة ، وبعد عن ضغط السلطان واستبداد الحكم الدكتاتوري المطلق ؛
ولا بد وأن يحدث من وراء ذلك انفعال مشترك بين الألمان والأمريكيين
يكون من نتيجته تبادل المعارف والأفكار ؛ وكذلك صنيع الروس والانجليز
مع علماء اليهود ومفكرهم الذين فروا من ألمانيا أثناء الثورة النازية .

بعد هذا العرض السريع وتلك الصورة التي رسمناها لنظام التجارة
والحروب بين شعوب الشرق الأدنى من ناحية وبين اليونانيين من
ناحية أخرى ، لا أظننا في حاجة إلى البحث عن عوامل أخرى يمكن أن يكون
من ورائها نقل آثار الحضارة البابلية والآشورية إلى بلاد اليونان . فلنترك
إذن الكلام عن السؤال الأول مكثفين بهذا القدر ولننتقل إلى الكلام
عن السؤال الثاني محاولين أيضاً أن نبين في إيجاز رؤوس المسائل حتى
لا نتعرض للبعد عن موضوعنا الأساسي ؛ فلننظر الآن في مدى تأثير هذه
الحضارة اليونانية . وذلك يستلزم بحكم الضرورة عرضاً موجزاً لأهم الآثار
الفكرية عند اليونان لكي نرى من خلال ذلك مبلغ أثر الشرق في تلك

الآثار . وسنحاول في تعرضنا لهذه الآثار أن نلقى بعض الضوء على أولياتها وعلى رسم الهيكل العام لموضوعها ، ثم نستخلص ، ما أمكن ، وجه الشبه بينها وبين مثيلها فيما رأيناه أثناء درسنا للحضارة البابلية - الآشورية .

قصص الملاحم :

يعتبر الشعر القصصى من أوائل الأنواع الأدبية في الشعوب ذوى الآداب الأصيلة ، على أن هذا ليس بالقاعدة المطردة التى لا يمكن مجانبتها . بل إن هناك عوامل أخرى قد تؤثر فى قلب ذلك الوضع فتجعل الشعر القصصى فى مرحلة متأخرة عن الشعر الغنائى والنثر بأنواعه المختلفة ، فمن أمثلة الشعوب التى نشأت فيها الآداب نشأة طبيعية شعب السومريين ثم البابليين ويمكن أن نعتبر من ذلك أيضا شعب اليونانيين ، ومن أمثلة الشعوب الأخرى التى لم تنشأ فيها الآداب نشأة طبيعية بعيدة عن التأثر الأجنبى شعب اللاتيفيين ، والشعوب العربية بعد أن تعددت مواطنها واتصلت بشعوب أخرى لها ماضيهما الأدبى . والآن لى نفهم الأثر المتبادل بين البابليين واليونانيين فى هذا النوع الأدبى ينبغى أن نعود قليلا إلى الوراء فنذكر باختصار بعض ما ذكرناه بالتفصيل عن مظاهر الحضارة البابلية والآشورية : لم ننس بعد أن قصص الملاحم قد وجدت ونمت عند البابليين ، وقد سبقت الإشارة إلى ملحمة هامة مشهورة هى ملحمة جلجاميش ، وسبقت الإشارة كذلك إلى أهم العناصر التى تحتوى عليها هذه الملحمة ، وأهم الأحداث التى تتكون منها والإنسان لا يكاد يفتى من قراءة أوليات الملاحم اليونانية . حتى يحس بتشابه عجيب بين هذه الملاحم وما عرف من أمثالها عند البابليين ومن سبقهم من السومريين .

وهذا التشابه يوجد بوجه خاص فى البطل العام للملحمة ، وفى العناصر

التي تعتمد عليها ، ولعل أهم العناصر هو ما نراه من تدخل قوى غير طبيعية
في أشخاص الملحمة ، وهكذا نجد أحداث القصة تدور بين أشخاص عاديين
وآخرين لهم سمات الآلهة : ولسنا نستطيع تحليل ملحمة جلجميش عند البابليين
ولا ملحمة الألياذة أو الأوديسا عند اليونان ، ولا تلخيص هذه الملاحم
وتتبع تاريخها من حيث النشأة والتطور حتى استطاعت أن تنضج وأن تأخذ
مكانتها في الميدان الأدبي إذ أن ذلك ربما يبعدنا عن الهدف الذي نرمي
إليه ، وهو العرض العام لهذه الملاحم كي نتبين أثر البابليين والآشوريين
في ملاحم اليونان .

وحسبنا أن نعلم بالتقريب الزمن الذي تألفت فيه كل من هذه الملاحم الثلاث
١ - أما ملحمة جلجميش فهي مكونة من جملة قصص تألفت في عصور
مختلفة يرجع تاريخ بعضها إلى عهد سومر ، أي إلى ما يزيد عن أربعة آلاف
سنة قبل الميلاد وقد وجدت هذه القصص في مكتبة آشور بانيبال ، مجموعة
في اثنتي عشرة لوحة من الطين لا تزال موجودة الآن في المتحف البريطاني
وقد ذكر صاحب كتاب « قصة الحضارة » الفقرات التي وجدت منها في الجزء
الثاني (١) ، ويستطيع القارئ أن يرجع إليها إن رغب في الاستزادة ؛ على
أننا قد ذكرنا منذ قليل ملخصا واضحا بعض الشيء عنها .

٢ ، ٣ أما ملحمة الألياذة والأوديسا فهما مكونتان أيضا من جملة
قصص ، يرجح أنها ألفت في عصور مختلفة ، ولكن الفرق الذي يبدو
واضحا فيها هو أنها ذات وحدة ، عكس ما نراه في ملحمة جلجميش المفككة
العناصر ، المتباعدة الأجزاء . ولم يهتد الباحثون حتى الآن إلى دليل يقيني

(١) الجزء الثاني من قصة الحضارة ص ٢٣٩ و ٢٤٣

بشأن الملحميتين اليونانيتين ونسبتهما إلى شاعر مخصوص .

ويغلب على الظن أن هاتين الملحميتين قد نسبتا إلى الشاعر اليوناني الكبير هوميروس *Homerus* ، لانه هو الذي جمع هذه القصص ، ونظمها في هذا الأسلوب الشعري الجميل ، بعد أن كانت تتداولها الاليسنة وتقص في المجالس بواسطة شعراء شعبيين يتنقلون من مدينة إلى أخرى ، شأن الشعراء الذين لا تزال نزال نراهم في قرى مصر وريفها ومعهم آلتهم الموسيقية المعروفة (الربابة)

ويرجع تاريخ أقدم هذه القصص إلى القرن العاشر قبل الميلاد ، ومع ذلك فقد اصطلح مؤرخو الأدب على أن يذكرنا تاريخ هاتين الملحميتين في القرن التاسع قبل الميلاد . والنشأة التاريخية لهاتين الملحميتين اليونانيتين تأتي متأخرة عن نشأة الملحمة البابلية - السومرية بقرون عدة .

ولذا كانت المقارنة التاريخية بين هاتين الملحميتين وملحمة جاجميش تستطيع أن تلقي بعض الضوء على أثر الملاحم البابلية في الملاحم اليونانية . فإن هناك ملاحظات أخرى تزيد في توضيح هذا الأثر ، بل ربما لا تترك مجالا للشك في إثباته .

ذلك هو ما عرف من أن هوميروس قد نظم هاتين الملحميتين في أزميرن أو في منطقة قريبة منها هي جزيرة خيوس *Chios* أي في منطقة آسيا الصغرى التي كانت تعتبر موطناً ثانياً للحضارة البابلية - الآشورية ، وكذلك ما هو معروف من أن هاتين الملحميتين تتغنيان ببطولة آشيل *Achille* وغيره من أبطال اليونان الذين جاءوا إلى آسيا مع المهاجرين من بلاد اليونان . يضاف إلى هاتين الملاحظتين ما أثبتته التاريخ وما تقدمت الإشارة إليه من أن بلاد

آسيا الصغرى والجزر الصغيرة المحيطة بها في بحر ايجه كانت مأوى للمهاجرين
والمضطهدين سياسياً في اليونان كما كانت ميداناً لنشاطهم التجارى ، ومتنفساً
لن تضيق أمامه سبل العيش في موطنه الاصيل ؛ وليس من السهل على
التاريخ أن يقدم لنا بالضبط تحديداً لأول هجرة يونانية من هذا النوع ،
ولا الغرض الاساسى الذى كانت من أجله تلك الهجرة ؛ غير أن كل ما يستطيع
أن يقوله لنا ذلك التاريخ هو أن اليونانيين أمام ظروف طبيعية واجتماعية
في بلادهم القليلة الموارد قد اضطروا إلى الهجرة منذ زمن بعيد .

وأن حركة الهجرة إلى آسيا قد بدأت منذ عصور قديمة ، ولكنها كثرت
وأخذت شكلاً إجماعياً ابتداء من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، أمام
الاضطرابات السياسية العنيفة رغبة في توحيد البلاد وإخضاعها لسلطان منظم
واستمرت هذه الهجرات تتوالى في ازدياد حتى القرن التاسع قبل الميلاد
تقريباً . وما يدل على أن حركة الهجرة عند اليونان قد بدأت مبكرة
قبل القرن الثالث عشر بكثير هو أن أولئك المهاجرين الذين جاءوا في
شكل جماعات قد وجدوا أقرباءهم ومواطنيهم مستقرين في البيئات الآسيوية
ومتزجين بأهلها من قبل فلم تقم أمامهم صعوبات في التعرف بالبيئة ولا في
ممارسة النشاط الذى يمارسه سكان البلاد الاصيلين .

الاشعار الدينية :

لم يقف أمر التأثير الأدبى بين اليونانيين والبابليين - الآشوريين على
ظاهرة الشعر القصصى فقط ؛ بل إن هناك ظاهرة أدبية أخرى لها صلة
وثيقة بالملاحم ويمكنها أن تساهم بنصيب في بيان تأثير اليونانيين بالحضارة
البابلية - الآشورية ، تلك هى الاشعار الدينية التى كانت تنشأ للتغنى بمدح

الآلهة أو للإشادة بما كانوا يتوهمونه صادراً عنها من عفو ورحمة وإفضال ؛
هذه الاناشيد الدينية وجدت عند البابليين ، كما رأينا منذ قليل ، وكانت
بمثابة طقوس يقوم بها الكهنة ويشاركهم فيها جمهور الناس في أغلب الاحيان
وقد كشفت لنا الاثار عن صور منها ، وأظهرت بعض ما كانت تتناول
تلك الاناشيد من أفكار وابتهالات ؛ ولقد كانت بطبيعة الحال في أول أمرها
ساذجة بسيطة شأن كل ظاهرة أدبية في نشأتها الأولى ، غير أنها لم تلبث
على تلك الحالة بل أخذت في الاتساع والتنوع شيئاً فشيئاً ثم إنها على مر
الزمن قد نالها شيء من التطور حتى لقد أصبحت تعتبر بداية طيبة لمسرحيات
دينية . هذه الظاهرة الأدبية في نشأتها وفي موضوعها وفي أهدافها القريبة
والبعيدة ، وفي تطورها تكاد تشبه تماماً ما ظهر عند اليونانيين من تمثيلات
دينية كانت فيما بعد نواة لما عرف عندهم من أدب مسرحي . ثم مالنا
نذهب بعيداً في تلمس التشابه بين هاتين الظاهرتين الأدبيتين ونحن نجد كثيراً
من آلهة البابليين ، وعقائدهم وأفكارهم ، وطقوسهم وأساطيرهم الدينية قد
انتقل كما هو إلى بلاد اليونان سواء أكان ذلك عن طريق الليديين ، أم عن
طريق الفينيقيين ؛ أم عن طريق المهاجرين والتجار من اليونانيين أنفسهم ؛
وسنرى بعد قليل صدق ذلك واضحاً فيما انتجه اليونانيون من أدب وما نظموه
من قصائد في هذا الميدان ؛ ولعل أولهم وأولاهم بالذكر هو الشاعر هيزيود .

وإذا كان هذا الفن المسرحي قد نضج وتعددت موضوعاته عند اليونان
واتخذ شكلاً إنسانياً بدل أن كان حميماً في حرم الآلهة ومقصوراً على
الكهنة ورجال الدين ثم نبغ في التأليف فيه أدباء لا يزال العالم يدين لهم
بكثير من الأفكار والتوجيه أمثال إيشيل *Esehyle* ، وسوفوكل *Sophocle*
وأوريبيد *Euripide* نقول إذا كان الأمر كذلك عند اليونان فإنما ذلك

من عمل الزمن ، يضاف إليه أثر العقلية اليونانية المنظمة المنطقية . أما نواته وأوليائه فهي صورة لما كان موجوداً عند البابليين ؛ ولقد أثبت تاريخ الأديان القديمة أن الآلهة كانت تنقل من بيئة إلى بيئة بما لها من صفات وطقوس وتعاليم ؛ ولعل أوضح مثال لذلك هو ما حدث بالنسبة لأيزيس ، آلهة المصريين القدماء حينما وصلت إلى روما وأخذت مكانها بين آلهة الرومانيين ؛ إذ أنها لم تحتفظ بسمائها وطقوسها وأعيادها فقط بل إن أتباعها وعبادها كانوا يحتفظون كذلك بمظهرهم وملبسهم وعاداتهم بالرغم مما كانوا يتعرضون له من نقد وسخرية واحتقار .^(١)

والآن فلنتجه قليلاً نحو فن التاريخ لنرى أيضاً ماذا يمكن أن يكون للحضارة البابلية من أثر على اليونان في هذه الناحية ، وهنا أيضاً نبيح لأنفسنا أن نعود إلى الوراء قليلاً لنرى بالإجمال ماذا كانت عليه حالة هذا الفن - لم يكن التاريخ قد وضعت له بعد قواعد وثبتت أسسه العلمية حتى نطلق عليه لفظ (العلم) - عند البابليين . لعل أهم أثر ، من ناحية الحكم ، من الآثار الفكرية التي سجلها البابليون وتركوها لمن جاء بعدهم هي السجل التاريخي الذي وجد ضمن ما وجد من آثارهم ، إذ أن المنتقبين قد عثروا على آلاف من الألواح الطينية قد كتب عليها تاريخ الملوك ، وغزواتهم ، وأهم ما خلدوه من أعمال وتركوه من آثار . وكان تسجيل ذلك كله تسجيلًا جافاً مختصراً لا يعرض لتفصيل الحوادث ولا لتعليقها ، ولا يحاول أن يربط فيما بينها ؛ وبجانب هذه المجموعة من الألواح الطينية الخاصة

^(١) انظر d'isis et d'osiris par plutarque و

les religions dans le paganisme romain par F. eumont; 4ème édition: paris 1929 histoire du culte des divinités d'alexandrie paris 1883 par georges lafaye.

بالمملوك وأعمالهم وما خلفوه من بعدهم نجد كذلك تاريخ كثير من المعابد وما تعرضت له من أحداث بسبب اضطراب السياسة وشن الحروب ؛ وطريقة تسجيل تاريخ المعابد لا تختلف في شيء عن طريقة تسجيل تاريخ المملوك . ولم تهمل كذلك هذه الصحف تاريخ بعض المدن وما وقع فيها من أحداث وما أصابها من رقي واتساع أو من تدهور وخراب . كل هذا كان موضوعا للتاريخ عند البابليين ، ولقد اقتصرت بتسجيله فريق منهم ؛ ولعل ذلك كان بدافع من المملوك ورجال الحكم ، وكذلك بوازع من رجال الدين .

والذي لا شك فيه حتى الآن هو أن أهم مؤرخ بابلي هو (بروسس) إذ أنه تناول في تاريخه قصة الخلق الأولى للعالم ثم انتقل منها إلى خلق الإنسان : مسألتان قد شغلنا كل مفكرى العالم القديم ، ولقد حاول كل شعب أن يجد لها حلا يطمئن إليه ويفسر به طبيعة الوجود في أصله الأول ولم يقتصر هذا المؤرخ البابلي على سرد معارفه بل إنه في أثناء قصصه ذكر كثيراً من التفاصيل التي تعتبر من أهم المصادر للأساطير الدينية ؛ وقد استغل هذه التفاصيل من جاء بعده سواء اكان من المؤرخين ام من رجال الدين . وبقي امر التاريخ في بابل قاصراً على تلك السجلات وما فيها من معلومات مبعثرة ، ومعارف لا رابط بينها حتى انتهت الدولة البابلية .

وحينما ورثت آشور هذا التراث التاريخي عملت على تنميته فأضافت إليه من مجهود علماءها جزءا هاما هو التعريف بالآلهة وذكر انسابها . وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وتقدم ايضا تعليلنا لهذا الاتجاه عند الاشوريين ؛ وإذن فالناحية الدينية وما يتعلق بها كانت هي الشاغل الأكبر عند هؤلاء القوم ، وتاريخ ذلك كان هم المؤرخين .

ولعلنا ندرك من هذا العرض السريع أن موضوع الخليفة الأولى ،

وموضوع أنساب الآلهة التي كانت تعد بالآلاف قد شغلا الفكر البابلي
والآشوري ونالا من المؤرخين عناية واهتماما عظيمين . وعلى ضوء ذلك
فلننظر الآن .

ماذا فعل مؤرخو اليونان ؟ .

إن باكورة المؤلفات التاريخية عند اليونانيين لا تكاد تتجاوز هذين
الموضوعين ، فهناك شاعر مشهور يعتبر من أوائل الشعراء اليونانيين اسمه
هيزيود *Hésiode* قد ابتكر نوعا جديدا من الشعر ، هو الشعر التعليمي
وقبل أن نتعرض لحياة هذا الشاعر وما يمكن أن يكون هناك من
مؤثرات بينه وبين مظاهر الحضارة البابلية - الآشورية نحب أن نستعرض
في اختصار موضوع ديوانه الشعري ونحلله جملة لئلا نرى وجه الشبه بينه وبين
تاريخ البابليين - الآشوريين .

وجد هيزيود بعد هوميروس بحوالى مائة عام ؛ وقد أخذ هذا الشاعر
الموضوعين السابقين - الخليقة الأولى و أنساب الآلهة - ونظم فيها ديوانا
كبيرا من الشعر سماه « تيوجوني - Théogonie » ، يبدأ الديوان بما يزيد
عن مائة بيت من الشعر كمقدمة ، ثم يذكر بعد ذلك أن العالم في أول أمره
كان فضاء لا نهاية له ولا شيء يعمره ثم خلقت الأرض وهي تحمل الجحيم
في ثناياها ، ومن الأرض خلق إله هو أجل الآلهة على الإطلاق ، اسمه
إيروس - *Eros* . ومنذ ذلك الحين يصبح هذا الإله صاحب الأمر والنهي
لا في خلق غيره من الآلهة الأخرى فقط بل في خلق غيرها من الجمادات
أيضا ؛ وقد يمر القارئ على هذه القصة الساذجة مرورا عابرا ؛ ولكن
فكرة الخلق في ذاتها تعتبر بعيدة الدلالة إذ أن معنى ذلك أن الأرض
هي أساس الخليقة ، إذ منها تولدت الآلهة وتناسلت بأشراف إيروس ،

وهكذا يتتبع الشاعر هذه المخلوقات الأولى من العالم العلوى حتى يصل إلى المخلوقات من الجمادات كالجبال والبحار ، والغابات ، والوديان ، والأنهار ؛ ثم يتمشى مع تلك المخلوقات حتى يصل إلى صورة واضحة المعالم عن الكون وما فيه من كائنات .

والشاعر في كل ذلك لم يأت بجديد ، إذ أنه جمع الأساطير التي كانت معروفة ومتداولة بين الناس في أيامه ورتبها ثم عرضها في أسلوب شعري جميل ؛ وإذن فنظرية الخليفة الأولى في حد نفسها ، وفكرة تعدد الالهة وتناسلها كانت موضوعا للتاريخ قبل الشاعر هيزود بأكثر من ألف سنة وقد رأينا طرفا منها في المظهر الديني من الحضارة البابلية - الآشورية هذا هو ما يهدينا إليه تحليل ديوان هيزود .

وإذا عرفنا فوق ذلك أن هذا الشاعر كان واحداً من اليونانيين الذين هجروا بلاد اليونان واستقروا في آسيا الصغرى ، وإذا عرفنا كذلك أنه تتلمذ على أحد القصاص اليونانيين في آسيا لما وجدنا كبير عناء لكي نفهم المصدر الذي يمكن أن يكون قد استقى منه هيزود هذه القصص وتلك الأساطير التي سجلها في ديوانه بالرغم مما حاوله بعض مؤرخي الآداب الأوربيين من إيجاد صلة بين هذه القصص وما كان معروفا في بلاد اليونان ونظن أن هذه المحاولة من مؤرخي الغرب كانت بسبب تناسلهم للصلات القديمة بين اليونانيين والشرقيين ، ولعدم معرفتهم معرفة واسعة لمظاهر الحضارات القديمة في وادي دجلة والفرات ، إذ أن هذه المعرفة مدينة بكثير للمكتشفات الحديثة في ذلك الوادي وهي لم تتسع ويتنافس فيها منقبو الغرب إلا في القرن العشرين الميلادي وهذه الأساطير ليست في الواقع إلا قصصاً بابلياً قد غزا وادي دجلة والفرات، ثم انتشر في آسيا الغربية حتى وصل إلى

بلاد الحثيين والفريحيين ، والليديين في كل آسيا الصغرى . وقد رأينا فيما مضى كيف كانت هذه الشعوب تعيش تحتلطة متصلة ، وكيف كانت بلادها لا تعرف الحدود الجغرافية السياسية المضبوطة ، وكيف كان يتردد فيها بسرعة صدى ما يحدث في وادي دجلة والفرات .

ومن بعد هيزيود جاءت طبقة من مؤرخي اليونان لم يكن لهم شأن كبير في هذا الفن ، ولكنهم نحوا بالتاريخ نحوا آخر فبدأوا يصفون أهم المدن ويذكرون تاريخ كل مدينة وما أصابها من أحداث هامة أضعفت من شأنها أو غيرت من سياستها ولسنا نستطيع أن نتناول هؤلاء المؤرخين جميعا بالذكر وبتحليل آثارهم كما صنعنا بالشاعر هيزيود ، ولكن يهمننا أن نعرف من هذه الطبقة اثنين : أحدهما كان أميرالا بحرياً في خدمة دارا ملك الفرس ، وهذا في نفسه دليل واضح على مبالغ الصلات بين الشرق والغرب ، وتبادل المعارف بين اليونانيين والاسيويين . واسم هذا الاميرال - سيلاكس - *Seylax* .

وقد أتاحت له وظيفته الطواف بكثير من مدن الشرق وبلاده ، بل ان ملك الفرس نفسه قد كلفه الطواف بشواطئ المحيط الهندي ووصف ما يجده من موانئ ومدن . ولسنا نعرف بالضبط الغرض الذي كان يهدف اليه ملك الفرس من وراء ذلك الاستطلاع ، ولكننا ندرك قيمة تلك الرحلة الاستكشافية من الناحية العلمية ، ومبلغ ما بذله الاميرال اليوناني من جهد في أداء المهمة التي وكلت اليه . هذا وعدم تحديد العلوم عند القدماء قد ألزم هذا الاميرال أن يسجل كل ما يراه وما يسمعه أثناء طوافه بشواطئ المحيط الهندي .

ولذا فقد كانت كتابته عن هذه المدن ، وعن تلك البلاد تتجه إلى الوصف الجغرافي من الناحية الطبيعية والبشرية ، أكثر من اتجاهها إلى الوصف التاريخي . وهذا مادعا العلماء الذين تعقبوا آثار اليونانيين إلى أن يترددوا

في موقف هذا الاميرال بالنسبة لآثاره العلمية : أضعونه في صف الجغرافيين أم في صف المؤرخين ؟ ولكن بالرغم من هذه النزعة الجغرافية فقد كان ما كتبه هذا الاميرال مصدرا من أهم المصادر التي قرأها ، وأعتمد عليها أرسطو بالنسبة لما كتبه عن الشرق فالفنسيا وجغرافيا وسياسيا .

هذا هو ما يختص بالمؤرخ الأول . وأما المؤرخ الثاني فهو « هيكاتية Hecatee » ، وكان طابع حضارة الشرق الأدنى فيه أشد عمقا وأكثر وضوحا مما كان في سابقه ذلك لأنه نشأ في آسيا الصغرى وكان واحدا من اليونانيين الذين هاجروا إليها واستقروا فيها مدة طويلة ، واختلطوا بمن فيها وعرفوا الكثير من آثارها العلمية والفنية والأدبية .

ثم أنه فوق ذلك كان معروفا بالطواف والأسفار ، فقد ذهب إلى أوروبا وزار كثيرا من بلادها ، ثم رحل إلى آسيا ورأى أهم أقطارها ، ولم يكتف برحلاته العديدة فيما كان معروفا من العالم القديم في قارة آسيا وأوروبا ، بل أنه صمم على رحلة يقوم بها في إفريقيا حتى تكمل مشاهدته لكل البيئات المعروفة بثقافتها ، ولذا فانه رحل إلى مصر أخيرا وزار كثيرا من مدنها . وقد ولد هذا المؤرخ حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وعاش حتى أوائل القرن الخامس وقد ترك مؤلفين كبيرين أحدهما تاريخي ، موضوعه الأنساب ، والآخر جغرافي . موضوعه وصف الأرض وقد اتخذ هيرودوت مرجعا من أهم مراجعه ، واعتمد عليه في كثير من المعارف التي لم يستطع أن يشاهدها بنفسه أو يسمعها من مصادرها الحقيقية . وكما تردد صدق معارفه عند هيرودوت تردد صداها كذلك عند غيره من المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الذين جاؤا من بعده ، ولم يتيسر لهم رؤية هذه البلاد ولا جمع تلك المعلومات .

ان دراسة حياة هذا المؤرخ ، وقراءة ما حفظه الزمن من مؤلفيه تتيح لنا في حدود هذا البحث التي رسمناها والتزمناها فيما مضى أن نسجل هاتين الملاحظتين .

أولا - إنه نشأ في أحضان الحضارة الشرقية فكانت بداية معارفه وأوائل معلوماته مما يمس الشرق وتنمجه العقلية الشرقية .

ثانيا - إن أكثر طوافه كان في بلاد الشرق ، وأهم أفكاره كانت عن الشرق وآثاره ، ولقد سار في هذا على سنة أسلافه ، وضرب المثل لمن جاء من بعده فأصبحنا نرى العلماء والفلاسفة يفدون إلى الشرق يدرسون بيئاته ويتزودون من معارفه ثم يعودون إلى وطنهم الأصلي ، وقد نضجت أفكارهم واتسعت آفاقهم فيأخذون في تنظيم تلك المعارف ونشرها بين تلاميذهم ومواطنيهم .

وقبل أن ننتهي من الكلام عن هذا الجغرافي المؤرخ لا يفوتنا أن نشير إلى اللقب الذي منحه مؤرخو الآداب لمؤلف كتاب الأنساب ووصف الأرض إذ أن في ذلك اعترافا منهم بمكانته في ذلك الميدان العلمي ، وبالتالي فهو اعتراف بأثر الشرق في معارف اليونانيين وثقافتهم ، فقد اصطالحوا على أن يلقبوه بأبي الجغرافيا لأنه أول مؤلف جغرافي جدير بهذه التسمية عند اليونانيين . وسنرى الآن ماذا حدث في ميدان التاريخ بصفة خاصة عند من جاء بعد هيكاتية .

→ في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد يظهر أكبر مؤرخ يوناني دون منافس ذلك هو هيردوت *Hèrodot* ، وقد لقب بحق « أبو التاريخ » ، إذ أنه كان ولا يزال من أهم المصادر التي يعتمد عليها المحدثون في معلوماتهم عن القدماء بالرغم مما يوجد في تاريخه من ثثرة وخيال واسع .

نشأ هيرودوت حوالى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، فى مدينة هاليكارناس -
Halicarnasso . التى كانت شديدة التأثر بحضارة البابليين فى آسيا الصغرى
بل إنها كانت مصبوغة بتلك الحضارة حتى أننا نستطيع أن نرى فيه
امتدادا لما كان يحدث فى بيئة بابل وأشور .

وعلى سنة أسلافه قام هيرودوت بأسفار عديدة وطواف كبير ، غير أنا
كان أشد من أسلافه شغفا بالشرق وانجذابا إلى الشرق ، ولعل أول رحلة
قام بها لى يشبع نهمه العلمى كانت سفرته إلى مصر . وهناك استهوته
البيئة وآثارها ، والمعاهد العلمية ونشاطها ، والمجتمع المصرى وأنظمته فأخذ
يدور فى انحاءة وينلس المعرفة أيا ما كان نوعها وحيثما كان مصدرها .

وفى وادى النيل استمر يفتقل من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى جزيرة
الفيلة فى أقصى الجنوب . وهناك كان يختلط بالشعب ويجالس القسس والعلماء
والفلاسفة . يسمع أقوال هؤلاء وأولئك ، ثم يلتقى عليهم ما يدور فى خلده
من أسئلة ونظريات ، مناقشا طورا ، ومستمعا ومتفهما طورا آخر ، ولم
تقف عنايته ومهمته فى اثناء تنقله فى مختلف الأوساط العلمية والاجتماعية
عند هذا الحد ، بل إنه كان فى اثناء ذلك يحلل ما يرى ، ويعى ما يسمع
ولعله كذلك كان يسجل بعض ما يلاحظ . ولقد ظهر أثر ذلك كله فيما
كتبه بعد عودته إلى وطنه عن مصر وآثارها ، وعن المصريين شعبا وحكومة
وحضارة ودينا .

وأهم أسفاره الاستطلاعية بعد مصر هو سفره إلى بلاد الفرس وهناك
أيضا استمر يفتقل من مدينة إلى أخرى حتى تجاوز مدينة السوس شرقا .
وبقى يفتقل فى جزرهم فى البحر الأبيض المتوسط وهكذا كان صنيعه فى
مملكة الفرس الواسعة بما فيها بابل وأشور ضرورة لما كان يصنعه فى وادى

النيل ؛ فقد رأى من غير شك كثيراً من آثار الحضارة البابلية - الآشورية
ولاحظ ما أضافه الفرس على تلك الحضارة القديمة ، وأدرك مدى ما كان
منتشراً في تلك البيئات الشرقية من أفكار وعلم وأدب وفن ورياضة ودين .
وثمرة هذه الأسفار الطويلة كانت مؤلفه التاريخي العظيم الذي لا يزال حتى
الآن مصدر الكثير من المعارف عن الحضارات التي ورثناها عن
العالم القديم .

ونحن لو تركنا جانباً هذه الملاحظات العامة عن هيروdot وعن
نشأته وثقافته وصلاته بهذه الأمم الشرقية القديمة ، وتناولنا نصوصه التاريخية
بالدرس والتحليل لوجدنا أن أهم ما كتبه كان خاصاً بالشرق ، وتاريخه ،
ومعارفه ، وآثاره ؛ ولقد كان من حسن الحظ للشرق ، قبل أن يكون
للغرب ، أن حفظ الزمن للأجيال القادمة هذا الأثر التاريخي فأظهر في وضوح
ما كان من صلات واختلاط بين الشرق والغرب ، ثم ما كان من تبادل
في الفكر ، وتفاعل في الإنتاج بين هذين العالمين .

وفي ثنايا ذلك يتضح لنا إلى أي حد كانت عناية اليونانيين بالشرق ،
ومعرفتهم لما انتجته ذلك الشرق من آثار علمية . وأدبية . وفنية . ولعل
في تسمية الرومانيين للأغريق فيما بعد بالشرقيين دليلاً واضحاً على مبلغ تلك
الصلات ، وعلى مدى ذلك التفاعل الذي أخذ يتأكد ويزداد كلما تقدم به
الزمن حتى وجدنا صداه في عهد الامبراطورية الرومانية فرأينا مثلاً
استرابون^(١) يكتب مؤلفه الجغرافي العظيم . وديودور الصقلي يؤلف

(١) عاس استرابون في القرن الأول قبل الميلاد وأدرك جزءاً من القرن الأول
بعد الميلاد (٦٠ ق م إلى ٢٥ م) وله مؤلف هو موضوعه : دراسات جغرافية ، وله أيضاً
مؤلف آخر عنوانه : دراسات تاريخية .

مكتبته التاريخية الواسعة ^(١) . وكل من هذين الاثرين حافل بدراسة الشرق وشعوبه ، وآثاره الفنية ، ومعامله الثقافية . إلى هنا قد رأينا اضواء حضارة الشرق الأدنى في الآثار الفكرية الأولى عند اليونان ، ورأينا كذلك أن أبا الشعر القصصى ، وأبا الشعر التعليمى ، إن جاز لنا هذا التعبير ، وأبا الجغرافيا ، وأبا التاريخ كانوا جميعاً شديدي التأثير بحضارة الشرق وبين معالمها . هذا وينبغى أن يضاف إلى ذلك نوع الإنتاج العقلى نفسه عند قادة الفكر من اليونانيين ؛ فذلك يرينا بجلاء أن هذا الإنتاج قد سبق بمثله أو شبيهه عند البابليين - الاشوريين ومن الانصاف أن نقول مع شئ من التجوز فى التعبير إن هؤلاء اليونانيين كانوا تلامذة إلى حد ما للحضارة البابلية - الاشورية ، وأن إنتاجهم كان امتداداً طبيعياً لما أنتجه البابليون - الاشوريون .

وهناك ناحية أخرى جديرة بالاعتناء ، هى ناحية التشريع عند اليونان وما كان لذلك من أثر فى البيئة اليونانية ، وصدى فى البيئات الأخرى . فلا تذكر كلمة القانون إلا ويستحضر السامع بجانبها أسم سولون - Solon ، أكبر مشرع لدى اليونانيين . ولنعد بذاتنا قليلاً إلى الوراء قبل أن نوضح الاثر المتبادل بين هذا المشرع وبين الحضارة البابلية .

^(١) وجد ديودور فى القرن الاول قبل الميلاد وله المؤلف التاريخى المشهور المكتبة التاريخية - ويحتوى هذا على أربعين جزءاً ؛ وهو عبارة عن دائرة معارف واسعة فى التاريخ والجغرافيا فى مجموعات ثلاث : المجموعة الاولى تشتمل على تاريخ الشعوب المعروفة قديماً سواء منها المتحضر والبربرى حتى حرب طرواده ؛ المجموعة الثانية تشتمل على تاريخ هذه الشعوب من بعد حرب طرواده حتى موت الاسكندر المقدونى والمجموعة الثالثة تبدأ من الاسكندر حتى فتح قيصر لبلاد الغال .

ولقد أشرنا فيما مضى مجرد إشارة عابرة إلى أن أثر قانون حمورابي قد وصل إلى اليونان إما عن طريق التجار من الفينيقيين ، ولما عن طريق اليونانيين أنفسهم ، الذين كانوا يأتون إلى آسيا في ظروف عديدة ولأغراض مختلفة . ولم يكن من السهل قبل عصر النهضة الحديثة أن يتصور العلماء والباحثون صدق ذلك الأثر ولا مدى ما كانت هناك من صلات علمية أو فكرية بين اليونانيين والبابليين - الآشوريين .

ولقد اتضح هذا الأثر بصفة قوية بعد أن عثر المتقربون على قانون حمورابي منقوشاً على أسطوانة من الحجر في أنقاض مدينة السوس . وعليها الآن أن نجلى هذا الأثر أو نوضح تلك الصلة ، لكي نستطيع أن نلاحظ في ميدان القانون مثل ما لاحظناه في ميدان الأدب والتاريخ والجغرافيا ، وحينئذ نكون قد لمسنا أهم بواكير الحضارة اليونانية ورجعنا بها إلى مهدها الأول .

ولعل معرفتنا بشيء من التفصيل عن حياة هذا المشرع اليوناني العظيم تكفيها مؤونة البحث الطويل وتقدم لنا الدليل على تأثر القوانين اليونانية بالقوانين البابلية ، على أن هناك فوق ذلك من المحاولات من جانب رجال القانون ومؤرخيه ما أثبت كثيراً من أوجه الشبه بين القانون اليوناني والشرعية الموسوية من ناحية ثم بينه وبين القانون البابلي من ناحية أخرى ، ولم تكن أوجه الشبه قاصرة على الروح العام فقط بل إنها تناولت بعض مواده أيضاً .

لم يكن سولون من يوناني آسيا الصغرى ، وإنما كان من أسرة أرستقراطية أثينية . ولد حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وربما كان ذلك في سنة ٦٤٠ . وبالرغم من كرم أصله فقد نشأ فقيراً ، إذ أن والده كان قد

فقد كل ثروته ، فاضطر هو إلى أن يشتغل بالتجارة كي يكسب عيشه ، شأن
مواطنيه قديماً وحديثاً حينما يفقدون مواد ثروتهم أو حينما يطمعون في
كسب المال الوفير .

وعلى ضوء معرفتنا بالتجارة في الزمن القديم نستطيع أن نرسم لانفسنا
صورة عن حياة التاجر اليوناني وما تستلزمه تلك الحياة من أسفار طويلة ،
وصلات عديدة ، ودراية واسعة بحال تلك البلاد التي ينتقل إليها ، ويقوم
فيها ، ويختلط بأهلها ، ويلاحظ أخلاقهم وعاداتهم ومجتمعاتهم وأساليبهم في
الحياة وفي التفكير .

استمر سولون إذن يعمل في التجارة من سن مبكرة بعيداً عن أتيننا
حتى حوالى سنة ٦١٠ قبل الميلاد ؛ فكأنه قضى أهم فترة من حياته بالنسبة
للتفكير والدرس والتحصيل في بيئات غير بيئته الأصلية وفي مجتمعات
وأوساط قلما يعرفها غير التجار من اليونانيين . ولكل ذلك أثره في العقلية
ومجابهة المسائل ، ووزن الأمور .

وفي هذا التاريخ ، أى في سن الثلاثين تقريباً ، عاد سولون إلى أتيننا
غنياً بالمعارف ، مزوداً بالتجارب ، ناضجاً في التفكير . وكانت ظروف
أتيننا الاجتماعية والسياسية تتمتع في الداخل والخارج وتتطلب لانقاذها أهل
الخبرة وأصحاب الكفايات ؛ ولعل أتيننا لم تمر في تاريخها بمرحلة أحلك وأشد
من تلك المرحلة التي كادت تقضى على ثروتها وقوتها وحيويتها : خلاف
شديد بين الاحزاب السياسية على تولى الحكم ، خصام عنيف بين الاغنياء
والفقراء على توزيع الثروة ، وخصوصاً الاراضى الزراعية ؛ تهاون وضعف في
عقيدة الشعب واستهانة بالقوانين الدينية ؛ قلة في الانتاج الزراعى والحيوانى
بسبب الهجرات المتوالية فراراً من الاضطهاد السياسى ومن ظلم الحكام وتعسفهم

الذين كانوا يعيشون في عهد إقطاعي وينظرون إلى أفراد الشعب وخصوصاً إلى الطبقة العاملة منه ، نظرة اشبه بنظرة السيد إلى العبيد ؛ وهكذا تمزقت الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وتنافرت القلوب بين الطبقات ، وتداعت الوحدة بين الافراد .

في هذه الظروف القاسية والمحنة الشاملة رجع سولون إلى أتينا فوجد رغبة قوية واتجاهاً عاماً من كل طبقات الشعب إلى أن يلقى إليه بزمام الأمور كي ينقذ الأمة من براثن تلك المحنة ويخلصها من ويلات هذا البلاء .

ولم يتردد هو من جانبه في أن يقوم بتلك المهمة الشاقة ؛ فوضع نفسه تحت تصرف الشعب وأخذ في الإصلاح ؛ وكان برنامجـه يلخص في هذه النواحي الثلاث : الأولى جمع الشباب على كلمة واحدة وغرس حب الوطن في نفسه ؛ الثانية إصلاح العقيدة وتقويم ما اعوج منها ؛ الثالثة إهمال القوانين القديمة وسن تشريع جديد يتلاءم مع حالة الشعب وتطوره في السياسة وفي العقل وفي المعرفة ، أما علاجه للناحية الأولى فكانت وسيلته في ذلك الشعر الذي كان ينظمه ويذشره بين مواطنيه وكان يفيض حماساً ووطنية وتفانياً وإخلاصاً وأما علاجه للناحية الثانية فقد استدعى لذلك رجلاً متديناً من جـ-زيرة كريت قد بلغت شهرته في الدين أثناء حياته مبلغ شهرة الانبياء ؛ ذلك هو - إبيمينيد - *epiménide* ، ولعل أوضح كلمة قيلت فيه - إنه في الحقيقة كان طبيباً للأرواح ^(١) ؛ وأما علاجه للناحية الثانية فقد تولاه هو بنفسه فبدأ يقضى على القوانين البالية التي لا تثبت الحق لضعيف ،

(١) انظر ص ١٤٦ من كتاب تاريخ الأدب اليوناني -

histoire de la littérature grecque par M. M. alfred croiset et maurice croiset

ولا ترفع الظلم عن عاجز . ولعل أهم أثر له في تلك الظروف هو ما وضعه من تشريعات وسفه من قوانين يحكم الشعب إليها دون تفرقة بين طبقة وأخرى ولا بين ضعيف وقوى ، ويطمئن الناس جميعاً إلى عدالتها وقوة نفوذها . وما ساعد على نجاح هذه القوانين الجديدة هو ما كان يتمتع به سولون من حب الفقراء واحترام الأغنياء ؛ ولم تكن هذه القوانين في مجموعها سوى نتيجة لشرائع موسى وقانون حمورابي .

ونحن هنا لا نستطيع الادعاء بأن سولون قد نسخ بعض ما جاء في شرائع الشرق وقوانينه فليست لدينا الوثائق التاريخية لذلك ، وليس مجهولاً أيضاً أن تشريعه كان ملائماً للظروف التي وجدت فيها أتيننا ، ولكننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن نجرده من أثر القوانين والتشريعات البابلية بعد مارأينا من حياته الطويلة في خارج أتيننا ومن اختلاطه المستمر بالشعوب الآسيوية التي كانت على صلة بما أنتجته الحضارة البابلية ؛ وبما كان هناك من أوجه للشبه بين قوانين سولون وتشريعات الشرق سواء ما كان منها في بابل أم في أورشليم ، ولنكتف الآن بهذه الأمثلة التي اعتمدنا عليها لبيان أثر الشرق في الغرب وتوضيح الأسس التي قامت عليها حضارة الاغريق .

ونحن إذ نكتفي بهذا القدر من التفصيل في أثر الثقافة البابلية - الآشورية لا نريد مع ذلك أن نختم هذا الموضوع دون أن نذكر كلمة إجمالية عن أقدم وأهم المراكز الثقافية للشعوب الاغريقية ، ونعني بذلك

بيئة آسيا الصغرى وما جاورها من جزر في بحر ايجه

إن بحثنا عن هذه البيئة سوف لا يتناول تاريخها ولا جغرافيتها ؛ وإنما سيعرض لها من وجهة نظر خاصة فيبين منظرها العام من ناحية السكان

والدور الهام الذى قامت به بالنسبة لإيواء المهاجرين الغربيين من ناحية
ولتقبل حضارة وادى الرافدين من ناحية أخرى ، ثم يبين بعد ذلك كيف
كانت هذه البيئة منذ القدم ، ولا تزال إلى حد ما : بمثابة معبر بالمعنى الواسع
بين الشرق والغرب ، معبر للسكان ، ومعبر للجيش والحروب ، ، ومعبر
للعلوم والفنون والمعارف .

لقد كانت هذه البيئة بمثابة موطن مستمر لبعض القبائل الأغريقية منذ
العصور القديمة ، ويحاول بعض المؤرخين أن يرجع ذلك إلى حوالى القرن
العشرين قبل الميلاد ، معتمداً فى هذا على جانب كبير من الحدس والتخمين
ولعل الواقع يخالف ذلك تماماً ؛ إذ أن سبيل الانتقال ممدد منذ آلاف
السنين ، وضرورة الانتقال كذلك موجودة منذ عهد بعيد .

ولهذا فأن تحديد التاريخ فى مثل هذه المسائل يكاد يكون عسيراً من
ناحية ، ولا تترتب عليه نتائج خطيرة ، من ناحية أخرى ، بالنسبة لهذا
البحث الذى نحن بصدد ما دمنا لا نجد للأغريق فى هذه الفترة من الزمن
أى أثر على أو أدبى أو فنى . لنترك إذن هذه الفترة التى تسبق الأحداث
التاريخية ، ولنتناول العصر الذى يحدثنا عنه التاريخ فى شبهة ثقة واطمئنان .

فى حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد قامت فى شبه جزيرة اليونان
حركة سياسية تهدف إلى تكوين دولة موحدة عامة من كل القبائل الأغريقية
التي كانت تعيش منعزلة تماماً فى شبهة حياة قبلية ، شأن الشعوب البدائية قبل
أن تدخل فى دور التكوين السياسى والرقى المادى والأدبى . ولم تخل هذه
الحركة من صراع بين القبائل ، وتنافس بين الرؤساء على السيادة فى الحكم .
وبرز فى هذا الصراع بين القبائل قبيلتان .

وانتهت هذه الحركة بالتفاف عدد كبير من الاغريق حول قبيلة منها
معروفه باسم « الدوريان » *Dorienne* . وبهذا قد فهم مقدما اتجاه الشعب
في وضع زمام الامور ، ولم يبق أمام العدد القليل من الاغريق الا أحد
أمريين : اما الاستسلام ، واما مغادرة البلاد .

وعلى حساب هذا التكتل اضطرت القبيلة الاغريقية الأخرى المعروفة
باسم « يونيان » *Ionienne* ، الى مغادرة شبه الجزيرة والالتجاء الى آسيا
الصغرى والجزر الصغيرة القريبة منها في بحر ايجه . وهناك قد انضم أفراد
هذه القبيلة الى من كان قد هاجر قبلهم من الاغريق الى هذه المواطن وكونوا
أمة لها وحدتها ، ونشاطها في كل مظاهر الحياة الاجتماعية ما عدا الناحية
السياسية ، اذ أنها كانت تخضع للملك آسيا الذين يسيطرون على هذه الجهات
وحياة اليونانيين في هذه البيئة وبهذه الصورة قد وجدت في يدينا أخرى
وفي داخل ممالك منظمة وحكومات قوية مثل اليونانيين أو الاغريق الذين
استقروا في مرسيليا يوم أن كانت تحت حكم الغاليين وبعد أن استولى عليها
الروم ، ومثل اليونانيين أو الاغريق الذين استقروا في جنوب ايطاليا وفي
جزيرة صقلية ومكثوا هناك حتى أخضعتهما واستولت عليها الدولة الرومانية ؛
وأخيراً مثل اليونانيين أو الاغريق الذين عمروا مدينة الاسكندرية واستمروا بها حتى
بعد الفتح الروماني ؛ فحياة اليونانيين أو الاغريق في خارج بلادهم كانت كما
نرى صورة واحدة متكررة فلم يكن غريباً اذن على أفراد قبيلة - يونيان -
أن يتخذوا من آسيا الصغرى موطناً له كل صفات الوطن الاصلى دون ان
يشغلوا بالناحية السياسية .

ومن آثار ذلك ان سميت المنطقة التي يقيمون فيها من آسيا الصغرى
باسم « يوني - *Jonie* » . نسبة اليهم ، ومنذ احتلالهم لها واستقرارهم فيها

اصبحت تلك المنطقة ملتقى هاماً لعقليتين متميزتين : عقلية شرقية واخرى غربية ، ومن التفاعل بين هاتين العقليتين تولدت الحضارة اليونانية .

ومن هنا ندرك الفرق بين كلمة يوناني ، وأغريقي ، وان كنا فيما بعد نرى هذا الخلط في المعنى بين هذين الاصطلاحين ، اذ اننا كثيراً ما نجد كلمة اليونانيين تطلق على كل الشعب الاغريقي ، وكلمة الاغريق تطلق على كل من ينتمي الى شبه الجزيرة او من نزح منها الى جهات اخرى ، ولقد لاحظنا هذا الخلط عند بعض الكتاب المحدثين في الغرب ^(١) ولا يزال يسايرهم كثير من المعاصرين .

ولعل القدماء كانوا ادق منا الآن في استعمال هذين الاصطلاحين ، فكانوا اذا استعملوا كلمة يونانيين . قصدوا من ذلك اولئك الذين كانوا على صلة بآسيا الصغرى منذ عهود الهجرات القديمة ، واذا استعملوا كلمة - إغريق - قصدوا منها سكان شبه الجزيرة اليونانية بوجه عام .

والذي يهمنا ان نعرفه الآن هو ان هؤلاء اليونانيين بعد ان هجروا بلادهم الاولى قد استقروا في بيئة كان يتردد فيها صدى الحضارة البابلية والاشورية دون إبطاء ، بل انها كانت تعتبر بحق امتداداً طبيعياً لنفوذ بابل وآشور سياسياً وعلمياً وأديباً وفنياً ، وقد أبان التاريخ مدلت الآثار المكتشفة في آسيا الصغرى على أن مظاهر حضارة بابل وآشور كان لها نفوذ عظيم عند سكان هذه المنطقة ، سواء أكان هذا قبل أن يفد إليها المهاجرون من اليونانيين

^(١) من هؤلاء الكتاب مثلاً صاحب معجم اللغة الفرنسية *Larousse illustré* في القسم التاريخي من هذا المعجم يقول المؤلف حينما يتحدث عن كلمة - *Jonic* . انها جزء من آسيا الصغرى القديمة كان يسكنه الاغريق المهاجرون .

أم بعد ذلك ، على أن حضارة اليونانيين نفسها التي نبتت أول ما نبتت في هذه البيئة دليل واضح على امتداد الحضارة البابلية الآشورية .

وفي خلال الفترة المحصورة بين القرن الثاني عشر والقرن الثامن قبل الميلاد ينشط هؤلاء اليونانيون في تكوين نهضة علمية أدبية تعتبر بحق النواة الأولى للحضارة اليونانية بمعناها العام . وإذا كان علماء الغرب ومؤرخو الآداب يقررون بأن حضارة الاغريق مدينة إلى حد كبير بالنسبة لأوليائها ولكثير من مظاهرها إلى اليونانيين الذين كانوا يقيمون في آسيا الصغرى وفي جزر بحر إيجه ، فأنتنا نستطيع أن نقرر من جانبنا بأن حضارة هؤلاء اليونانيين المقيمين في آسيا الصغرى مدينة بدورها إلى حد كبير إلى حضارة الشرق التي نبتت في وادي الرافدين .

ومنذ قليل رأينا كيف نشأ فيها الشعر القصصي على يد هوميروس ، الذي نشأ في منطقة يوني ونظم شعره في أزميرن ، ورأينا كذلك كيف نشأ الشعر التعليمي على يد هيزيود الذي نشأ بدوره أيضاً في منطقة يوني وتعلم على شاعر قصاص من يوناني آسيا ، الذين نشأوا فيها وانتجوا على نمط ما كان موجوداً في الحضارة البابلية - الآشورية ، وهكذا بفضل هؤلاء وأولئك تكونت حضارة يونانية في منطقة آسيا الصغرى استتبعته نهضة في كل نواحي المعرفة ، ثم استمرت هذه النهضة في تقدم حتى بعد أن نشأت في أتيننا نهضة مماثلة بعد القرن الثامن قبل الميلاد ، وبقي يونانيو آسيا يعملون على انتشار حضارتها من ناحية ، وعلى نقل آثارها إلى أتيننا من ناحية أخرى حتى تكونت بفضلهم تلك الحضارة الاغريقية العظيمة التي ورثها عنهم العالم الغربي الحديث . وبقيت هذه الحضارة تدرس عند الغربيين وكأنها وليدة البيئات اليونانية الخالصة وليس بينها وبين الحضارات الشرقية

صلة ؛ ولكن في العصور الحديثه وعلى ضوء الابحاث التاريخية والاكتشافات
الاركيولوجية اتجه الباحثون إلى دراسة تاريخ هذه الحضارة ؛ ومع هذا فلم
يحاول واحد من علمائهم حتى اليوم محاولة جدية عميقة في أن يبحث عن
تاريخ وسر نشأة هذه الحضارة ، ويحللها تحليلًا شاملاً ، ثم يرد عناصرها إلى
أصولها الأولى ومواطنها التي نشأت فيها وانتقلت منها . وإنما كل ما رأيته
وقرأته في هذا الميدان لا يعدو أن يكون محاولات بسيطة أو أبحاثاً جزئية
كتاريخ الشعراء اليونانيين أو تحليل شخصياتهم ، وتاريخ الفلسفة اليونانية
وحياة الفلاسفة وفي خلال تلك المحاولات نجد هنا وهناك بعض إشارات
تفيد أن هذا الشاعر أو ذلك الفيلسوف قد نشأ في الشرق أو سافر إليه أو
تلمذ على أساتذة شرقيين .

ولعل أهم من أشار إلى ذلك وكتب في هذا الموضوع هو الأستاذ
« ول ديورانت » صاحب كتاب قصة الحضارة ، ومع ذلك فكل ما كتبه
لا يعدو أن يكون مجرد إشارات مجملة عابرة يسوقها عرضاً في ثنايا موضوعات
أخرى ومن ذلك ما كتبه ^(١) : « على أن بابل هي التي أنشأت ذلك القصص
الساحر الجليل الذي أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً لا يتجزأ
من قصص أوربا الدينية . ومن بابل لا من مصر جاء اليونان الجوالون
إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة ، والفلك والطب والنحو ،
وفقه اللغة ، وعلم الآثار ، والتاريخ والفلسفة .

ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومه ومنها إلى
الأتوريين والأمريكيين . وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن ،

(١) انظر ص ٢٦٢ من الجزء الثاني ترجمة الأستاذ محمد بدران .

وأبراج النجوم ، والموازين والمقاييس ، والآلات الموسيقية ، ولكثير من العقاقير ، ليست كلها إلا تراجم لأسمائهم البابلية ، بل أنها في بعض الأحيان لاتعدو أن تكون تبديلا لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية . وبينما استمد فن العمارة اليونانية أشكاله وإلهامه من مصر وكريت ، فإن العمارة البابلية هي التي أوحى عن طريق الزجورات بقباب المساجد الإسلامية وبالمنازل والأبراج في العصر الوسيط ، وبطراز المباني المرتدة في أمريكا في هذه الأيام . وأضحت قوانين حمورابي تراثا للمجتمعات القديمة كلها لا يقل في شأنه عما ورثه العالم من رومه من نظام الحكم وإساليبه . ولقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأصبحت عنصرا من التراث الثقافي للبشرى بفضل سلسلة طويلة من الأحداث التاريخية الخطيرة .

فقد فتحت آشور بابل واستحوذت على تراث هذه المدينة القديمة ، ونشرته في جميع أنحاء امبراطوريتها الواسعة . وتلا ذلك أسر اليهود الطويل وما كان للحياة وللأفكار البابلية فيهم من أثر عظيم . وأعقب هذا وذاك الفتحان الفارسي واليوناني اللذان فتحا جميع طرق التجارة والمواصلات بين بابل والمدن الناشئة في أيونيا وآسية الصغرى واليونان ، فتحا لم يشهد العالم من قبل له نظيرا في كماله وحرية . إن شيئا ما لا يضيع من العالم آخر الأمر بل إن كل حادثة تترك فيه أثرها خالدا إلى أبد الدهر ، خيرا كان ذلك الأثر أو شرا .

من هذه الفقرات القصيرة والإشارات الخاطفة نرى كيف كانت حضارة أرض النهرين أساسا للحضارة الإغريقية ثم كيف كان السبيل في انتقالها إلى الغرب . ولولا ما التزمناه أول الأمر من قصر بحثنا على أثر الحضارة البابلية - الآشورية في الحضارة اليونانية لاستطعنا أن نبين كذلك إلى

حدا أثر الحضارة المصرية القديمة في العقلية اليونانية وعلى الخصوص من الناحية الدينية والناحية الفلسفية ، وأن ترسم من حياة أولئك اليونانيين الجوالين صورة توضح معالمها كيف كان هؤلاء اليونانيون تلامذة لفلاسفة مصر وعلماء الرياضة والكهنوت فيها كما كانوا تلامذة كذلك لأصحاب الحضارة البابلية - الآشورية . والآن نكتفي بهذه العبارات المجملة في تلك الصفحة القصيرة التي كتبها صاحب قصة الحضارة ، غير أننا نعتقد أن انتقال تلك الحضارة الشرقية إلى الغرب ، وعلى الخصوص إلى بلاد اليونان القديمة قد تحقق قبل تلك العصور التي يشير إليها الاستاذ (ول ديورانت) ، إذ أن صلة اليونانيين بالشرقيين كانت أقدم من عهد الحروب والفتوح ، فقبل أن يفتح الفرس بلاد اليونان ، وقبل أن يصل الاسكندر في غزواته إلى بلاد الفرس ، بل وقبل أن يحدث الأسر اليهودي وتفتح آشور بابل نقول قبل هذا أو ذاك كان اليونانيون على صلة بالشرق وأنظمتهم ومعارفهم ، وقد أوضحنا هذا فيما مضى .

والفضل في ذلك يرجع أولا إلى اليونانيين الذين استوطنوا جزءا كبيرا من آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه ، وثانيا إلى الشرقيين أنفسهم المشتغلين بالتجارة والمتنقلين في شواطئ شبه الجزيرة اليونانية وفي جزر اليونانيين المنتشرة في حوض البحر الأبيض الشرقي .

أما فتوح الفرس واليونان فقد جاءت بعد أن تأسست الحضارة اليونانية وتعددت مظاهرها ، وأخذت لنفسها طابعا غربيا خاصا يميزها تماما عن الحضارة الشرقية ، بل أننا نستطيع أن نقرر أن تلك الحضارة اليونانية كانت أيام فتح الاسكندر الأكبر للشرق من النضوج والازدهار بدرجة تسمح لها بأن تدخل في صراع مع الحضارات الشرقية وتفرض سلطانها على كثير

من البيئات في الشرق . وهذا هو ما حدث بعد فتوح الاسكندر مباشرة سواء أكان في آسيا الصغرى أم في بيئة الشام أم في مصر ، فقد رأينا في البيئة الاولى مدينة بروجام ، وفي الثانية مدينة انطاكية ، وفي الثالثة مدينة الاسكندرية ، وكل مدينة من هذه المدن الثلاث قد لعبت في بيئتها دورا ثقافيا يشبه إلى حد كبير الدور الذي كانت تلعبه أثينا في الغرب .

إذ أنه لم يكبد ينتهى القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان العالم القديم يرى اليونانيين قد استكملوا جميع عناصر حضارتهم : شعر بأنواعه المختلفة كالقصص والتعليم والغنائى والمسرحى : ونثر بألوانه المتباينة كالخطابة ، والبيان والتاريخ ، والجغرافيا والطب ، والسياسة والقانون ، واللغة : وفلسفة بعلمها العديدة كالمنطق ، والرياضيات ، والألهيات ، والطبيعيات . ويضاف إلى ذلك أيضا كثير من مظاهر الفن الراقى كالهندسة المعمارية ، والرسم والزخرفة ، والتشكيل . وهذه العناصر قد تجمعت وتآلفت حتى بدت كوحدة في المنهج وفي التفكير وفي الاهداف .

وكل ما استطاعت أن تستفيد منه حضارة اليونان من الشرق بعد فتوح الاسكندر الاكبر على الخصوص ، هو اتساع دائرة التفكير اليونانى ، وتصحيح بعض المعارف القديمة التى وصلت اليهم عن الشرق بطريق الرواية وتنمية الانتاج العلمى والآدبى والفنى وأما أسسها وأغراضها فقد وضعت وحددت من قبل ، وقد جاء الاسكندر إلى الشرق لا لينتقم من الفرس فحسب . ولا ليكسب انتصارات حربية فقط ، وإنما جاء ليفتح آفاقا جديدة للشقانة اليونانية أيضا . ولهذا فقد جاء اليونانيون إلى الشرق جماعات لأفرادا ومستوطنين لا رحالين ، وتخيروا المواقع لإنشاء المدن ، وحاولوا جهمهم أن يلفتوا أنظار الشعوب المفتوحة إلى نشاطهم ويحتذبوهم إلى مظاهر

حضارتهم ، فاستدعوا الكثير من علماءهم ، وسهلوا لهم سبيل الإقامة ، وأجروا عليهم الارزاق ؛ وقد استلزم ذلك منهم أيضا أن يفتحوا طرق الدراسة ، ويمهدوا لرواد المعرفة ، ويعملوا على تنمية العقل بجانب تنمية الجسم فبنوا المسارح والملاعب ، وأسسوا المتاحف والمعابد ، وأنشئوا المدارس والمعاهد ، واشتغلوا بالبحوث العلمية وبالتدوين ؛ ولم يمتص على وجودهم في الشرق زمن طويل حتى رأينا لديهم دورا للكتب تضم عشرات الآلاف من المجلدات ، وجامعات تأوى الآلاف من الطلاب وهكذا غدت عواصمهم في الشرق مدنا جامعية بجانب الدور السياسي الذي كانت تنهض به في إدارة شئون البلاد ، وأخذ تنافسهم على النهوض بالعلم وجلب العلماء يشتد فيما بينهم حتى وصل إلى درجة لم تعهد من قبل عند القدماء ، وليس من هدفنا في هذا الفصل أن نمضى في تحليل النشاط العلمى عند اليونانيين في الشرق ولا أن نبين مبلغ ذلك التنافس على اقتناء الكتب وجلب العلماء وإنما عرضنا لذلك بالأجمال لنوضح موقفنا من صاحب قصة الحضارة الذى زعم فيما زعم أن الحروب بين الفرس واليونانيين هى التى فتحت الطريق للحضارات الشرقية كي تنتقل إلى اليونان ثم تزدهر وتثمر عندهم . وحقيقة الامر فيما نعتقد ، وكما وضعنا من قبل ، هى أن حضارات الشرق ، وعلى الخصوص الحضارة البابلية - الآشورية ، قد وصلت إلى اليونانيين وانتجت ثمارها قبل تلك الحروب ، ولا أدل على ذلك من مجيء اليونانيين إلى الشرق وهم على تلك الحالة ، التى وضعناها منذ قليل ، من العلم والفن والأدب ، وهم مشبعون كذلك بتلك الرغبة فى نشر ثقافتهم والعمل على أن تسود فى كل البلاد التى غزوها ولو كان ذلك على حساب الحضارات القديمة فى تلك البلاد المفتوحة . وسنرى بعد قليل حينما نتحدث عن أثر الحضارة اليونانية فى

وادی دجلة والفرات كيف نجحوا في هذا المنهج الذي رسموه لأنفسهم وإلى
أى مدى تحققت لهم تلك الرغبة .

والآن فلنعد إلى البيئة العراقية لنرى ماذا حدث فيها بعد أن اسقط
الفرس سلطان الساميين وأقاموا على انقاض دولتهم دولة فارسية واسعة
واسسوا لهم حضارة هي مزيج من تراث الحضارة الميسدية ، والحضارة
البابلية - الآشورية .

وقبل أن نبدأ الحديث عن ذلك نعيد إلى ذاكرة القارئ ماأشرنا إليه
في مناسبات مختلفة ، وهو أن الحضارة التي نبتت وأزهرت في وادی
الرافدين لم تمت ولم يقض عليها بواسطة الحروب أو الفتوح أو التغير
السياسي ، وإنما بقيت بالرغم من تعرضها لهزات سياسية عنيفة ،
واستمرت محافظة على أصولها بالرغم من ذلك المدد الاجنبي الذي يقد إليها
من وقت لآخر مع عقلیات الفاتحين ورجال الحكم ، فالقضاء على الدولة وعلى
رجال السياسة ليس معناه القضاء على الامة وعلى إنتاجها العقلي لان ذلك
لم يعد ملصكا للأفراد وإنما هو ملك وتراث للمجتمع ، وقد تزول الافراد
ولكن قلما يزول المجتمع .

عودة إلى البيئة العراقية

سبق أن تحدثنا عن أهم مظاهر الحضارة الفارسية وأوضحنا أثر التفاعل
بين العقلية الفارسية الغازية ، والعقلية البابلية - الآشورية ؛ ثم ألقينا بعض
الضوء على الناحية الدينية بوجه خاص ، وبيننا كيف وصلت ديانة الفرس
بمذاهبها المتنوعة وطقوسها المختلفة فبعد أن كانت بلاد الرافدين تسيطر عليها
ديانة وثنية بمعناها العام قبل أن يصل إليها الفرس مهاجرين أولاً أو فاتحين

أخيرا ، نقول بعد أن كانت بلاد الرافدين لاتدين إلا بالوثنية أصبحت تعرف المجوسية والصابئة والزردشتية بألوانها المتباينة من فكرة التوحيد إلى مذهب المثنوية . وسبق أن ذكرنا كذلك أن وادي دجلة والفرات قد تأثر بألوان أخرى من حضارات اجنبية بعد فتح الفرس ، بعضها جاء من بيئات قريبه ، والبعض الآخر جاء من بيئات بعيدة ولعل أهم هذه الألوان على الإطلاق هو لون الحضارة السريانية ، وأصحاب هذه الحضارة هم الاراميون في الاصل ، وسنرى بعد قليل كيف تفرقوا شيعا وسموا بأسماء مختلفة فكان منهم السكديانيون والسريانيون ثم النسطوريون واليعقوبيون .

الحضارة السريانية

وقبل أن نتكلم عن نشأة هذه الحضارة ومظاهرها ، وآثارها ينبغي أن نرجع قليلا إلى الوراء فنذكر كلمة عن هذا الشعب : من اين جاء ؟ وفي أى البيئات استقر ؟ ثم كيف استطاع أن ينشئ له حضارة ربما لا تقل عن حضارة الفرس بالنسبة لآثار كل منهما في الحضارة الإسلامية ؟

يكون الاراميون شعبا من الشعوب السامية الشمالية التى نزحت من وسط الجزيرة العربية فى شكل هجرات متوالية : ولعل أقدم هجرة معروفة لهذا الشعب كانت فى حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، إذ أن من الصعب تحديد مثل هذه الاحداث تحديدا تاريخيا ؛ ولم يكن لهذه القبائل هدف محدد بادىء الامر فكان همها البحث عن مكان يصلح للأقامة وتتوفر فيه وسائل الحياة بالنسبة لبدو يعنون أول ما يعنون بتربية الماشية .

وقد اقتنعت هذه القبائل أولا بالاقامة على حدود البابليين والاشوريين من ناحية والعبرانيين والفينيقيين من ناحية أخرى . ولم يستطيعوا مهاجمة هؤلاء

ولا أولئك ، فلم يكن لديهم العدد الكافي ولا القوة المادية ، ولكنهم حين
كثرت عددهم بدءوا يكونون لهم دويلات على حساب الكنعانيين في الغرب ،
الذين كانوا متفرقين وفي شبه انحلال سياسي فالفينيقيون منصرفون إلى الملاحة
والتجارة ، والebraيون منهمكون في الفوضى وفي الخلافات الداخلية .

أما في الجهة الشرقية فكان لهم نشاط ملحوظ في الناحية الثقافية وإن
كننا لا نعرف شيئاً يذكر عن حياتهم الاجتماعية ونجهل مدى نشاطهم
السياسي . والذي نستطيع أن نلاحظه بوجه عام على هذا الشعب هو أنه لم
يكن له طموح سياسي مثل ما عهدناه عند الشعوب السامية الأخرى كالبابليين
والآشوريين الذين قضوا على سلطان السومريين وأسسوا لهم دولة واسعة
النفوذ عظيمة السلطان ، وكالكنعانيين الذين احتلوا شواطئ البحر الأبيض
المتوسط وأقاموا لهم دولاً وحكومات . وكل همهم كان منصرفاً إلى النشاط
العلمي ، ومن هنا كانت شهرته التي عرف بها في العالم القديم . ونحن نعتقد أن
أهم الأسباب في ذلك موقع البيئة التي كان يتخذها مستقراً ؛ إذ أنه من
الجهة الشرقية كان على حدود وادي دجلة والفرات ، وهو على ما وصفنا
من الرقي والتقدم العلمي والأدبي والفني ؛ ومن الجهة الغربية كان على حدود
الحيثيين ، والليديين ثم اليونانيين من ناحية الشمال ، وعلى حدود الفينيقيين
والebraانيين من ناحية الجنوب . هذا الموقع كما نرى سهل له الاختلاط
بعقليات مختلفة وبمعارف متنوعة ، ومهد له السبيل فيما بعد لتعلم لغات
الشعوب التي تحيط به ، فاتجه إلى الجمع والتدوين ثم إلى النقل والترجمة ،
واستمرت هذه أبرز صفة من صفاته حتى الفتح العربي لبيئة العراق ، والنهضة
الإسلامية في عهد العباسيين . وهناك جانب لا يزال غامضاً بعض الشيء في
تاريخ الشعب الآرامي ومعرفتنا به الآن تخدم الغرض الذي نقصد إليه في

هذا الفصل وهو أثر الحضارة السريانية أو الآرامية قبل أن نعرف هذه التسمية في وادي دجلة والفرات ، ذلك الجانب هو الصلة بين الكلدانيين والآراميين ، ونحن نعرف أن كثيرا من الكتاب الشرقيين والغربيين قديما قد تحدثوا عن الكلدانيين وعن آثارهم العلمية والفكرية وعن تأثيرهم فيمن جاورهم من البابليين في الشمال وفي شبه الجزيرة العربية في الجنوب ، وكثيرا ما نطالع في كتب التاريخ والسير والأدب أن العرب قد أخذوا عن الكلدانيين معارفهم في الفلك وفي الحساب وفي التوقيت وفي التنجيم وفي غير ذلك من المعارف الكونية ، ومع هذا لا نجد عند هؤلاء المؤلفين لتلك الكتب ما يوضح من هم الكلدانيون ولا ماهو الدور الهام الذي لعبه الكلدانيون في تأسيس مجتمعاتهم وتكوين ثقافتهم . وحقيقة أمر الكلدانيين أنهم فرقة من الآراميين الذين اتجهوا إلى الشرق واستطاعوا أن يتسللوا داخل المملكة البابلية ، وهناك في الجزء الجنوبي من تلك المملكة الواسعة وجدوا منطقة خصبة وظروفا ملائمة فألقوا عصا التسيار ثم بنوا لهم في وسط تلك المنطقة مدينة سموها - كلد - بين مدينة بابل والخليج الفارسي ، وكان ذلك حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . في هذه المدينة تكون مجتمعهم وباسمها سموها بالكلدانيين ، ثم بسبب اتصالهم بالبابليين قد استطاعوا أن يأخذوا كثيرا من معارفهم ، وبطبيعة قربهم من العرب في شبه جزيرةهم قد تمكنوا من نقل تلك المعارف إليهم . وما ينبغي إدراكه هنا أيضا أنهم بقدر ما انتفعوا بالحضارة البابلية قد أفادوها ، إذ أنهم قد أحيوا كثيرا من معالمها وأضافوا إلى تلك المعالم بعض الشيء من معارفهم التي اكتسبوها من تفكيرهم وتجاربهم الخاصة في الفلك والتنجيم والطبيعة . وقد ساعد على ذلك وجودهم بين ظهرائى البابليين في وقت كانت الدولة السياسية في شبه انحلال وكانت

الحرب تكاد تكون مستمرة بين بابل وآشور على الاستقلال بالأمر في كل وادي الرافدين شمالا وجنوبا. هذه الفوضى الداخلية وتلك الاضطرابات السياسية لم تؤثر في هدوء الكلدانيين ولم تصرفهم عن توجيه نشاطهم الى نواحي العلم والمعرفة ، بل على العكس كان ذلك حافزا لهم على ترك السياسة جانبا والانتواء على انفسهم ، ثم الانكباب على تفهم الامور ، واستنتاج الأحكام ، وشأنهم في ذلك شأن الغرباء في بلد لا يعينهم من سياسته شيء ، وربما عملوا على اشتداد الخلاف بين سكانه وإشعال نار الفتنة بينهم . والراجح أن ابراهيم وقومه كانوا من هؤلاء الكلدانيين ، وليس من شك في أن قصة ابراهيم مع أبيه وقومه كما ترويها الكتب المقدسة ، وخصوصا القرآن ، تلقي ضوءا على ديانة سكان وادي الرافدين ومعبوداتهم من الكواكب والاصنام من ذلك ما جاء في سورة الانعام آية ٧٤ وما بعدها : « وإذ قال ابراهيم لابيه أزرأ اتخذ اصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لأحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهى وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . »

ومن ناحية أخرى فأن هذه القصة نفسها تدل على اتجاه جديد فى العقلية والتفكير مما يوضح أن هؤلاء الكلدانيين قوم غرباء عن هذه البيئة ، ودخلاء على أهلها ، يضاف الى ذلك ما هو معروف من أن ابراهيم مع قومه حينما اضطهد بسبب عداوته للديانة الوثنية القديمة هاجر من مدينة أور ، فى المنطقة

الجنوبية من وادى الرافدين ، إلى حران ، مقر الآراميين منذ زمن قديم .
هذا وتاريخ تلك الثورة الدينية التى دعا إليها ابراهيم لم تكن إلا فى العهود
الأولى لاستقرار الكلدانيين فيما بين بابل والخليج الفارسى وذلك قبل أن
يندمجوا فى السكان الأصليين لحما ودما وخلقا وعقلية وتفكيراً . وحديثنا عن
الكلدانيين هنا يوضح ويتمم حديثنا عنهم فى تلك الإشارة الخاطفة التى أشرنا
بها اليهم فيما تقدم من هذا الكتاب ^(١) . وإنما اختصصنا الكلدانيين بهذه
الكلمة على انفراد قبل أن نتكلم عن الآراميين بشكل عام لأن الكلدانيين
هم أول فريق من الآراميين استطاع أن يكون له مجتمعا وشخصية ثقافية فى
حين أن مجموع الآراميين الآخرين كانوا لا يزالون يضربون فى الصحراء
الواقعة بين وادى الرافدين من ناحية وبلاد السكنعانيين من ناحية أخرى ،
ويضطربون بين الشرق والغرب باحثين عن مقر هادى خصب أو عن منفذ
ينفذون منه إلى داخل البلاد المنظمة المتحضرة .

والآن فلنعد إلى الآراميين فى مجمرهم وفى موطنهم العام لئرى كيف
انقسموا إلى شعب متفرقة ، وكيف استطاعوا بنشاطهم العقلى أن يفرضوا
معارفهم ولغتهم على شعوب آسيا الغربية من بلاد فارس حتى شواطئ
البحر الأبيض المتوسط .

كان الآراميون منتشرين فى مساحة واسعة من الأرض تمتد من أرض
النهرين إلى البحر الأبيض المتوسط . ولهذا فقد انقسموا على عمر الزمن إلى
فريقين يكادان يكونان متباينين فى مظاهر اللغة ، والحضارة ، والحياة الاجتماعية
وقد اصطلح الباحثون على تسمية الفريق الذى كان يقيم على شواطئ البحر

(١) أنظر ص ٤٨-٤٩ من هذا البحث .

الابيض المتوسط بالآراميين الغربيين ، والفريق الذى كان يقيم فى بلاد العراق بالآراميين الشرقيين . وكل من الفريقين قد وجه همه إلى تفهم حضارة البيئة التى استقر فيها ، ثم حاول أن يرقى بنفسه ويبرز أهل الحضارات السابقة ، وقد نجح فى تلك المحاولة إلى حد بعيد .

ويهمنا فى هذا البحث الآراميون الشرقيون ، فهم الذين تأثروا بالحضارة القديمة فى بيئة العراق ، وهم الذين أثروا فى تلك البيئة بما أنتجوه من علم وبما نقلوه عن الأجانب من معارف وأفكار . أما أثر الآراميين الغربيين فى وادى الرافدين فكان ضئيلا ولم يسجل لهم التاريخ فى هذا الميدان سوى ما أثر عن بعض مهندسيهم وفنانينهم الذين أخذهم ملوك بابل فى أيام السبي أو استدعواهم قبل ذلك أو بعده لى يستغلوا نشاطهم وينتفعوا بخبرتهم فى المملكة البابلية . هؤلاء الآراميون الشرقيون قد استقروا فى بعض المدن العراقية ، أهمها مدينة حران فى شمال العراق ومدينة الرها أو إديسا - Edssa فى شمال حران ، وقد وجد فى كل من هاتين المدينتين حركة علمية واسعة . ونشاط فكري يفوق أى نشاط سابق فى أرض الجزيرة العراقية . وأهم مظهر لهذا النشاط هو أن لغة الآراميين فى القرن الاول قبل الميلاد قد استطاعت أن تتغلب على لغات الشعوب الأخرى التى كانت تسكن غرب آسيا : فقد أصبحت لغة التخاطب فى العراق وسوريا وفلسطين ، وفيثيقيا ، وشبه جزيرة سيناء ، وكذلك صارت لغة الدواوين فى أرض النهرين ، ويدل على ذلك رسائل ووثائق وجدت مكتوبة باللغة الآرامية فى آسيا الصغرى ، وفى جزيرة القيلة فى مصر العليا . وكانت هذه الرسائل متبادلة بين الحكام فى هذه الجهات ، والحكام فى وادى دجلة والفرات .

ولما كانت طبيعة اللغة من طبيعة الشعب فإن ما فيها من ثروة وحيوية يدل على ما كان في الشعب الآرامى من نشاط في العقل وسعة في الأفق وخبرة بأدراك أفضل أدوات الأداء ، فاللغة كما يقولون مرآة لعقلية الناطقين بها وصورة من أصدق صور حضارتهم . ولعل سائلا يسأل عن سبب رقي لغة الآراميين وعن سر سيادتها على كل اللغات الأخرى التى دخلت معها في صراع كالبابلية — الآشورية ، والفنيقية والعبرانية ، ونحن نلخص الجواب عن ذلك فيما يأتى :

أولا — سهولتها في التعبير مع ثروتها اللفظية بما كفّل لها الإحاطة بما يدور في خلد الفكر الإنسانى ذلك العصر .

ثانيا — مرونتها بالنسبة لما يجد على الناطقين بها من بحث وفن وأدب ومن مظهر هذه المرونة أيضا ما كان يمس بعض القواعد ومثال ذلك أن صيغة المضارع بدأت تستعمل النون بعد أن كانت تستعمل الياء ، وكذلك ما حصل أيضا بالنسبة لأداة التعريف فقد أهملت في بعض اللهجات بعد أن كانت ضرورية ^(١) .

ثالثا — دقتها في الأداء والتزامها لنظام عام في تركيبها ، وبمعنى آخر التزامها لضوابط النحو والصرف ، ولسنا نقصد هنا بالنحو والصرف الناحية العلمية : أى تفعيد القواعد ودراستها ، وإنما نقصد النحو والصرف العملى أو الفنى ، أى طرق الأداء الطبيعية الفطرية ، إذ أن التفكير في وضع قواعد

(١) أنظر تاريخ الأدب السريانى للدكتورين : مراد كامل ومحمد حمدى البكرى ص ١١ ، وكتاب فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد ص

النحو السرياني لم يوجد إلا في حوالى القرن الخامس الميلادى^(١).

رابعا — ما كانت تمتاز به من استخدامها للحروف الأبجدية التى هى عبارة عن رسم للاصوات لا للمعاني ، وذلك جعلها لغة تدوين وكتابة أكثر من اللغة السامرية التى كانت تحتوى على رسوم لا تكاد تنتهى .

كل هذه الصفات قد كتبت للغة الآرامية الذبوع والانتشار من ناحية ، ودلت على مبلغ نشاط الآراميين واستعدادهم لتقبل كل المعارف الموجودة عند جيرانهم المتحضرين من ناحية أخرى . وقد ظهر أثر ذلك كله تحت حكم البابليين ، وحكم الفرس ، ثم تحت حكم العرب . ولم يؤثر عليهم فى بيئته العراق ، بصفة خاصة ، ما انتاب هذه البيئة من تنافس فى الحكم أو نزاع فى السياسة ، بل استمروا يمارسون ماعرفوه ويضيفون اليه ماينتجون ، وقد بقيت لديهم هذه الحركة العلمية فى نشاط مطرد حتى اعتنق الآراميون الدين المسيحى فى القرن الثانى بعد الميلاد وبدأت تتركز عندهم دراسات دينية واسعة وفلسفة آلهية عميقة .

بذلك قد أضافوا إلى ما كان معروفا عندهم من الطب أو الفلك ، والتنجيم ، والفلسفة الطبيعية ، شروحا وتأويلات على نصوص الكتاب المقدس ، وأبحاثا فلسفية فى أخطر النظريات الدينية ؛ ولعلمهم أول من فلسف الدين المسيحى ، فلم يقتنعوا بما ورثوه من معارف وأفكار ، ولم يقفوا عند حد التلقين والاقتماد ؛ بل أخذوا يفكرون فى أمر الدين ومسائله تفكيراً شخصياً يعتمد على النظرة الخاصة ثم على العمق والتحليل وسنرى بعد قليل كيف كانوا ينظرون إلى طبيعة المسيح نفسه ؛ وتلك كانت

(١) انظر — اللغة والنحو — مبحث النحو بمعناه العلمى ص ١٤٩ وما بعدها

جرأة لم تعهد عند من سبقهم من المسيحيين .

وكانت هذه الحركة العلمية بلا ريب أثرا لعوامل عدة ، منها ما ورثوه من حضارة قديمة في تلك البيئة التي استقروا فيها ، ومنها صلتهم المباشرة بالفرس وبما لديهم من نظم وأديان ومعارف وأفكار من ناحية ، وبالليونان وبما عندهم من أدب وعلم من ناحية أخرى ، مما جعلهم يتعلمون لغة اليونانيين ، ويدرسون علومهم وآدابهم وفلسفتهم ، ويهضمون حضارتهم ، وينقلون كثيرا من آثارهم العلمية والأدبية ، مما كان له أعظم الأثر في التعرف على آثار اليونانيين ، والانتفاع بمناهجهم العلمية وبأساليبهم في الفكر والدرس ، ومنها ما عرف عنهم منذ تكوينهم تكويناً اجتماعيا من اتجاههم إلى المعرفة ودرسها وتحصيلها أيا كان نوعها وفي أي بيئة وجدت ؛ وليس أدل على ذلك الاتجاه عندهم من انصرافهم عن الناحية السياسية وعدم تشبثهم بأقامة دولة مستقلة لها حدودها الجغرافية ، ولها إدارتها المنظمة وجيشها المدرب ومظامعها الواسعة ؛ ويبدو أن كل ذلك لم يدخل لهم في حساب ولم يكن له أثر في تاريخهم ؛ فقد رأيناهم يعيشون قانعين بالهدوء الاجتماعي تحت كنف الملوك والاباطرة من بابليين وآشوريين إلى فرس ويونانيين وروم ، وأما ما يختص بمملكة الرها وما كان لها من نفوذ جزئي وسلطان نسبي فإن هذه المملكة لم تنشأ إلا في العصور الأخيرة قبل ميلاد المسيح وبقيت حتى العصور الأولى بعد ميلاده ، وقد ذكر المؤرخون أن الذي أسس هذه المملكة الآرامية إنما هي أسر عربية قد وفدت إلى الآراميين في هذه البيئة واستطاعت أن تكون منهم وحدة وأن تنشئ لهم دولة فكان الآراميون يكونون الشعب ، والعرب فيهم يتوارثون الملك ؛ وقد استدل المؤرخون على ذلك بما عرفوه من أسماء أولئك الملوك ومنها :

معن ووائل وأبجر . وفيما عدا ذلك فلسنا نعرف للآراميين نشاطاً سياسياً ملحوظاً . وإنما على العكس من ذلك كان نشاطهم العلمى يغمر حياتهم ويفوق معاصريهم من الأمم المجاورة .

وإذا أردنا أن نلص صورة حية تتمثل فيها حياة الآراميين ودرجة نشاطهم فما علينا إلا أن ننظر إلى حياة اليهود وتاريخهم منذ أن أخضعتهم روما لسلطانها نهائياً حوالى سنة ١٣٥ بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور أدريان فقد تركوا الحياة السياسية من ذلك التاريخ وتفرقوا فى مختلف البلاد شرقاً وغرباً ، وأخذوا يذشطون علمياً وأدبياً واقتصادياً ، وكنا كلنا قرأنا حياة اليهود ونشاطهم فى ممتلكات الدولة الرومانية ، أو فى شمال أفريقيا وفى أسبانيا تحت حكم الدولة الإسلامية ؛ أو فى أوروبا أثناء العصور الوسطى أو فى ألمانيا وفى روسيا وفى إنجلترا وفى أمريكا أثناء العصور الحديثة ؛ نقول كلنا قرأنا تاريخ اليهود ونشاطهم فى تلك العصور وفى هذه البيئات رأينا تشابهاً عجيباً بين هذين الشعبين : الشعب الآرامى والشعب اليهودى .

هذه العوامل التى ذكرناها كانت بلا شك أسباب النهضة العلمية عند الآراميين بشكل عام ؛ وبفضل تلك النهضة قد سادت لغتهم على لغات الشعوب المجاورة ، وأصبحت لغة المراسلات الدولية كما كانت لغة الحديث والعلم والأدب .

ولم تكن لغة الآراميين فى بيئة العراق واحدة ؛ بل أنها كانت متعددة اللهجات ؛ إذ عرف لديهم لهجة المندعيين فى الجنوب وهذه اللهجة المندعية مشتقة من كلمة آرامية - م د ع ا - ومعناها المعرفة ، وأصحابها يسمون بالمندعيين وهم فريق من الآراميين كان يسكن منطقة نهر الأردن

ثم هاجر منها إلى العراق ؛ وهناك استقروا وخطوا في تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين واثنية الفرس ؛ واستمروا يمارسون هذا الخليط من التعاليم الدينية حتى جاء الاسلام فأضافوا من تعاليمه أيضاً إلى تعاليمهم القديمة ، ولعل أهم ما يجب معرفته بالنسبة لهذه اللهجة هو أنها اللهجة الآرامية الوحيدة التي حافظت على خصائص الآرامية القديمة ولم تتأثر بأى مؤثر خارجي كما حدث في غيرها من اللهجات الأخرى . واللهجة الحرامية نسبة إلى مدينة حران ؛ واللهجة السريانية وهي لهجة مدينة إديسا *Edessa* كما كان يسميها الفرنجة أو مدينة الرها أو أورفة كما كان يسميها العرب ، ومسمى هذه الأسماء يراد منه عاصمة الأقليم المحصور بين النهرين في الشمال ؛ وهذه اللهجة لم تعرف أول الأمر باللهجة السريانية وإنما كانت لهجة آرامية وقد استمر أصحابها من سكان تلك المنطقة يسمون بالآراميين ولغتهم باللغة الآرامية حتى اعتنقوا المسيحية فرأوا في الاحتفاظ بالتسمية القديمة مرادفاً لمعنى الوثنية وأرادوا تسمية أخرى ففضلوا التسمية التي كان يطلقها اليونانيون عليهم وهي « السريان » وتبعاً لذلك فقد سموا لغتهم أيضاً بالسريانية . وقد تمكنت اللهجة الأخيرة من التغلب على كل اللهجات الأخرى حتى أصبحت لغة الترجمة والتدوين ، ولم يقف أمر انتشار هذه اللهجة على شمال وادي الرافدين بل تعدى ذلك إلى الجنوب والشرق فانتقلت مع المبشرين المسيحيين منهم إلى بلاد فارس ثم إلى بلاد التركستان والهند حتى بلاد الصين ، وقد بلغ من نهضة هذه اللهجة أنها أصبحت لغة الدراسة في الطب وفي العلوم الطبيعية في مدارس الفرس تحت حكم الساسانيين وكان ذلك على الخصوص في مدرسة جنديسابور . وذلك بفضل ما كان في مدينة إديسا من نشاط علمي وديني وأدبي وأثر ذلك يظهر واضحاً في الانقسام الديني بين رجال الكنيسة في

هذه المدينة من جراء أبحاثهم العميقة في فهم طبيعة المسيح . ولقد لعبت الكنيسة المسيحية عند السريان دورا هاما لا يقل عن الدور الذي كانت تقوم به الجامعات في العالم القديم أو المدارس الدينية في العصور الحديثة . ولقد كان ذلك الانقسام في القرن الخامس بعد الميلاد حين وجد الخلاف بين العالمين الدينيين : نسطوريوس ، ويعقوب بارادرس . رأى الأول منهما الوحدة الإلهية في طبيعة المسيح ، بينما كان الثاني يقرر ازدواج طبيعة المسيح . أي أنها مزيج من الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية ، وقد امتد أثر هذا الخلاف بين العالمين حتى شمل كل رجال الكنيسة فانقسموا إلى فريقين كل فريق يؤيد مذهبا من المذهبين وينسب إلى صاحبه . أما اليعاقبة فقد انحازوا إلى اخوانهم في الغرب حيث ساد مذهبهم ، وأما النساطرة فقد كانوا شرقيين تحت حكم الفرس وعملوا على نشر مذهبهم في كل أرض النهرين . بل لقد تجاوزوا ذلك إلى الشرق ولم يألوا جهدا في إرسال المبشرين منهم إلى مختلف البلاد يدعون إلى هذا المذهب ويقيمون الدليل على صحته وينقضون مآعاده .

ولم تتأثر نهضة السريان العلمية بما كان يتوالى على مدنهم من أحداث سياسية خطيرة كغزو الفرس ، ثم ما تلا ذلك من غزو اليونان وبقاء البلاد تحت حكمهم ما يقرب من قرنين ونصف قرن ، ثم ما أعقب ذلك أخيرا من غزو الروم . بل إنهم على العكس من ذلك كانوا كثيرا ما يستغلون هذه الفرص فيأخذون من معارف هؤلاء الغزاة وعلومهم ما يدعم حضارتهم ويرقى بمعرفتهم وينمي ثروتهم العلمية . ولعل صلتهم المتوالية بأمم مشتقة متحضرة تعتبر مسؤولة إلى حد ما بالنسبة إلى عدم أصالتهم ، فكان همهم جمع معارف تلك الأمم وتسجيل علومهم أو نقلها إلى لغتهم ، ولم يكن

لهم في ميدان الابتكار أو الابتداع شيء يذكر . ولقد حاول بعض الباحثين أن ينسب إليهم أصالة في الفلك وفي غيره من العلوم الطبيعية ، وضرب لفشاطهم في هذا أمثلة منها كتاب قوانين البلدان لابن ديسان وغيره من الكتب التي يظن أنها كانت موجودة وفقدت بعد انتشار المسيحية ، ولكن ذلك أيضا لا يعدو أن يكون نوعا من المحاكاة والتقليد لمعارف البيئات التي نشئوا فيها والحضارات التي درسوها وتبنوها . ولقد أوضح التاريخ أنه من الصعب أن ننتظر أصالة وابتداعا في ميادين العلم والأدب من شعب يعيش سياسيا على حساب غيره وليست له وحدته القومية ولا كيانه السياسي وهل كان الآراميون غير ذلك ؟.

وليس غريبا إذن أن نعرف أن السريان قد درسوا ثقافة الفرس وتعلموا لغتهم ، ودرسوا ثقافة اليونان وأجادوا لغتهم ، ودرسوا ثقافة الروم وعرفوا لغتهم ، ثم انهم قد ترجموا كثيرا من علوم هؤلاء الشعوب وآدابهم . ولم يعرف لغيرهم في الشرق مثل هذا النشاط ، فكانوا في الواقع حلقة اتصال لا بد منها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب ، كما كانوا فيما بعد حلقة اتصال لا بد منها بين الثقافات القديمة والثقافة العربية الإسلامية .

ومع ذلك فنحن لانزال نجهل تماما مدى هذا النشاط العلمي بالدقة ، ومبلغ ما أنتجوه من آثار أدبية وفنية في القرون الأولى التي سبقت انتشار الديانة المسيحية ، إذ أنه لم يصل إلينا من تلك الفترة الطويلة إلا أثر واحد هو عبارة عن خطاب كتبه « مارا بن سارايون . أما ما عثر عليه من كتابات على القبور ، ومن سجلات في تاريخ الملوك والمدن فهو بسيط وقليل الأهمية بالنسبة لما نحن بصددده ، وهو الحديث عن الحضارة السريانية وكيف استطاعت أن تصبغ حضارات وادي الرافدين بلون جديد . وأما خطاب

خطاب مارا بن سراييون فإنه على العكس من ذلك يستحق منا أن نقف عنده
وقفة قصيرة نبين فيها موضوعه وهدفه وما يمكن أن يستخلص منه بالنسبة
لأدب الآراميين الديني ولمبلغ درايتهم بالثقافة اليونانية :

وقد نشر هذا الخطاب الأستاذ - كيوريتون - المستشرق الإنجليزي ،
وحاول أن يحدد تاريخ تأليفه أو كتابته ولكنه لم يجد من الأدلة المقنعة
ما يكفي لتحديد سنة كتابته بالضبط فليجأ إلى ما في الخطاب من أحداث
سياسية وذهب إلى أن هذا الخطاب يحتمل أن يكون تأليفه فيما بين نهاية
القرن الأول الميلادي ونهاية القرن الثاني الميلادي ، وهذه فترة طويلة كما
نرى ولكن ليس هناك من سبيل آخر . وقد قام بترجمة هذا الخطاب
الأستاذان مراد كامل ومحمد حمدي البكري في كتابهما - تاريخ الأدب
السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي ، فليس يعنينا إذن نقل الترجمة وعلى
من يريد ها فليرجع إليها ^(١) . أما موضوع الخطاب فهي جملة نصائح يسجلها
مارا بن سراييون وهو سجين الروم ليمعث بها إلى ولده سراييون وهو
يتلقى العلم على أحد الأساتذة وقد كانت هذه الرسالة ردا على خطاب كتبه
هذا الأستاذ إلى والد التلميذ السجين يخبره فيه عن مجهود ابنه وحسن تقبله
للعلم وقوة استعدادة للاستفادة .

وأما هدفه فهو كما يبدو لنا يمكن أن يختصر في نقطتين : الأولى : هي
رسم منهج واضح للتلميذ الشاب حتى ينشأ مشبعاً بالمبادئ الدينية والخلق
الفاضل والمعاني السامية الروحية ولو كان ذلك على حساب المادة بأوسع
معانيها . الثانية : أن يثبت حزنه وينفّس عن روحه ويعلن شكواه مما وجده

(١) أنظر هذا المرجع ص ٢٦ إلى ٣٢ .

وينجده في الأسر ، وما قاساه ويقاسيه وطنه المغلوب على أمره ، والواقع
تحت ظلم الحكام من الرومانيين . وفي هذه النقطة بالذات نجد الكاتب يسمو
بروحه طورا حتى يصل بها إلى عالم كبار الفلاسفة الذين لا تشغلهم الدنيا
ولا يفزعهم الموت وإنما يبتظرونه راضين ويتقبّلونه مسرورين وينظرون
إليه نظرهم إلى المنقذ من حياة ملؤها الحزن والهم والشقاء ، والموصل إلى
حياة كلها سعادة وحب وهناء كما كان سقراط وزينون ، ونجده طورا آخر
يهبط بروحه إلى عالم الأرض فيذكر أحداثه وهمومه وآلامه ، ثم يندفع
وراء تلك الذكريات المادية المحدودة حتى يستشعر حنيننا يشبه حنين الأطفال
إلى الوطن الخاص في أبسط معانيه وأضيق حدوده ، وشوقا يشبه شوق
البسطاء من الناس إلى الأهل والأقارب والأصدقاء فتشتد همومه كما يقول
وتظلم الدنيا في عينيه ويزداد بكاءه .. وأما ما يمكن استخلاصه من هذا
الخطاب بالنسبة لأدب الآراميين الديني فهو ما نحسه من تلك النزعة الصوفية
وذلك الزهد المشوبان بشيء من الحرص مهما قل شأنه ، وما نجده من
تلك النعمة الدينية المسيحية الخزينة الصوفية ، ثم مانره من طغيان العاطفة
وتملكها لزمام العقل ، وهناك أمر آخر يمكن استخلاصه من هذا الخطاب
ربما كان أهم من ذلك كله ذلك هو مانراه من طابع اليونانيين وأثر الثقافة
اليونانية ، فقد اتخذ الكاتب من أبطال اليونانيين وحكامهم وفلاسفتهم وعلمائهم
أمثلة يضربها لشرح دعاواه ، وبيان حججه ، والبرهنة على نتائجه ، مما يدل
على أن الثقافة اليونانية كانت ذائعة منتشرة عند الآراميين في ذلك الزمن
وأن إنتاج اليونانيين العلمي والأدبي والفلسفي كان مدركا مفهوما ، وها هي
ذى بعض فقرات من الخطاب تكشف لنا عن تلك الحقيقة : « قال لنا
حكيم الناس : على أي المقننيات يعتمد الإنسان ، أو عن أي الأشياء يتحدث

على أنها هي الأكثر تحملا ؟ على كثرة الثروة ؟ فإنها عرضة للنهب . أو
على الحصون ؟ فإنها مستباحة . أو على المدن ؟ فإنها عرضة للتخريب . أو
على العظمة ؟ فإنها عرضة للأذلال . أو على الكبرياء ؟ فإنها محطمة . أو
على الجمال ؟ فإنه ذابل . أو على القوانين ؟ فإنها زائلة أو على الفقر ؟
فانه محتقر . أو على البنين ؟ فانهم يموتون . أو على الاصدقاء ؟ فانهم
كاذبون . أو على الشرف ؟ فان الضغينة تسبقه . ومن هنا فليفرح بملكه
رجل كدارا ^(١) . . . وبشجاعته رجل كأخيل ^(٢) ، وبأمراته رجل كأجامنون ^(٣)

^(١) يعتبر دارا الملك الرابع من ملوك دولة الأخمينيين في بلاد الفرس ، ونرجح
أن الكاتب يريد به دارا الأول فقد كان أعظم الثلاثة شأنا وأعلاهم ذكرا (دارا
الأول ، ودارا الثاني ، ودارا الثالث) . وقد حكم دارا الأول من سنة ٥٢١ الى سنة
٤٨٥ ق.م. وقد بلغ الرخاء في الدولة الفارسية أيامه الى الذروة ، فقد نجح في ضم
المدن الأغريقية الغنية في الساحل الآسيوي إلى مملكاته .

^(٢) أخيل هو اسم لأعظم بطل يوناني من أبطال الألياذة ، وقد بقي بين
اليونانيين رمزا للقوة والشجاعة والجرأة ، والأساطير اليونانية تصوره ملكا من
ملوك اليونانيين وقائدا للحملة اليونانية ضد الآسيويين في حروب طروادة ، فقد
جاء على رأس الجيش وحاصر مدينة طرواده وقتل هيكتور بن ملك المدينة ولكنه
أصيب بسهم مسموم في قدمه فقتل عليه . والمهم أن اسم أخيل في هذا النص يوحي
بكل ما جاء في ملحمة الألياذة من حروب وانتصارات ومخاطر وحوادث ، إذ أن
أغلب الملحمة تدور حوله وتقتفى آثاره .

^(٣) أجاممنون ، هو أحد أبطال الألياذة أيضا ، ولعله أكثرهم شهرة بعد أخيل ،
وتحدث عنه الأساطير اليونانية كملك من ملوك اليونانيين ، وتجعله رمزا للبطولة
ومثلا أعلى للتضحية في سبيل الوطنية واحراز النصر ، فتروى الأساطير أنه بعد أن
أعد حملته للذهاب إلى طرواده في آسيا اشتدت الريح وهبت العواصف فمضت مراكب
اليونانيين من الإقلاع وبعد صبر نافذ أشير على أجاممنون بأنه يستطيع أن =

أو بنسله رجل كيريانوس^(١)، أو بمهارته رجل كأرخميدس^(٢).

== يسترضى إله الرياح لكي يهديء من العواصف وذلك بأن يضحى بابنته —
ايفيجيني — *iphigénie* —، فقبل أجاممنون وضحي بابنته في سبيل الوصول إلى
آسيا لمحاربة الأعداء وكسب النصر. ثم تصوره الأساطير أخيرا بصورة الضحية
للخيانة والغدر فأن امرأته قد تأمرت عليه مع عشيقها وقتلته.

(١) أن النص في الترجمة لهذا الخطاب هو — پريانوس — ولقد حاولنا عبثا
وأجهدنا النفس طويلا في البحث عن هذه الشخصية في مظان وجودها من المعاجم
اللغوية وكتب الأدب والتاريخ ولكن ذلك كله لم يهدنا الى شيء، وأخيرا،
رجحنا أن تكون هناك شبهة على المترجم أو على الناقل في الترجمة أو النقل وأن
الاسم هو — پرياموس — بدل — پريانوس — والتحريف بين الاسمين سهل
لقوة الشبه بينهما، لاسيما أن المثل الذي قصد اليه مؤلف الخطاب ينطبق تماما على
پرياموس. وإذن فهو إسم لشخصية أسطورية أيضا تقول عنه الأساطير بأنه كان
آخر ملك لمدينة طروادة وفي عهده جاء اليونانيون لمحاربته بسبب صنيع ابنه - باريس -
إذ أنه اختطف زوجة ملك يوناني اسمه - مينيلاس - *Ménélas* - وجاء بها إلى
بلده في آسيا وكان ذلك، في نظر الأساطير القديمة، السبب المباشر في حروب طرواده
وعلى ذلك وضع هوميروس ملحمة المعروفة بالإلياذة. ثم تستمر الأساطير في
تصوير الحروب بين اليونانيين وأهل طرواده فتتوالى الحروب وتتعاقب الأحداث
حتى تسقط المدينة ويتم النصر لليونانيين وبعد ذلك يكون نصيب - پرياموس - القتل
بيد - پيرهوس - *Pyrhus*، وهو ابن أخيل، وتنتهي تلك الأحداث بزواج
پيرهوس من اندرومالك، أرملة هيكتور بن پرياموس. ولم تكن شهرة - پرياموس -
آتية من ملكه ومن أحداث طرواده فقط، وإنما جاءت من أنه أنجب أبطالا مهرة
أمثال: هيكتور، وباريس، وكاساندر... الخ. وهذا ما يشير إليه كاتب الخطاب،
مارا بن سراييون.

(٢) يعد أرخميدس أو أرشميدس من أكبر علماء العالم القديم أن لم يكن أكبرهم
على الإطلاق، وقد ملأت شهرته ذلك العالم لا مكانته في العلم فقط، ولا لمنزلته ==

= بالنسبة للاختراعات العلمية فقط ، ولكن لوطينته أيضا ، إذ أنه وضع علمه ،
 وشخصه ، واختراعه ، بل وحياته في خدمة وطنه . ولد في مدينة سيراكوز ، من
 أكبر المدن في جزيرة صقلية قديما ، في سنة ٢٨٧ ، وقتل سنة ٢١٢ ق.م. وقد هداه
 علمه وبحشه إلى اختراع الكثير من الأشياء النافعة ، ولعل أهمها : أولا : آلة لنقل أثر
 النار وحرارتها دون لمس اللهب . ثانيا : آلة لرفع المياه إلى الأماكن المرتفعة شبيهة
 ببعض الآلات المستعملة عند الزراعة في قرى مصر الآن . ثالثا : آلة لرفع الأثقال
 بأقل مجهود يبذلها الإنسان . رابعا : اكتشافه لقانون ثقل الأجسام في الماء
 ويعزون السبب في ذلك إلى الفصاة الآتية . أمر هيرون *Hiéron* ، ملك سيراكوز
 صائغا بأن يصنع له تاجا من الذهب الخالص ، فصنع الصائغ ما اراده الملك ، ولكن
 قيل له بأن الصائغ قد أضاف جزءا من الفضة واحتفظ بما يقابله من الذهب فغاض
 ذلك الملك وأراد أن يتبين حقيقة الأمر قبل أن يعاقب الصائغ فطلب من العالم
 أرخميدس أن يكتشف له هذه الخيانة بوسائله العلمية دون أن يمس التاج بأذى . فكر
 أرخميدس في هذه المسألة طويلا فلم يهتد إلى حل . وأخيرا في أحد الأيام دخل الحمام
 وبينما هو يستحم لاحظ أن أعضاء جسمه يقل ثقلها داخل الماء فيستطيع تحريكها
 بسهولة أكثر من تحريكها إياها خارجة ، ولما فكر في ذلك وجد أن هذه الظاهرة
 لا بد وأن تلقى الضوء على قانون علمي يستطيع المرء بواسطته أن يعرف ثقل الأجسام
 بالنسبة لما تشغله من حيز في الماء ، وبالتالي يستطيع هو أن يكتشف ما يمكن أن يكون
 قد أضيف إلى تاج الملك من فضة ، وحينئذ استهوته تلك الظاهرة ، وقدر نتائجها
 البعيدة ، فأخذته نشوة الفرح فخرج من الحمام جاريا في شارع المدينة وهو ينادي
 بصوت مرتفع *Eurêka ! Eurêka !* أي « وجدتتها ! وجدتتها » وهما نحن أولاء
 في القرن العشرين بعد الميلاد ولا نزال نستخدم قانونه العلمي المعروف بقانون
 أرشميدس : « كل جسم مغمور في سائل يفقد جزءا من وزنه معادلا لوزن كمية السائل
 التي حل الجسم محام » .

وقد استطاع هذا العالم أن يمنع الرومانيين من الاستيلاء على مدينته بالرغم من
 كثرة عددهم وعددهم ، فكث جنود روما وعلى رأسه القائد المشهور مارسييلوس
 ثلاث سنوات يحاول الهجوم على المدينة والوصول دون جدوى ، وذلك بواسطة =

= اختراعه للبرآة التي اذا سلطت على المراكب أحرقتها وهي في عرض البحر قبل أن تصل إلى الشاطئ . إذ أنها تستطيع أن تجمع أضواء الشمس ثم تركزها في نقطة محدودة يكون من نتائجها خلق كمية عظيمة من الحرارة تكفي لاشعال النار كنظام العدسات الحارقة الآن .

وأخيرا تغلب الرومانيون وتمكنوا من الاستيلاء على المدينة وأعملوا فيها القتل والنهب والتخريب . ويروى أن القائد الروماني أمر جنده بالمحافظة على حياة العالم أرخميدس - وعدم مساسه بأى أذى أن هم عثروا عليه . ولكن قيل أن أحد الجنود الرومانيين ، وهم يعيشون في المدينة فسادا ، وجد العالم مستغرقا في البحث وفي التفكير لا يدري أن المدينة سقطت وأن العدو قد احتلها ، وحاول الجندي أن يعرف شخصيته وماذا يصنع فلم يلتفت إليه - أرخميدس - فغاض ذلك الجندي فقتله .

(١) يعتبر سقراط من أصحاب المذاهب الفلسفية القديمة ، وهو من أشهر فلاسفة اليونانيين الذين جاؤا بعد الحركة السوفسطائية ، وفلسفته ليست إلا رد فعل لتلك الحركة التي أنكرت وجود الحقائق المجردة . جاهد سقراط في توجيه الفلسفة إلى دراسة الإنسان نفسه بعد أن كانت تدرس المسائل الطبيعية ، وما هو وراء الطبيعة ، وما يستلزمه البيان وزخرف القول .

نشأ سقراط في أسرة متواضعة ، فكان والده نحاتا ، وكان مولده حوالي سنة ٤٦٨ ق. م. وقد امتاز سقراط بطريقته في التعليم . فكان يختلط بالناس من أى وسط وفي أى بيئة ، ويتحدث معهم في أى موضوع تمليه الظروف ، فطورا يسأل وطورا يناقش وطورا يسخر . وتعتبر الفلسفة الأخلاقية مدينة لسقراط إلى حد بعيد . ولم يكتب سقراط في الفلسفة أى كتاب ، وإنما نشر أفكارا ، وترك مبادئ . ولما اشتدت معارضته للمبادئ الفلسفية التي كان الناس قد ألفوها من قبل أثار حول نفسه موجة من السخط عليه والغضب منه فاتهمه فريق بالألحاد والدعوة ضد الدين وما هو مقدس عند المعاصرين ، وسيق إلى القضاء فحكم عليه بشرب كأس السم فقبل هذا الحكم راضيا وشرب السم مطمئنا ، وكان ذلك في سنة ٤٠٠ أو ٣٩٩ ق. م.

أو بعلمه رجل كفيثاغورس ^(١)، فحياة الناس يابني زائلة عن العالم ، أما
مجدهم وفضائلهم فباقية إلى الأبد .

وإذا كنا لم نجد من آثار الآراميين الأدبية ، سواء كان ذلك في عهد
الوثنية أم في أوائل المسيحية ، سوى هذا الخطاب فأن هذا الأثر وحده
واضح الدلالة على دراية الآراميين وسعة اطلاعهم وتهذيب نفوسهم .

غير أن عدم العثورنا حتى الآن على ما أنتجوه أيام الوثنية لا ينبغي أن
يحول بيننا وبين تصور هذه النهضة العلمية العظيمة التي أوجدها الآراميون في

وقد روى أنه بعد أن حكم عليه بشرب السم مكث في السجن ثلاثين يوما ينتظر
تنفيذ القضاء وكان أمامه سبيل الهرب ممهدا ميسورا ، ولكنه أبى أن يقدم على ذلك
حتى لا يضرب لتلاميذه هذا المثل السيئ ، وهكذا كان سقراط في حياته وفي فلسفته وفي
موته مثلاً أعلى ، فقد قال عنه رجال الكنيسة المسيحية : إنه الطليعة والمهد لمحجى
المسيح ، ورأى فيه جان جاك روسو مثلاً للمسيح فقارنه به طورا وعارضه به طورا
آخر .

^(١) نشأ فيثاغورس حوالى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وقد اشتغل
بالفلسفة والرياضة حتى نبغ فيهما نبوغا عظيما فأسس في ميدان الفلسفة نوعا من الأخلاق
جعل منهجاً للحياة ، وأسس في ميدان الرياضة طريقة في الميتافيزيقا ووضع نظرية في
الموسيقا ، وكان يرى أن مبدأ الوجود في الأشياء ينحصر في العدد ، ثم في التوافق
والانسجام بين الأجزاء . ويروى أنه كان من دعاة تحريم أكل لحوم الحيوانات
والاكتفاء بما تنبته الأرض ، وقد نظم فيه بالنسبة لهذا المبدأ الشاعر اللاتيني أوفيد
قصيدة طويلة ممتعة ، وكان من مبادئه الأخلاقية المساواة المطلقة بين أفراد المجموعة
الواحدة ، وقيل أنه كان ينفذ هذا المبدأ في مدرسته مع التلاميذ ، فكان يأخذ كل
ما يحمله التلاميذ من مال وغيره وهم من طبقات الشعب المختلفة ، فيضع كل ذلك في
صندوق خاص ثم يوزع محتوياته على التلاميذ جميعا بالتساوى لافرق بين أرسقراطي
وشعبي . ولا بين غنى وفقير .

وإذا كان لنا أن نستأنس بشيء للدلالة على عظمة هذه النهضة فحسبنا أن نعلم أن الآراميين وهم الخاضعون سياسيا لسلطان غيرهم قد استطاعوا أن يفرضوا لغتهم على كثير من الشعوب في مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٠٠.٠٠٠ من الكيلومترات المربعة : أرض النهرين ، سوريا ، فينيقيا ، فلسطين ، تدمر ، النبط ، وشبه جزيرة سيناء . وهذا عدا انتشارها في بيئات أخرى بجانب اللغات الأصلية لتلك البيئات ، وذلك كمصر ، وآسيا الصغرى وبلاد الفرس ، وأجزاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وليس ذلك بمستغرب مع ما عرف من سهولة لغة الآراميين ، وحيويتها ، وروتها العلمية والأدبية مما كان له أثر كبير في أن تصبح لغة رسمية بين الدول وفي مخاطبات الملوك كما حدث ذلك بين الفرس والمصريين . ولقد كان انتشار اللغة الآرامية وذيوعها في اقطار واسعة عاملا هاما من عوامل انتشار المسيحية وبث تعاليمها وتثبيت دعائمها في فترة محدودة من الزمن ، إذ لم تكن هناك حاجة لرسول المسيحية ودعاتها لأن يتعلموا لغة الشعوب الذين ينتقلون اليها وينشرون دعوتهم فيها . أما بعد أن اعتنق الآراميون الدين المسيحي فقد وجهوا كثيرا من اهتمامهم وعنايتهم الى الدراسات الدينية ، مستخدمين في ذلك ما كانوا يعرفونه من علم وفلسفة وأدب ، غير أن ذلك لم يصرفهم عن الاشتغال بالمعارف الأخرى فاستمروا ، كما كانوا من قبل ، يمارسون الترجمة اليونانية واللاتينية ، والفارسية ، ويؤلفون في الطبيعة والرياضة والفلك والطب ، والتاريخ ، وتقويم البلدان . واعتنق الآراميين للمسيحية جعل آفاقا عديدة واسعة تنفتح أمام نشاطهم فاستغلوا تلك الآفاق وأخذوا منها ميدانا أوسع للدربة والدراية واكتساب المعرفة ، فذهبوا بأنفسهم إلى بلاد

الفرس وإلى جنوب وادى دجلة والفرات ، وإلى شبه الجزيرة العربية واتصلوا
بأهل هند ثم انتقلوا إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان ورومه ، وشمال افريقيا ؛
ولم يكونوا فى كل تلك الأسفار مجرد حملة لرسالة دينية أو مجرد دعاة للنشر
الدين المسيحى وإنما كانوا فى نفس الوقت يمتزجون بالشعب ، ويتصلون
بالطبقات المثقفة فيأخذون ويعطون ثم يتأثرون ويؤثرون ، وفى الحق أن
نهضة المسيحية تعتبر مدينة للآراميين إلى حد بعيد ، كما أن الثقافة الآرامية
التي عرفت فيما بعد بالثقافة السريانية ، تعتبر مدينة للمسيحية كذلك إلى حد
بعيد . وينبغى ألا نفوتنا الإشارة هنا إلى أن اعتناق الآراميين للدين
المسيحى وظهورهم فى ميدان نشر الدعوة الجديدة قد قضى على نشاط اليهود
فى نشر دينهم قضاء يكاد يكون تاما ، وأخذوا يستقلون بمهمة التبشير شيئا
فشيئا حتى كادوا يحتكرونها لأنفسهم تماما ، فبينما نجد دعاة المسيحية الأول
من اليهود أو من أصل يهودى ، إذ بنا نخدمهم فى خلال القرن الثانى والثالث
والرابع من الآراميين أو من السريان ؛ وبدننا نسمع أن الدعوة للدين
اليهودى كانت لاتزال تجد لها حتى القرن الأول الميلادى أعوانا ومؤيدين
سواء فى شبه الجزيرة العربية ، شمالها وجنوبها ، أم فى وادى الرافدين ،
شماله وجنوبه ، إذا بنا نجد تلك الدعوة تكاد تتوقف تماما فى خلال القرن
الثانى بعد الميلاد .

وليس من موضوعنا هنا أن نفيض فى الحديث عن النزاع بين اليهودية
والمسيحية بعد اعتناق الآراميين لدعوة المسيح ، ولا لما كان يصنعه اليهود فى
شبه الجزيرة العربية وفى وادى دجلة والفرات لنشر دعوتهم وللتبشير بدينهم
فكلنا يعرف ما كان لليهود من نشاط فى هذا الميدان فى منطقة تبوك ثم فى
بلاد اليمن ، وها هى ذى كتب السير والتاريخ بل والنصوص القرآنية تلقى

الضوء على كل ذلك ، فصلة الرسول باليهود وعهوده معهم بعد هجرته من مكة تحت ضغط القرشيين ليس إلا امتدادا وأثرا لذلك النشاط اليهودي في شمال شبه الجزيرة العربية ، وكذلك قصة أصحاب الأخدود في القرآن ليست إلا أثرا وامتدادا لنشاط اليهود الديني في بلاد اليمن . يحدثنا التاريخ أن نصارى بخران قد أريدوا على اليهودية فامتنعوا وكان الأمر يومئذ في يد زرة فكبر عليه ذلك وأمر بصنع أخدود ملاء نارا ثم قذف بهؤلاء النصارى في ذلك الأخدود فاقحموها مفضلين النار على الارتداد عما ارتضوه لأنفسهم ديناً .

وأما نشاط اليهود في وادي دجلة والفرات فيتمين من تلك القصة (١) : هناك في شرق الدجلة وفي تلك المساحات المترامية التي كانت تعرف بمملكة آشور كانت توجد منطقة تسمى — حَـزَـيْب — وعاصمتها مدينة — أربل — وكان الدين المنتشر في تلك المنطقة هو الدين الوثني، وفي عهد الملك مونوباز الذي كان يحكم على تلك المنطقة ويقيم في مدينة أربل حدث نفور بينه وبين ولده — يَزْدُ — . ولما خشي نتيجة ذلك النفور أقصى ابنه بعيدا عن ملكه وتركه عند صديق له يسمى — عبد نرَجَلْ — الذي كان يملك على المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين والمشملة على الأراضي الواقعة حول مصب الدجلة والتي نشأت عليها فيما بعد مدينة البصرة . وينتهي أمر — يزد — بزواجه من ابنة الملك الذي آواه واسمها — سومكا — وباعتناقه للديانة اليهودية على يد تاجر يهودي اسمه — حنانيا — . وتمضى الأيام ويتقدم

(١) هذه القصة يذكرها بالتفصيل المؤرخ يوسفوس في الباب العشرين من كتاب « الآثار » ، ويذكر مختصرا عنها كتاب — تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي — تأليف دكتور مراد كامل ودكتور محمد حمدي البكري ص ٤٣-٤٤

العمر بالملك - مونوباز - فيطلب عودة أبنه الى ملكه ، ويعود - يزد - مع التاجر اليهودي - حنانيا - الذي كان يعمل داعية لليهودية كما كان يعمل في التجارة . ولشد ما كانت دهشة - يزد - حينما وجد والدته ، الملكة - هيلانه - قد نبذت الوثنية واعتنقت اليهودية بدورها على يد داعية يهودي أيضا . وفي سنة ٣٦ م يموت الملك - مونوباز - ويخلفه على العرش ابنه - يزد - . ومن ذلك الحين تنتشر اليهودية في مملكة - حذيب - فالتاس على دين ملوكهم ، بل وتصبح اليهودية دين الدولة الرسمي . غير أن هذا النشاط الديني من جانب اليهود لم يستطع أن يقاوم تيار المسيحية في تلك المناطق الممتدة من أعلى وادي الرافدين حتى شبه الجزيرة العربية من يوم أن اعتنقها الآراميون وتحملوا عبء نشرها والدعاية لها . وما دمنّا نتكلم عن الآراميين واعتناقهم للمسيحية ونشاطهم في الدعوة لها فلسنا نود أن نترك هذا الحديث دون أن نوضح نقطتين هامتين وأساسيتين معا ، ربما كان في توضيحهما ما يكشف بعض الغموض عن حقيقة الدين المسيحي من ناحية ، وما يميّط اللثام عن أثر الآراميين العلمي والفكري في هذا الدين ، وبالتالي عن أثر الفلسفة اليونانية في تلك العقيدة المسيحية من ناحية أخرى .

وهاتان النقطتان هما أولا - كيف نشأ الدين المسيحي وعلى أي أساس قام ؟

ثانيا - إلى أي حد يعتبر الدين المسيحي مدينا للسريان من ناحية وللفلسفة اليونانية من ناحية أخرى ؟

أما عن النقطة الأولى فنقول : ليس فينا من يجمل أن الدعوة المسيحية لم تكن في أول أمرها سوى ثورة على بعض تعاليم الديانة اليهودية التي بدأت تعني بالأمور المادية وتنصرف عن المعاني الروحية ، فقام المسيح ليضع

سدا أمام هذا الطوفان المادى وليبين للناس أن هناك سعادة أسمى وأفضل وأخلد من سعادة المادة ، تلك هى سعادة الروح ، وإذن فكان همه الأول ومجهوده الأساسى موجهها إلى الروح ، ومعنىها تهذيبها وأصلاحها ودعوة هذا شأنها لا بد وأن تؤسس وتقوم على البساطة واليسر والسهولة ، وهكذا كان الشأن فى دعوة عيسى ، ومن يتبع تعاليمه ومواظبه ونصائحه يجد مصداق ذلك ، بل وأسلوبه فى ألقاء تلك التعاليم كان مشبعا بتلك المبادئ ، فكان يعتمد على ضرب الأمثلة البسيطة المحسوسة لكي يستنتج منها عظمته ويبنى عليها مبادئه وتعاليمه ، بل إنه كان يذهب فى ذلك إلى درجة لم تكن تستيعها العقلية اليهودية إذ ذاك . ولعل مثلا واحدا من مبادئ المسيح نعتد عليه هنا يكفي لتوضيح ما نحن بسبيله من بيان حقيقة الدعوة المسيحية والبرهنة على أن تلك الدعوة ليست إلا رد فعل لتعاليم اليهود وشرائعهم ، ذلك المثل هو المبدأ المعروف فى شريعة عيسى القائل من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . هذا مع ما هو معروف من مبادئ الشريعة اليهودية القائل : « النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن » . أليس مبدأ عيسى رد فعل مباشر لمبادئ الشريعة اليهودية ؟ وأليس هو نفسه يعتبر مثلا أعلى فى تربية الروح وتهذيبها والبعد بها عن كل ما هو مادى ؟ على أمثال هذا المبدأ قامت شريعة عيسى ونهض صاحبها نفسه يدعو ويعلم ويحذر ويبشر . وعلى هذا الأساس كانت دعوة المسيح فى أول عهدها أبعد ما تكون عن النظريات اللاهوتية المعقدة ، والأفكار التحليلية المبهمة ، والمبادئ الفلسفية الغامضة ، والتعاليم الجامعية أو المدرسية التى تقوم على البحث العميق والجدل الغنيف والمناظرة الحادة الصاخبة ، استمرت دعوة عيسى مصبوغة بهذا الطابع من اليسر والسهولة والبساطة حتى نهاية حياته ، ثم قام من بعده الحواريون والانصار وتلاميذهم من خلفهم يحرسون على

تعاليمه ويترسمون طريقته مبتعدين في الجملة عن المناقشات الكلامية والجدل
الفلسفي اللهم فيما يختص بالبرهنة على صحة هذه الدعوى وإبطال غيرها من
الديانات الوثنية حتى وصلت هذه الدعوة إلى المراكز الآرامية في الأجزاء
الشمالية من وادي دجلة والفرات ؛ وكان ذلك على أرجح الأقوال في خلال
القرن الثاني الميلادي .

وأما عن النقطة الثانية فنقول : منذ وصلت دعوة المسيح إلى بيئات
الآراميين وتركزت في أقاليمهم الشمالية من وادي الرافدين وخصوصاً أقليم
حذيب وأقليم الرها بدأ هؤلاء الآراميون يتفهمون أسس هذه الدعوة
ويدرسونها على ضوء عقليتهم ومعارفهم الواسعة ، وهم كما قدمنا يمتازون
عن جيرانهم بثقافتهم العميقة ومعرفتهم التامة بالفلسفة اليونانية . أنشأ
الآراميون في أقاليمهم البيع والكنائس لاقامة شعائر الدين الجديد ثم فوق
ماكانوا يقومون به من عبء نشر هذه الدعوة والتبشير بها أنشئوا كذلك
المعاهد لدراسة هذا الدين المسيحي ؛ وهذا هو الذي يعيننا بالذات . وهنا
نجد الآراميين يضعون في خدمة هذه الدراسة كل ماأدركوا من معارف
وعرفوا من فلسفة ، فأخذت البساطة في الدين المسيحي تختفي شيئاً فشيئاً
وتحل محلها دراسة فلسفية معقدة عميقة تحاول أن تخضع كل شيء للعقل وأن
تطبق مقاييس المنطق على ما جاءت به هذه الدعوة من مبادئ وتعاليم . ولم
تقتصر دراسة الآراميين الفلسفية على مبادئ المسيح وتعاليمه تعلمها وتحللها
وتذكر آثارها ونتائجها بل أنها تناولت أيضاً صاحب الدعوة نفسه : تناولت
عيسى ونشأته ، وطبيعة تكوينه ؛ فكان هذا هو الحدث الهام في تاريخ
المسيحية والافق الجديد الذي فتحه الآراميون في دراسة هذه الديانة السهلة
في مبادئها ، البسيطة في أسسها ، الميسورة على الطبقات في فهمها وإدراكها

وهكذا أصبحنا نجد من موضوعات البحث صلة المسيح بالآله ، والعناصر التي
كونت المسيح نفسه ؛ أهى عناصر مادية ؟ أم عناصر روحية ؟ أم خليط
من الصنفين معا ؟ ثم تناول البحث كذلك الانسان وأعماله ، فوجدت
نظرية القضاء والقدر ، ونظرية الجبر والاختيار ، ونظرية الثواب والعقاب
وعلى أى أساس ينبغي أن تفهم ؛ ونظرية المادة والروح بالنسبة للانسان ،
ونظرية الخير والشر ، ونظرية الفناء والبقاء بالنسبة للروح والجسد ،
ونظرية العناصر الأساسية بالنسبة للخلق المطلق ، أهى النار والهواء والماء
والنور والظلمة ؟ أم هى غير ذلك ؟ ونظرية السعادة والشقاء إلى غير
ذلك من المسائل العامة والأمور التفصيلية التي شغلت رجال الكنيسة من
الآراميين وجعلتهم يختلفون فى الرأى وينقسمون على أنفسهم . وأكبر خلاف
وأهم أنقسام هو ما كان بين العالمين الكبيرين : نسطوريوس ويعقوب بارادوس
ويتبع ذلك أن تنقسم الكنيسة السريانية ويتحيز فريق من رجالها إلى
نسطوريوس والفريق الآخر إلى يعقوب بارادوس ؛ ونجد فى أول مرة فى
تاريخ المسيحية هذا الاصطلاح : الكنيسة الشرقية ، والكنيسة الغربية ، ورجال
الأولى هم النساطرة نسبة إلى العالم الدينى نسطوريوس ، كما أن رجال الثانية
هم اليعاقبة نسبة إلى زعيمهم الدينى يعقوب بارادوس . ونحن لو استعرضنا
هذه المسائل ، التي كانت مشار الجدل والخلاف وموضوع الدرس والتحليل ،
وحاولنا تحليل وجودها بين رجال الدين من الآراميين ، وأردنا إرجاعها
إلى مصادرها الأولى لرأيناها فى الواقع صدى للفلسفة اليونانية التي وضع
اسسها أرسطو ثم جاء من بعده أفلاطون وتلاميذه ، وترديدا لتعاليم
الفلسفة الأفلوطينية الحديثة التي تركزت تعاليمها فى الشرق وعلى الخصوص فى
جامعة الإسكندرية ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن الآراميين هم الذين
فلسفوا الديانة المسيحية ، ومن هنا أيضا ندرك فضل الآراميين على الدراسات

الدينية التي قامت حول دعوة المسيح ، وفضل الفلسفة اليونانية على هؤلاء الآراميين أو السريان كما سموا بذلك فيما بعد ، ومن هنا أخيرا نصل إلى جانب مما نقصد اليه في هذا البحث وهو أثر السريان في وادي الرافدين . ومن الحق أن نقرر أن أهم أثر من آثار الثقافة السريانية في بيئة العراق هي تلك الفلسفة الدينية وهذه الدراسات الواسعة العميقة التي قامت حول دعوة المسيح وتعاليمه ؛ ذلك لأن شخصيتهم في هذا الميدان العلمي ، وفيما كان لهم فيه من إنتاج ، واضحة لاخفاء فيها ، فهم لم ينقلوا كما كان ذلك ديدنهم في بعض النواحي الثقافية ، ولم يترجموا كما كان ذلك صنيعهم الذي اشتهروا به ، ولكنهم استغلوا مواهبهم الخاصة واستخدموا معارفهم الأجنبية لكي ينتجوا في بيئة العراق آثارا أصيلة لايشك في أنها لهم ، ويفتحوا في محيط الدين المسيحي آفاقا لم تكن معروفة من قبلهم . ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن وصل إلينا كثير من الآثار العلمية ، منها ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية الى السريانية وقد تم ذلك في خلال القرن الثاني ، والثالث ، والرابع بعد الميلاد ، ومنها مؤلفات دينية أخرى متنوعة : بعضها خاص بتفسير النصوص المقدسة والبعض الآخر يشتمل على تراجم لطائفة من القسس أو مناقشات قانونية لفريق من الدساطرة واليعاقبة . ومنها كتاب - الديا طسرون - الذي عرفه العرب تحت اسم (الرباعي) وقد ألفه العالم الديني - طاطيان - جمع فيه سيرة المسيح وأعماله من الاناجيل المختلفة ؛ وبالرغم مما أثاره هذا الكتاب من جدل بين العلماء من ناحية مصدره ، ونسبته فقد ظل مرجعا من أهم المراجع الدينية عند المسيحيين قرونا عديدة .

وهناك عدد كبير أيضا من المؤلفات التشريعية قامت على أستنباط الأحكام ، وتشريع القوانين لتنظيم الحياة الخاصة عند الأفراد ثم حياة

الأسرة وأخيرا حياة المجتمع الأنساني بشكلة الواسع ، ولقد اعتمدوا في ذلك أولا على نصوص التوراة والانجيل ، وذلك مثل ما حدث تماما عند المسلمين من تأليف كتب الفقه حينما اتسعت فتوحهم ودخل تحت سلطانهم شعوب مختلفة وأمم متباينه وجدت تبعا لذلك في المجتمع مشاكل سياسية واقتصادية وإدارية لم يكن لهم بها عهد من قبل .

وهناك مجموعة كبيرة أيضا من كتب التاريخ ، منها ماهو خاص بتاريخ الكنيسة السريانية ، ومنها ماهو خاص بتاريخ رؤساء هذه الكنيسة ، ومنها ماهو خاص بالتاريخ العام الذي يتناول تاريخ البلاد السريانية في وادي الرافدين كالرها ، وحذيب ، وتاريخ الدولة الفارسية والدولة الرومانية وما كان بينهما من تنافس وحروب وإذا متجاوزنا هذا الميدان الديني والتاريخي وانتقلنا الى ميدان الترجمة فأننا نجد لهم أيضا في هذا الميدان نشاطا عظيما وانتاجا خصبا ، نجد لهم ترجمة كتاب المنطق لأرسطو ، وقد ترجموه في أواسط القرن الخامس الميلادي ، وكذلك ترجم في نفس القرن الخامس اللاهوت اليوناني ، ثم ترجمت كتابات سويرس الأنطاكي ، وكتابات كيرولس الاسكندري ، كتابات تيموتاوس أيلوروس .

ولم يقتصر أمر النقل من اليونانية إلى السريانية على كتب اللاهوت والرهبة بل تعداها إلى نقل العلوم الدينوية والآثار الأدبية ، فهم إلى جانب ترجمتهم لمنطق أرسطو قد ترجموا كذلك مجموعة من الآثار الخاصة ببيان اثر الدراسات الميتافيزيقية في الأفلاطونية الحديثة ، وكذلك ترجموا مجموعة أخرى من الدراسات الطبية والكيمائية إلى غير ذلك من الكتب التي تفيد في الحياة العملية . ومن أشهر هؤلاء المترجمين بولس أسقف الرقة ، وموسى الأجيلي ويوحنا فيلبونس ، الذي عرف عند العرب باسم يحيى النحوي الاسكولائي ،

والذي ترك ضمن ما ترك كتابا يعارض فيه أرسطو وشرحا لأيساغوجي ،
ومن هؤلاء المترجمين أيضا أحد الأطباء المشهورين من السريان ، اسمه
« سرجيس الراعي عيني » الذي لقب بشيخ الأطباء ؛ إذ أنه بعد دراساته
الفلسفية الواسعة اتجه إلى الحكمة فدرس الطب اليوناني وقرأ ما كان معروفا
عنه حتى أتم دراسة هذا العلم ، وهانحن أولاء لانزال نجد بعض النسخ
الخطية باللغة السريانية لمنطق أرسطو محفوظة في متحف لندن وكذلك نجد
مقولات أرسطو لفرفوريوس ، وغير ذلك من الاثار العلمية التي عثر عليها
في أديرة الشرق كدير وادي النطرون ، ودير سيماء والتي أصبحت الآن
تغذي مكتبات الغرب ومتاحف الغربيين . ولقد كانت وسائل السريان في
الحصول على هذه المعارف اليونانية لاتكاد تختلف عن وسائلنا في العصر
الحديث ، إذ أنهم كانوا يذهبون بأنفسهم الى بلاد اليونان يتعلمون لغتهم
ويتصلون بعلمائهم وأدبائهم ويدرسون عليهم وفلسفتهم ثم يعودون الى بلادهم
مزودين بكل ذلك ليلقنوه أبناءهم وتلاميذهم طورا في الكنائس وطورا في
المدارس ، واذا ما أتموا دراساتهم وتكونت لديهم مؤهلات الانتاج أخذوا
يترجمون ويشرحون ويعلقون ويؤلفون .

وهكذا استطاع السريان أن يخلقوا في وادي دجلة والفرات حركة علمية
ثقافية لاتكاد تقل عن الحركات العلمية الأخرى في أثينا أو في روما أو في
الاسكندرية . ولا أدل على ذلك من أنه قد تخصصت بعض المدارس في
وادي الدجلة والفرات لدرس اللغة اليونانية نفسها ثم درس آثارها الفلسفية
والنقل منها الى اللغة السريانية ، مثل مدرسة قفسرين على الفرات . ولم يبالغ
بعض الكتاب حينما قالوا أن مجهود السريان في نشر الثقافة اليونانية في بلاد
الفرس وفي وادي الرافدين كان أجدى على تلك الثقافة اليونانية من مجهود

اليونانيين أنفسهم الذين أستقروا في تلك البيئات بعد فتح الاسكندر الأكبر للشرق .

وقد بقي السريان في هذه النهضة العلمية والنشاط الفكري حتى جاء العرب وفتحوا العراق فوجدوهم على نفس الحالة التي وصفنا من درس وتحصيل وترجمة وأنتاج . لم يعامل الفاتحون من العرب هؤلاء السريان معاملة الغالب للمغلوب ، ولم يحاولوا محو تلك الآثار العلمية ولا إيقاف ذلك التيار الفكري الذي اختط سبيله منذ زمن بعيد وثبت مجراه في ثنايا تلك البلاد وعم فيضه حتى بدت منه الثمار .

ولقد أظهر الاسلام تسامحا كريما مع هؤلاء السريان فلم يحل بينهم وبين دراستهم الواسعة العميقة : ولذا فقد استمروا يحافظون على تراثهم القديم الذي كونه نتيجة مجهود أجيال عديدة ، ويعملون على تنميته حتى تولت الدولة العباسية فوجدت فيهم أنشط عنصر وأهم مسند وأعظم مورد لتكوين ثقافة اسلامية واسعة لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، ولم يكن لیتاح لهم أن يؤسسوا هذه الحضارة الواسعة في مثل تلك الفترة القصيرة وبمثل هذه السرعة النادرة لو لم يجدوا من بيئة العراق ومن سكانها ما وجدوه من مسدد علمي واسع .

فلقد كان من هؤلاء السريان العلماء والأطباء والفلاسفة والمؤرخون والمترجمون وأصحاب المذاهب الدينية والمشرعون وكثير غير هؤلاء وأولئك وكانت لهم معرفة تامة بأهم اللغات القديمة يونانية ولاينية وفارسية ودراية واسعة بأكثر العلوم المعروفة أذاك رياضيات ، طبيعيات ، لاهوت ، فلسفة طب ، كيمياء ، أدب ، وحتى ما يختص بالعلوم اللغوية ، فقد كانت لهم محاولات تذكر في تنظيم اللغة وتهذيبها ومن أجل ذلك لم يجد المسلمون بدا

من الاستعانة بهم ، ولم يألوا هم جهدا في الافادة بعلومهم ، ومعارفهم ، فقد وضعوا أنفسهم في خدمة الحضارة الاسلامية كما وضعوا أنفسهم من قبل في خدمة الدين المسيحي ، ولولاهم لما عرفت الفلسفة اليونانية وعلومها مبكرة عند العرب ، ولما ظهرت ظلالها واضحة في الفكر العربي أو في العقل الإسلامي وفيما صدر عنه من إنتاج علمي .

ولولا أن بيان ذلك يخرج بنا عن دائرة الموضوع الذي نحن بصددده الآن لذكرنا كثيرا من آثارهم في النهضة الاسلامية أيام الرشيد والمأمون بل وأيام الخلفاء الاول من عهد الدولة الاموية حينما خالط العرب السريان في بيئة العراق ، وأخذوا يتقربون مألديهم من معارف ويتطلعون لما عندهم من علوم ، ولعددنا كثيرا من فلاسفتهم و مترجميهم ، وعلمائهم ، وأطبائهم الذين خدموا هذه النهضة وكانت لهم فيها آثار كبيرة . وحسبنا الآن فقط أن نحيل القارئ الى ما كتبه ابن النديم وأبن أبي أصيبعة عن حركة الترجمة والمترجمين في الدولة الاسلامية ليرى بنفسه كم كان عدد السريان الذين قاموا بالترجمة من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية وكم كان عدد الكتب أو الرسائل التي نقلوها أو فوها ، وكم كان أثر ذلك كله في العقلية العربية أو في الحضارة الاسلامية وخصوصا عند طائفة العلماء ورجال الكلام .

ولم يكن تسامح المسلمين مع هؤلاء السريان من نوع تسامح الفرس أو اليونان ، إذ أن تسامح هؤلاء كان وليد أغراض سياسية ، أو فلسفة إدارية تفرضها طبيعة الحكم أو تملئها مصالح الدولة أما تسامح المسلمين معهم فكان صادرا عن مبادئ حكيم أقره الاسلام في معاملة أهل الكتاب : لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين . وعلى هذا المبدأ ترك السريان في كنائسهم ومعاهم يقومون بشعائر دينهم وينهضون بنشر معارفهم لابن ابنائهم فقط .

بل بين سكان البيئة العراقية بأجمعها .

ولكى ندرك في وضوح مبلغ النشاط العلمي عند السريان ، ومدى أثر هذا النشاط في كل وادى دجلة والفرات يكفى أن نعرف أنه كان للسريان في تلك البيئة العراقية نحو من خمسين مدرسة تدرس فيها العلوم على اختلافها ، ولقد وصل عدد التلاميذ في بعضها نحو من الألف ، وأهم هذه المدارس هي مدرسة الرها التي بدأت مبكرة بالعناية بدراسة الفلسفة اليونانية وخصوصا فلسفة أرسطو ، وكان ذلك في القرن الخامس الميلادى ، ومنها مدرسة قنسرين على الفرات التي تقدمت الإشارة إليها ، وقد اشتهرت هذه المدرسة كذلك بدراسة الفلسفة اليونانية وخصوصا الفلسفة الرياضية واللاهوت ، ولعل ميزة هذه المدرسة أن الدراسة فيها كانت باللغة اليونانية ، ومنها مدرسة نصيبين ، وقد اشتهرت بدراسة عدد كبير من العلوم لافرق في ذلك بين العلوم العقلية والنقلية . وعلينا بعد ذلك أن نتصور مدى معرفة البيئة العراقية بلغة السريان ومعارفهم ، وإلى أى حد كان تأثيرهم على سكان هذه البيئة وبالتالى على الفاتحين من العرب ومن جاء بعدهم .

وهنا نجد التفسير الواضح لاتجاه المعارف الاسلامية الاولى بهذه الوجهة التي نلمسها في علومهم وأدابهم وتشريعاتهم ، ونلنس إحدى النتائج الهامة التي أشرنا إليها في أول هذا الكتاب ؛ هنا نجد التفسير الواضح لنشأة العلوم اللغوية عند العرب في بيئة العراق دون سواها من البيئات الاسلامية الأخرى ، هنا نجد التفسير الواضح لنشأة المذاهب الاسلامية المتعددة والفرق الاسلامية المختلفة ، هنا نجد التفسير الواضح لنشأة العلوم القرآنية من تاريخ وتفسير وتشريع ، هنا نجد التفسير الواضح لنشأة بعض التيارات الادبية التي وجهت الادب العربى وجهة لم يكن يعرفها أدباء العرب من قبل ، هنا

يُجد التفسير الواضح لتأثير العقلية الإسلامية بالمنطق والفلسفة وظهور ذلك
 التأثير ظهوراً بيناً في أغلب إنتاج علماء الإسلام حتى فيما ينبغي ألا تكون
 له صلة بالمنطق ولا بالفلسفة كاللغة والنحو ، إذ أن ذلك كله لم يكن إلا
 ترديدا أو محاكاة لما كان يصنعه السريان في معاهدهم ومدارسهم أو لما كانوا
 يقومون به من بحث وجدل ومناظرة في كنائسهم ومعابدهم . ولنلق نظرة
 بسيطة على ما كان يدور من جدل ومناظرة في حلقات المعتزلة أيام صالح
 ابن عبد القدوس وبشار بن برد وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرهم
 من رجال الاعتزال ، ثم لنرجع إلى الوراة قليلا يوم اختلف الآراميون في
 طبيعة المسيح وانقسمت الكنيسة المسيحية إلى فريقين كبيرين واستتبع جدلهم
 في هذه الناحية جدلا آخر في كثير من المسائل التفصيلية في الدين ؛ ولنقارن
 أخيرا بين جدل رجال الدين المسيحي من السريان وجدل رجال الكلام في
 الدين الإسلامي ، وأواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، من ناحية
 أصل هذا الجدل وطبيعته وموضوعاته ونتائجه ؛ فإذا عسانا نجده من تلك
 النظرة ومن هذه المقارنة ؟ أليس منشأ هذا الجدل عند كل من الفريقين
 هو استنفاد الامكانيات العقلية في الدين ، والميل إلى فلسفة بعض تلك
 الامكانيات من ناحية والعمل على خلق امكانيات جديدة للعقل من ناحية
 أخرى ثم ممارسة وتطبيق المبادئ الفلسفية التي عرفها رجال هذين الفريقين؟
 وأليس موضوع الجدل عند كل من الفريقين هو أساس العقيدة والدين وما
 يستتبع ذلك من صلة بين الخالق والمخلوق وتحليل وفهم لما يصدر عنهما من
 أفعال كمسألة القضاء والقدر . والجبر الاختيار ، والخير والشر ، والشواب
 والعقاب ؟ وأخيرا أليس من نتائج هذا الجدل بين كل من الفريقين هو
 ما نراه من انقسام في الرأي واختلاف في المذاهب وتعدد في الفرق وخصوصية

لم يكن من السهل على العلماء والمؤلفين في أيام النهضة الإسلامية الأولى أن يقرروا لنا تأثيرهم ببيئة العراق وبين فيها من علماء وما فيها من معارف ، بل ربما لم يكن من السهل على علماء الإسلام ومؤلفيه أن يحسوا هم أنفسهم بذلك الاثر ولكن علينا نحن الآن أن ندينه في عقلياتهم ونستخلصه من انتاجهم لكي يسهل أمامنا فهم ذلك الانتاج وإدراك الأسباب البعيدة لنشأة الحضارة الإسلامية التي لا تزال نحتضنها وتبينها كوليدها نجعل أبيه ، وذلك على ضوء دراساتنا لتاريخ حضارات العراق ، ومعرفتنا لما كانت تزخر به هذه البيئة العراقية من علم وأدب وفن ودين ، وإدراكنا لمبلغ الصلة ومدى الامتزاج العقلي بين سكان هذه البيئة ورجال العرب الذين أتوها فاتحين أو نازحين لطلب الرزق أو العلم أو لخدمة السلطان ، ولقد كان هذا في الواقع هو هدفنا الأول من وضع هذا البحث ، وأظننا قد بدأنا نلمس إحدى نتائجه من دراستنا لآثار الثقافة السريانية ومداهها في بيئة العراق ولجهود الآراميين العلي في هذه البيئة ، ومع ذلك فنحن نقرر

(١) ارجع الى مؤلفات واصل بن عطاء ص ١ من تكملة الفهرست لابن النديم التي نقلها العلامة أحمد تيمور باشا ونشرت في آخر كتاب الفهرست طبعة سنة ١٣٤٨ هـ بالمطبعة الرحمانية بمصر ، ثم ارجع الى مؤلفات اليشع بن قوزبايا من رجال الدين السريان الذين اعتنقوا مذهب نسطوريوس ص ١٥٣ من كتاب : تاريخ الادب السرياني للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدي البكري ، أو الى مؤلفات - إفريم السرياني - ص ٧٠ - ٨٣ من نفس هذا المرجع ، المنشور منها والمنظوم ، ولاحظ على الخصوص الروح العامه والاتجاهات المسيطرة على مؤلفات واصل بن عطاء ومؤلفات غيره من السريان .

هنا أن كلامنا عن هؤلاء الآراميين وعن الثقافة السريانية لا يزال مجملاً
يكتفى بالإشارة ولا يدخل كثيراً في التفصيل ، ولقد اضطررنا إليه
اضطراراً لما تستلزمه طبيعة البحث ولما نرغب فيه من أن يتقدم أحد
المختصين فيكتب رسالة عن الثقافة السريانية أو عن أثر السريان في الحضارة
الإسلامية .

وبعد فإن هذا العرض السريع لتاريخ الآراميين ، ونشاطهم العلمي في
أرض النهرين وأثرهم العظيم في الحضارة الإسلامية يهدينا في يسر وسهولة
إلى استخلاص تأثيرهم في العقلية الإسلامية بوجه عام ، وإلى استخلاص هذه
النتائج الآتية :

أولاً - أن شهرتهم بين الشعوب القديمة ، واعتراف الدول التي تبادلت
السلطان في بيئة العراق بهم وبفضلهم ثم بالتجاء هذه الدول اليهم لاستخدام
مواهبهم واستغلال معارفهم قد جاءت عن طريق المجهود العقلي والانتاج
الفكري ، والمقدرة التي قلما تتوفر لغيرهم من معرفة باللغات كاليونانية
والفارسية واللاتينية والعبرية ، ومن دراسات لآثار هذه اللغات العلمية
والأدبية والفلسفية والدينية ، وليست عن طريق القوة الحربية أو السلطان
السياسي أو حسن التدبير الإداري فأنهم بلا شك كانوا من أبعد الناس
عن ذلك الطموح السياسي ، وعن تلك العظمة التي تقوم على إحراز النصر
من وراء القوة الحربية ، وفي الوقت الذي تكونت لهم فيه دويلات شبه
مستقلة في وادي دجلة والفرات كما هي حذيب ، ومنطقة الرها ، نقول
لأنهم في هذا الوقت لم يحاولوا ضم هذه الدويلات بعضها إلى بعض لكي
يخلقوا منها دولة أرامية أو سريانية عظيمة موحدة لها نظامها الخاص
وأهدافها السياسية كما حدث بين دويلات الإغريق حينما انضوت تحت لواء

أثينا ، أو دويلات إيطاليا حينما تجمعت تحت سلطان روما ؛ بل إنهم لم يرفضوا أن يتولى الملك عليهم أجنب من العرب جاؤا إليهم واستقروا فيما بينهم كما لاحظنا ذلك منذ قليل عندما كنا نتحدث عن مملكة حذيب وشهرتهم عن طريق الفكر والعلم والانتاج كانت بلا ريب أنفع للإنسانية وأبقى على الزمن من تلك الشهرة المؤقتة الزائفة .

ثانيا - أنهم يعتبرون إلى حد ما الحفظة على بعض التراث القديم من الثقافة البابلية - الآشورية ، ومجھودهم في بيئة العراق يمثل نوعا ما امتداداً لحضارة البابليين والآشوريين في هذه البيئة . فعن طريق الكلدانيين منهم قديما عرفت بعض معارف الطب والفلك والدين والرياضة ، وعن طريق المقيمين منهم في شمال وادي النهرين عرفت بعض معارف الآشوريين من تاريخ ونبات وعمارة .

ثالثاً - أنهم كانوا حلقة اتصال بين الغرب والشرق ، وهم في هذا الميدان لم يجاروا بين الشعوب القديمة ولعل أول صلتهم بالغرب كانت عن طريق اليونانيين المقيمين في آسيا الصغرى . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد بل استمروا يكتثرون من هذه الصلات قبل ميلاد المسيح وبعده ، فوصل بعضهم إلى بلاد الإغريق ؛ وذهب غير قليل منهم إلى روما ثم عادوا جميعاً إلى بلادهم مزودين بكثير من العلم والحكمة والفلسفة ؛ ومن هنا كان أكثر ما أثر عنهم من انتاج على يمثل ذلك أوضح تمثيل ، فأثنا نتجاوز كثيراً حين نطلق على تراثهم الديني ، والعلمي ، والأدبي اسم الحضارة الآرامية أو السريانية ، إذ أثنا لانجد في ذلك التراث الطابع الخاص الذي يميز حضارة عن أخرى ، ولا الفكرة القومية الأصيلة التي تجمع بين شتات هذا الانتاج ؛ ولعل ذلك يرجع أولاً إلى عدم تماسكهم بالوحدة السياسية ،

واقترعهم بالحياة الهادئة تحت ظل حكم الآخرين ، فانصرفهم للحياة العقلية والانتاج الفكري ظل تقريباً متواصلاً ، متشابهاً تحت سلطان العرب . وما كانوا يجدون ضيقاً ولا حرجاً في الخضوع لسياسة هذه الدول والعيش في كنف ملوكها ما داموا يتمتعون بالهدوء والاستقرار ويمسكون الفرص التي تتيح لهم ممارسة نشاطهم العقلي والعلمي وإقامة شعائر دينهم .

وإذا كانت لهم أصالة في شيء مما انتجوه فأما ذلك في الناحية الدينية ، إذ أن دراستهم للنصوص المقدسة ، وخدمتهم لها من حيث التفسير واستنباط الأحكام لا تسكاد تقل عن دراسة اليهود لنصوص التوراة ولا الفرس لنصوص الأвестا . وهم في ذلك قريبو الشبه باليهود بعد أن فقدوا وطنهم القومي وتشبثوا في مختلف البلاد ، فقدت ثقافتهم طابعها العبري الخاص وأصبح انتاج علمائهم وأدبائهم يتشكل في طابع البيئة التي ينشأ فيها فكان ذلك الإنتاج يونانياً في بيئة اليونانيين ولاتانياً في بيئة الروم ، وهكذا إذا ألقينا نظرة عليهم في العصور الحديثة فأنا نجد نفس الصورة التي عرفت عنهم قديماً فهم في وسط المانيا المانيون لغة وعلماء وإنتاجاً وفي وسط فرنسا فرنسيون لغة وعلماء وإنتاجاً وفي وسط روسيا روس لغة وعلماء وإنتاجاً وفي وسط أمريكا أمريكيون لغة وعلماء وإنتاجاً وفي وسط العرب العرب لغة وعلماء وإنتاجاً ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة للأراميين .

اللون الثاني .

اللون الثاني من ألوان الحضارات الأجنبية التي أثرت في البيئة العراقية هو ما جاء عن طريق اليونان : سواء كان ذلك عن اليونانيين أنفسهم أم عن طريق الشرقيين الذين اتصلوا بهم وتعلموا لغتهم ودرسوا معالم حضارتهم

ثم أتوا إلى وادي الرافدين ينشرون ما عرفوه ويضيفون إلى مظاهر الحضارة القديمة مظهرا آخر له طابعه الخاص وأسايبه الجديدة .

وقد يبدو غريبا لأول وهلة أن نتكلم عن أثر الحضارة اليونانية في أرض النهرين ، وعن مدى انتشار هذا الأثر بين سكان هذه البيئة . ومبلغ ما كان فيه من صلاحية ، ومبلغ ما أداه من خدمة إلى العقلية الشرقية وثروة إلى الانتاج العلمى والأدبى ، نقول قد يبدو غريبا لأول وهلة أن نتكلم عن ذلك ونحن الذين منذ صفحات قليلة ، عقدنا فصلا خاصا للحديث عن نشأة الحضارة اليونانية واستمداد كثير من أصولها الأولى من الحضارات الشرقية ، وخصوصا الحضارة البابلية - الآشورية ، وقلنا أن عددا غير قليل من أساتذة هذه الحضارة قد نشأ في الشرق وتعلموا على أساتذة الشرق ، ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تتلاشى أمام القارئ حين ينتهى من دراسة المراحل الأولى لنشأة الحضارة اليونانية ، ويصل بها إلى العهد الذى أصبحت فيه متعددة المظاهر ، متماسكة الأطراف ، ولها طابعها الخاص ، ونعنى بذلك العهد القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، حين تركزت الحركة العلمية والنشاط الفكرى فى أثينا على أثر نضوج الفلسفة ونهضة الحركة السوفسطائية التى قامت على نقد المبادئ الفلسفية القديمة والعمل على توجيه العقلية اليونانية توجيهها جديدا .

هؤلاء اليونانيون الجوالون الذين استقوا معارفهم الأولى من آسياطورا ومن مصر طورا آخر قد استطاعوا أن يتفهموا هذه المعارف الأولية ؛ ثم يهضموها ، ويكونوا من شتاتها خلقا جديدا ربما يفوق فى سعته وروائه تلك المصادر التى استمد منها عناصر تكوينه الأولى ، ومن هنا فقط كانت عظمة الاغريق ومقدرتهم على الخلق والابتكار ، ومن هنا فقط استطاع هؤلاء الاغريق أن

يلفتوا نظر العالم إلى حضارتهم وإلى ما أنتجوه في هذا الميدان من علم وأدب وفلسفة وفن . ولسنا هنا بصدد تاريخ الحضارة الاغريقية أو وصف معالمها ولكننا بصدد تاريخ انتقالها إلى وادي دجلة والفرات ، والحدث الهلم الذي نستطيع أن نؤرخ به تأثير الحضارة اليونانية في وادي دجلة والفرات إنما هو غزو الاسكندر الأكبر للشرق في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد ، إذ أننا قبل هذا الحادث يصعب علينا أن نعرف على وجه الدقة متى بدأت صلة وادي الرافدين بالآغريق أو بالمعارف الاغريقية ، وكيف كانت طبيعة تلك الصلات من الناحية الثقافية ، أكانت من أجل منفعة الآغريق أنفسهم ؟ أم من أجل منفعة سكان بيئة العراق ؟ وكذلك يصعب علينا أن يدرك عن يقين مدى أثر الحضارة اليونانية في بيئة العراق قبل هذا الحادث التاريخي الهام . على أنه مما ينبغي أن نعتري به ونقرره سلفا هو أن الآغريق أو اليونانيين قد اتصلوا بسكان وادي الرافدين قبل مجيء الاسكندر بجيوشه إلى الشرق فنحن نعرف أن اليونانيين كانوا يستوطنون آسيا الصغرى وهي متاخمة تقريبا لشمال بيئة العراق ، ونعرف كذلك أن هذه البيئة العراقية كانت تحت حكم الفرس منذ عهد قورش وأن سلطان الفرس قد امتد غربا حتى شمل البلاد المستوطنة باليونانيين بل إن الفرس قد تجاوزوا بنفوذهم الإداري كل آسيا فوصلوا إلى الجزر اليونانية في بحر إيجه وبعد ذلك انتقلوا بجيوشهم إلى شبه الجزيرة الاغريقية : ونعرف أكثر من ذلك أيضا أن هؤلاء الفرس أنفسهم قد استخدموا في جيوشهم وفي حروبهم كثيرا من اليونانيين كموظفين أو كجنود مرتزقة ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك حينما كنا نتكلم عن أثر الشرق في الحضارة الاغريقية ^(١) . ونضيف إلى ذلك هنا ما يذكره المؤرخون من أن كورش

^(١) انظر ص ٦٨ إلى ١٠٠ من هذا الكتاب : العراق وما توالى عليه من حضارات

الشاب الذي كان واليا على جزء من بلاد الأناضول في عهد حكم أخيه من أبيه - ارتحششتا الثاني الذي حكم من سنة ٤٠٤ إلى سنة ٣٥٩ ق م قد استعان بجيش كامل من اليونان بلغ عدده ١٠٠.٠٠٠ رجل مدججين بالسلاح معظمهم اسبارطيون لكي يجارب أخاه ويأخذ منه الحكم وقد سار هذا الجيش بقواده من الاغريق مع كورش من مدينة سارديس حتى وصل الى شمال سوريا ، ومن هناك يمم شرقا إلى وادي الرافدين حتى وصل إلى مدينة بابل ، ووصف هذه الحملة لا يخلو من الطرافة ولكن ليس هنا مكانه (١) وكذلك يذكر المؤرخون أنه قد وجد في جيش دارا الذي حارب به الاسكندر نفسه جنود مرتزقة من اليونانيين (٢) .

نحن نعرف كل ذلك ونعرف أن هذه الصلات السياسية أو المادية أو الحربية لا بد وأن يكون لها أثرها العلي أو الشقافي ، ولكن لدينا من الأدلة ما يرجح أن اليونانيين قد استفادوا عليها من هذه الصلات أكثر مما استفاد الشرق منهم . من هذه الأدلة :

أولا : أن الشرق كان لا يزال أثناء تلك العصور في عظمته السياسية ومجده العلي فلم تكن أنظار أهله تتطلع بعد إلى حضارة الغرب أو إلى معارف الاغريق .

ثانيا : أن الذي كان يشاهد في أغلب الأحيان ، قبل عهد الاسكندر الأكبر ، هو مجيء اليونانيين إلى الشرق سواء أكان ذلك للاستطلاع والمعرفة ، أم للدرس والتحصيل ، أم لكسب المال والعمل ، وقبلها نجد

(١) أرجع إلى كتاب - الرافدان - تأليف سيتون لويدي وتعريب طيه بافر

وبشير فرسيس ص ١١٤ - ١٢٢

(٢) نفس المرجع ص ١٣٠

أفرادا من الشرقيين يلجئون إلى مثل ذلك في بلاد الاغريق بل على العكس من ذلك كان تيار الشرق السياسي والعلمي بل والمادى يغمر بلاد الاغريق من وقت إلى آخر ، وقد رأينا ذلك مثلاً في حروب الفرس معهم .

ثالثاً : أن سكان شبه الجزيرة اليونانية أنفسهم لم يكونوا قبل عهد الاسكندر المقدوني أو عهد أبيه فيليب . قد استقروا سياسياً وارتضوا جميعاً نظاماً من الحكم موحداً ، فكانت بلادهم من الناحية السياسية ميداناً للخلافات والنزاع والتنافس ؛ مرة بين الطبقات الحاكمة في أثينا نفسها أو بين هذه الطبقات الحاكمة وبين المحكومين من الأتينيين ، ومرة أخرى بين الأتينيين والمقدونيين ، وكذلك من الناحية العلمية يمكن أن يقال أيضاً أنهم لم يكونوا مستقرين إذ أن الحركة السوفسطائية عندهم قد أحدثت من الاختلاف في الرأي والاضطراب في الفكر والزعزعة في العقيدة مالا يقل أثراً عما أحدثته عدم الاستقرار في السياسة ؛ ومما هو معروف ومقرر أن التقدم في العلم والفن مدين في أغلب الأحيان للاستقرار أو التقدم في الحكم وأن الحضارة تسير غالباً في ركب السياسة ؛ السياسة الاغريقية لم تتعد بلاد الاغريق ، وتفرض فرضاً حقيقياً على بلاد الشرق إلا في أيام الاسكندر الأكبر ومن جاء بعده . لهذه الأسباب قد تركنا أو تناسينا أثر الحضارة الاغريقية في الشرق ، وعلى الخصوص في وادى دجله والفرات ، قبل مجيء الاسكندر غازياً وفتحاً وحاكماً في هذه البلاد واعتبرنا مجيئه نقطة بدء حقيقته لأثر الحضارة اليونانية في بيئة العراق .

في عام ٣٣٤ قبل الميلاد بدأ الاسكندر حملته ضد الشرق لينتقم من الفرس ، كما يقول المؤرخون ، الذين هاجموا شبه جزيرة اليونان بجيوشهم وأوقعوا بهم من الخسائر في الأموال والأرواح ما جرح شعورهم وأهان

عزتهم وأحفظ عليهم كل سكان شبه الجزيرة .

من شمال بلاد اليونان وصل الاسكندر الى آسيا الصغرى قائدا جنده ،
ومنتصرا على طول الخط ضد دارا الثالث ملك الفرس وضد الحكام الموالين
له في آسيا الصغرى ثم في سوريا ؛ وفلسطين ، ومصر . وأهم معركة خاضها
الاسكندر ضد الفرس في طريقه إلى مصر كانت معركة - إسوس - مدينة
قديمة في شمال مدينة الاسكندرونه الحالية ، وأصعب موقف عاناه الاسكندر
هو حصاره لمدينة صور الفينيقية .

وفي عام ٣٣١ يصل الاسكندر الى أرض النهرين متتبعا فلول الجيوش
الفارسية المنهزمة ؛ فيخوض معهم معركة - كوكيله - ، ثم يعود إلى مدينة
بابل حيث تستسلم دون قتال ، ويمضى نحو الشرق حيث بلاد الفرس أنفسهم
ويتجه الى عاصمتهم - برسيبوليس - فيخوض معركة مع جيش فارسي قد
تجمع لحماية العاصمة ولكن دون جدوى .

وبعد راحة قصيرة يقضيها في أعياد مع جنده وقواده يواصل السير إلى
مدينة - اكبتانا - إحدى العواصم الفارسية في الشمال أملا في أن يدرك
خصمه الاول دارا ، ولكن هذا الأخير يقتل بواسطة أتباعه الذين يئسوا
من توالى الهزائم وتعبدوا من مواصلة الفرار ، ثم تقدم جيشه كسديه إلى
الاسكندر على يقنع بها ويترك متابعة الفلول المنهزمة المشتته ، صنع يشبه
صنيع الايطاليين في الحرب الأخيرة بزعيمهم موسولينى ؛ وكان الاغريق
ينتظرون من الاسكندر أيضا أن يرضى بتلك الهدية فيهدأ أو يكتفى بما صنع
ويترك مواصلة السير ومتابعة الحروب ، ولكن الاسكندر لم يقنع بهذا بل
استمر في سيره في أواسط آسيا وشمال الهند حتى اتعب جنده وبدت منهم
روح التذمر والعصيان وكان ذلك في صيف عام ٣٢٦ قبل الميلاد

فاضطرب الى أن يعود بهم إلى مدينة بابل ، ويبدأ في وضع مشروعاته العمرانية الواسعة . وأهم هذه المشروعات بالنسبة لبيئة العراق ، التي نحن بصدد الحديث عنها ، هو تفكيره في أن يجعل من مدينة بابل ميناء هاماً ومركزاً عظيماً للتجارة ليس بينها وبين بلاد الهند فقط ولكن بينها وبين مصر أيضاً وذلك بواسطة قنوات من البحر الأحمر والنيل وحينما رأى أن تنفيذ ذلك يستلزم السيادة على شبه الجزيرة العربية فقد عاودته الرغبة في الانتصارات الحربية من جديد ، شأن كل القواد الذين بنوا مجدهم على الحرب والانتصار ، ولم يتمهل في ذلك بل أعد حملة واسعة ليخضع بها ذلك القطر الصحراوي الفسيح الذي كان بمثابة حاجز منيع بين ممتلكات الإسكندر في آسيا وممتلكاته في أفريقيا ، وفي مساء بدء الحملة مرض الإسكندر بالحمى التي لم تمهله أكثر من ستة أيام .

وليس يعنيننا هنا تسجيل هذه الحوادث ولا تفصيل ما جرى فيها ، وحسب القارئ لهذا البحث أن يعرف فقط بأن كل معركة خاضها الإسكندر كانت عبارة عن اليأذه ، وكل مسافه قطعها في سيره الطويل مع جنده كانت عبارة عن أوديسا ولكن الذي يعنيننا بوجه خاص هو أن نعرف أن غزو الإسكندر للشرق لم يكن مجرد فتح حربي أو انتصار عسكري وإنما كان كذلك فتحاً علمياً ، وانتصاراً للحضارة الإغريقية على الحضارات الشرقية في أهم مظاهرها : علم وفن وأدب ، ولقد ظهر هذا بوضوح في الأسس الأولى التي وضعها الإسكندر لإمبراطوريته الواسعة ، وبدأ فعلاً في تنفيذ ما استطاع تنفيذه في خلال تلك المدة القصيرة التي عاشها في الشرق .

لقد ذكر بعض المؤرخين ^(١) . أن من مطامع الاسكندر الاكبر أن يدمج شعوب الشرق في الغرب ، فيجعل منهم عالما واحدا تسكنه شعوب متألفة ، متحدة ، وأن يفتح للحضارة الاغريقية آفاقا جديدة واسعة ، ولم يمت الاسكندر إلا ولديه جيش عدده ثلاثون ألفا من شعوب الشرق المتأخرين ، وكانت معاملته لهم تقوم على أساس المساواة العنصرية .

وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ما يؤكد هذا البرنامج الواسع لمطامعه وأوسسه ، فإن الظروف التي صاحبت غزو الاسكندر ، والنتائج التي أعقبت هذا الغزو تؤيد بوضوح تلك المطامع التي عرفت عن الفاتح المقدوني الاكبر ، إذ أنه كثيرا ما كان ينصح أصحابه وقواده بالزواج من شرقيات ولقد عمل بهذه النصائح نحو من عشرة آلاف من أتباعه المقدونيين فتزوجوا من زوجات آسيويات . ولم يدخر هؤلاء الحكماء من المقدونيين وسعا في أن يسيروا على النهج الذي خطه الاسكندر من الاندماج في شعوب الشرق بكل الوسائل حتى كادوا ينسون في المستقبل وطنهم الأصلي ويقطعون كل صلة به . ولنوضح الآن بعض الشيء هذا المنهج الذي سار عليه الاسكندر لقد جاء إلى الشرق وفي صحبته بجانب رجال الحرب من قواد وجنود كثير من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والمهندسين ، والفنانين . وكان الجميع يعملون . كل في الميدان الذي يخصه .

وكان في كل بلد يفتحه يترك من آثار هذه الطبقة المثقفة المستنيرة آثارا محسوسة ، وكان بين الفينة والفينة من أوقات راحته يقيم مباريات أدبية وفنية

(١) أنظر - الرافدان - تأليف المؤرخ سيتون لويو وتعريب طه بافر وبشير

جريا على نظام المباريات الذى كان معررفا إذ ذاك فى أثينا ، وكثيرا ما كان يقضى أوقات فراغه وأمسياته مع بعض سراة القوم ووجوههم مستمعين لشعر الشعراء ، وفكاهات الادباء وقصص المؤرخين ، وآراء الفلاسفة والمفكرين ، وحوار العلماء فى مختلف الموضوعات ، وأظننا فى غير حاجة لبيان الاثر المبكر للعقلية الاغريقية والفكر الاغريقى الذى يتركه فى شعوب الشرق مثل هذا النشاط .

ولم يكن الاسكندر يمتنع كفى من مخالطة أهل البلاد المفتوحة ، بل على العكس من ذلك كان يشجع هذا الاختلاط ويدعو عمليا إليه ، إذ أن ذلك كان ، كما ذكرنا منذ قليل ، جزءا من برنامج فتوحه للشرق ، فلم تعرف عنه حادثة حاول فيها أن يجرح أو يمس الشعور الدينى فى شعوب الشرق ، وفضلا عن ذلك كان يظهر كثيرا من الأجلال والاحترام لعقائدهم ومقدساتهم ، بل ولاحظ أنواع الالهة فى نظر اليونانيين إذ ذاك مثل عجل أبيس عند المصريين فقد ذهب الاسكندر لزرياته فى ممفيس وقرب له القرايين ، وانتحل لنفسه لقب « ابن آمون » ، والذى صنعه فى ممفيس مع المصريين وألهتهم صنعه مثله فى مدينة بابل مع البابليين وألهتهم .

ولعل من آثار هذه المعاملة الحكيمة التى كان الاسكندر يظهرها لشعوب الشرق أنه استطاع ؛ وهو لا يزال فى سيره الحربى ، أن يجد من بين هذه الشعوب من يحنده فى جيشه ويعتمد عليه فى حروبه اعتمادا لا تقل عن اعتماده على اليونانيين أنفسهم ، وأن يخلق لنفسه من بين أعداء الفرس فى امبراطوريتهم الواسعة أصدقاء مخلصين يلقونه لقاء المنقذ لهم من ظلم الفرس وجبروتهم فيرضون بحكمه ويؤيدون سياسته ، مثال ذلك ماحدث فى مصر وفى بابل . ومن أبرز الأمثلة على تعاون الشرقيين معه فى الحرب واعتماده هو

عليهم ما حدث في بلاد الفرس حين رفض فريق من الجود الأغريقين الذين
سئموا السير وملوا الحروب أن يتبع الاسكندر في سيره الى الهند فوجد الاسكندر
في الفرس أنفسهم وفي أهل أرض النهرين من يعمل في خدمته ويخلص له
فسار بهم مخترقا بلاد الفرس حتى دخل معهم الاراض الهندية

وأن من يدرس تاريخ الاسكندر الأكبر ، ويتبع سيره حين غزوه لبلاد
الشرق ، ويعرف مبلغ حبه وتعلقه بالحضارة الاغريقية ، لا يجد عناء في أن
يدرك أن الاسكندر كان يحاول أن ينشئ في كل بلد يفتحه أثينا أخرى ،
وهو وإن لم يمله الموت حتى يحقق هذه المطامع ، إلا أن قواده الذين حكموا
بلاد الشرق من بعده قد سلكوا نفس السبيل ، ونجحوا في تلك المحاولات
الى حد بعيد ، مما يدل على أنهم كانوا يتبعون سياسة مرسومة ويعملون
بفكرة مشتركة ويسعون الى هدف محدد . ولم يكن اذن عن طريق الصدفة
أن نجد في بيئة العراق — القسم الشرقى من آسيا الاغريقية — مدينة
سلوقية لتكون عاصمة العلوم والآداب الاغريقية بجانب كونها العاصمة السياسية
وأن نجد في بيئة سوريا — القسم الغربى من آسيا الاغريقية — مدينة
انطاكية لتقوم بنفس المهمة السياسية والعلمية التى تقوم بها سلوقية ، وأن نجد
كذلك مدينة الاسكندرية لتؤدى نفس الأغراض فى البيئة المصرية .

وهكذا وجد فى كل بلاد الشرق المفتوحة مدن هى صور مصغرة من
أثينا إذ أنها كانت تشتمل على المؤسسات العلمية والفنية والرياضية ، كالجامعة
والمسارح والمكتبات والملاعب ، فكان ذلك ايدانا بتنفيذ برنامج الاسكندر
الأكبر وتطبيقه عمليا . ثم أن الخلاف فى رأى بين قواد الاسكندر بعد
موته وانقسام البلاد المفتوحة بين هؤلاء القواد لعدم وجود الوارث الشرعى
القادر على ادارتها قد أدى الى نمو الحضارة الاغريقية وانتشارها فى كل

بلاد الشرق بصورة نادرة وبسرعة لا تتصور ، إذ أن حرص كل واحد من الملوك اليونانيين في الشرق على أن تسود مملكته في ميدان العلم والفن والادب قد أوجد شيئا من الغيرة بين هؤلاء الملوك فبدءوا يتنافسون في استدعاء العلماء وتوفير وسائل الراحة لهم ، وفي بذل المال لشراء الكتب ونقل المخطوطات وانشاء المؤسسات على اختلاف انواعها حتى أصبحنا نحس من اقراءتنا لتاريخهم أن رغبتهم في إحراز النصر العلمي أو الأدبي قد حلت محل الرغبة المعروفة عنهم قديما في إحراز النصر الحربي .

ولقد بلغ هذا التنافس أشده يوما ما بين أحد ملوك *pergame* في اسيا الصغرى ، وأحد ملوك مصر من البطالة حتى أن بطليموس منع تصدير الورق إلى *برجام* ، وكانت مصر هي البلد الوحيد الذي يصنع الورق من *papyrus* البابيروس ويصدره إلى سائر البلاد الأخرى في كل حوض البحر الأبيض المتوسط ، فكانت بذلك تتحكم أو تحتكر أهم مادة لخدمة الثقافة

وحينئذ لم تجد *برجام* بدا من أن تفكر في شيء يخرجها من تلك الازمة التي سببتها لها مصر والتي أحدثت لديها ضيقا وارتابا في سياستها العلمية والادبية ، فاخترعت نوعا من الصحف للكتابة يصنع من الجلد ويعرف باسم *parchemin* .

وهناك أمثلة عديدة من هذا التنافس بين المدن الجامعية اليونانية في الشرق ، الاسكندرية وأنطاكية ، وسلوقية و *برجام* من أجل جمع المخطوطات والاستحواذ عليها ، وجلب العلماء والانتفاع بنشاطهم وبآثارهم .

ولقد كانت هذه الحركة بلا ريب مبعث نهضة جديدة في الشرق على أيدي اليونانيين ، وساعد كثيرا على هذه النهضة هو ما كان في بلاد اليونانيين أنفسهم من اضطراب ، وضعف سياسي ، وانحلال اجتماعي وما كان يقابله

فى الشرق من استقرار و ثراء . يضاف إلى ذلك عامل آخر هو ما كانت
 تقوم به روما فى خلال القرن الثانى والاول قبل الميلاد من احتقار الاغريق
 وخصوصا العلماء والفلاسفة منهم ، ومن العمل على إبعادهم من إيطاليا بحجة
 أنهم يفسدون العقلية بمبادئهم الفاسفية ويضعفون فى الشباب الرومانى روح
 الاقدام والرجولة ، وكانت روما فى أثناء ذلك تقوم بتأسيس مجدها وتثبيت
 سلطانها فيما فتحت من أملاك الفينيقيين فى أفريقيا وفيما استولت عليه من
 ولايات الاغريق المتداعية فى حوض البحر الابيض ، ولذا فقد لقيت دعوة
 شيوخها بطرد الاغريقين من إيطاليا أذنا صاغية وقبولا حسنا ، ونذكر
 هنا حادثة واحدة على سبيل المثال : حينما أحست أثينا ، بعد أن وقعت
 فى حوزة الروم ، بظلم الولاة وتعسفهم فى جمع الضرائب انتدبت ثلاثة من
 علمائها ، هم الفلاسفة : كارنياد ، ديوجين ، كريتولاوس وبعثت بهم إلى
 روما ليتقدموا إلى مجلس الشيوخ بالشكوى ويقوموا بالدفاع عن حقوق
 الاتيين وهناك فى روما قد استغل هؤلاء الفلاسفة فرصة وجودهم فى
 العاصمة فقام كل منهم بسلسلة من المحاضرات ينشر فيها مبادئ الفلسفة
 الابيقورية ، وذاع فى روما خبر وجودهم وأقبل الناس على سماعهم ، وكان
 ذلك فى سنة ١٥٥ ق.م ؛ وقد دعر لوجود هؤلاء الفلاسفة شخصية لاتينية
 محافظة ، تلك هى شخصية كاتون ، فقام ينادى فى أعضاء مجلس الشيوخ
 أن اعطوا هؤلاء الفلاسفة ما يطلبون ودعوهم يعودون إلى بلادهم فذلك
 خير من انتظارهم هنا وإفسادهم للفقية من الرومان ^(١) ، وكانت هذه

(١) انظر ص ١٦٢ من كتاب

Histoire romaine par A. Mallet et J. Isaac

وانظر ص ٢٠ من كتاب

Histoire illustrée de la littérature latine par J. Humbert

الحادثة في أذيال صدور قانون من مجلس الشيوخ في روما يحرم على الفلاسفة وعلماء البلاغة من الاغريق البقاء في العاصمة الرومانية ، وصدور هذا القانون كان على وجه التحديد في سنة ١٦١ ق.م .

في ضوء هذا نستطيع أن نفهم مركز الطبقة المستنيرة من الاغريق في روما التي أصبحت بالنسبة لهم بمثابة الملجأ في الغرب بعد أن ضعفت أيتنا وخضعت سياسيا لسلطان الروم ، وفي ضوء هذا أيضا نستطيع أن نفهم لماذا أخذ العلماء والفلاسفة من الاغريق يهجرون الغرب ويفدون إلى الشرق جماعات وأفرادا .

ونحن لا نستطيع أن نمضي هنا في بيان الحضارة الاغريقية وتأثيرها في كل بلاد الشرق ، ولكن ينبغي أن نحدد بحثنا بالنسبة لبيئة العراق فقط بعد هذه الصورة المجملية التي قصدنا من ورائها إعطاء فكرة عامة عن مبلغ عناية اليونانيين حكما وأفرادا بنشر ثقافتهم في هذه الآفاق الواسعة الجديدة .

بعد أن اتفق قواد الاسكندر على تقسيم مملكته الواسعة فيما بينهم كان هذا الاتفاق في مدينة بابلون - *Babylone* على نهر الفرات - أصبحت أرض النهرين تابعة للمملكة التي تحكمها الأسرة اليونانية المعروفة باسم السيلويوسيد نسبة إلى *Seleucides* ، نسبة إلى *seleucos* الأول ، أحد أصدقاء وقواد الاسكندر المشهورين . وكان يتبع هذه الأسرة غير أرض النهرين سوريا ، وفلسطين ؛ وإيران ، وما يعرف الآن بأفغانستان وبلوخستان ، وجزءا من بلاد الهند . وهنا يحدثنا التاريخ أن سيلوكوس الأول الذي كان حاكما على تلك الاقطار ، رفض البقاء في مدينة بابل وأسس مدينة جديدة لتكون عاصمة للملكة على الضفة اليمنى لنهر دجله وعلى بعد عشرين

ميلا تقريبا جنوب الموقع الذي أسست فيه مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور . وهذه العاصمة الجديدة هي مدينة سلوقية ، ويحدثنا التاريخ كذلك أن سيليو كوس الأول قد قسم مملكته بينه وبين ابنه أنطيوخوس ^(١) . استقر هو في القسم الشرقي ، أي وادي النهرين والبلاد الواقعة في الشرق . وترك لابنه الجزء الغربي أي سوريا وفلسطين حيث أسس أنطيوخوس بدوره عاصمة له في شمال سوريا ؛ هي أنطاكية وبعد قليل قتل غيلة سيليو كوس فورث ابنه كل بلاد آسيا الاغريقية .

وفي حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد استقلت بلاد فارس وما يقع في شرقها واستمرت أرض النهرين تابعه لملوك سوريا حتى تزعزعت حكومة اليونانيين في كل آسيا الغربية . وسبب ذلك يرجع في الغالب إلى : ضعف شخصية الملوك ، تدخل الفسء في الحكم ، والتنافس بين الحكام ، أما أهل بلاد الشرق أنفسهم فيبدو أنهم اطمأنوا إلى حد ما إلى هذا المصير ، ما عدا الفرس الذين استمروا يناوئون اليونانيين ومن بعدهم الروم حتى جاء الفتح الغربى ففضى على الفرس كما قضى على الروم وجعل من بلاد الشرق وحده تحت حكمه اسلامية .

وليس لنا أن ندخل في تفصيل هذه الاحداث السياسية ، فتلك مهمة المؤرخ السياسى ، أما نحن فينبغى أن نعرف أن المسائل التى اتخذها اليونانيون للحياة ونشر الثقافة في وادى دجله والفرات هى نفس الوسائل التى كانوا يتخذونها في سائر البيئات الأخرى من تأسيس المدن وإنشاء المؤسسات العلمية ، وجلب العلماء وتوفير أسباب الراحة لهم حتى يمضوا في دراساتهم وفى انتاجهم ، وبالرغم من أن بيئة العراق هى أول البيئات الاغريقية في الشرق التى تعرضت للانحلال السياسى وضعف الجهاز الحكومى

والمناوشات الحربية مع جيرانها الشرقيين من الفرس فانها استطاعت أن تنهض بنصيبها وتمهد الوسائل لتأسيس الحضارة الاغريقية ونشرها بين كل السكان قبل أن تسقط نهائيا العاصمة - سلوقية - في يد الملك الفارسي ، متريدات الثاني الذي حكم من سنة ١٢٤ الى ٨٨ ق. م ، ومعنى هذا أن بيئة العراق قد استمرت تحت حكم الاغريق أكثر من قرنين من الزمن ، وهذه مدة ينبغي ألا نستهمين بها بالنسبة لنشر الثقافة اليونانية ومعرفة السكان بها وخصوصا إذا أدخلنا في حسابنا مع هذا عناصر الصلاحية في طبيعة هذه الثقافة واستعداد الشرق بوجه عام لقبولها . ولنحاول الآن أن نبين أهم الوسائل التي كان يلجأ إليها الاغريق في الدعاية لحضارتهم والعمل على انتشارها . ولعل أهم مظهر يتجلى فيه ذلك بوضوح هو تخطيط المدن وتأسيسها على الطراز الاغريقي من حيث المنشآت الدينية والعلمية والاجتماعية وفي هذا الميدان نجد أن العراق قد ساهمت بنصيب كبير ، فعلى نهر الفرات وحده انشأ اليونانيون مجموعة من المدن الهامة تمتد على طول مجراه من الجنوب الى الشمال ، من بين هذه المدن نذكر مدينه دورا - *Doura* التي أصبحت فيما بعد مدينة أوروبوس - *Europos* ، ومدينة تابساك - *Thapsaque* التي أصبحت فيما بعد مدينة أمفيبوليس *Ampopolis* ، وغير هذه المدن الواقعة على نهر الفرات نجد كذلك مدنا أخرى منتشرة في ثنايا الوادي لعل أهمها على الاطلاق هي مدينة سيليموسى *Sèleucie* الواقعة على نهر دجلة بالقرب من المكان الذى أنشئت فيه مدينة بغداد الحالية ، والتي اصطلح على تسميتها فيما بعد بسلوقية دجلة ، وليس من السهل ولا من المجدى كثيرا أن نتحدث على كل هذه المدن بالتفصيل ، لأن الحديث في الغالب سيكون مكررا معادا ، إذ انها صور من بعضها ، فهناك طابع عام واحد وهدف

مشترك بينها جميعاً ، وإذن فلنأخذ مدينة دورا *Donra* كنموذج للمدن اليونانية في أرض العراق وللنصيب الثقافي الذي تقوم به هذه المدن ، وللأثر الذي تركه كل مدينة في الحياة العقلية والاجتماعية ، فماذا عسانا نجد فيها ؟

نجد عدداً كبيراً من اليونانيين يعيش فيها ، ربما يصل الى نصف سكانها والباقي من الفرس والساميين : الفرس الذين كانوا أصحاب البلاد إدارياً منذ غزو كورش ، والساميين الذين كانوا يكونون السلالة الباقية من البابليين والآشوريين ، ثم من الآراميين فيما بعد .

نجد فيها معابد أنشئت على نمط المعابد اليونانية لاقامة الشعائر الدينية على النظام الاغريقي وبنفس العقائد التي كانت معروفة ومتبعة في أتيننا بما في ذلك من أعياد للزرع والحصاد ، واحتفالات وقرابين تقدم للالهة ، وإذن فكل الميثولوجيا الاغريقية كانت تعرف وتمارس عملياً هناك .

نجد فيها مسرحاً تمثل فيه المسرحيات الدينية والأدبية مثل ما كان يصنع اليونانيون في أتيننا أو في سائر المدن الاغريقية الاخرى ، وهذا يرينا أن الفن والادب المسرحيين لم يكونا مجهولين عن هذه المدينة ولا عن سكانها بل اننا سنرى بعد قليل أن الفن والادب المسرحيين بقيا يمارسان في بيئات عراقية أخرى حتى بعد أن غزا الفرس بلاد العراق ودخلوا في حروب مع الروم .

نجد فيها مدارس لتعليم اللغة اليونانية ودراسة العلوم البلاغية والفلسفية سواء أكان ذلك لأولاد الجالية الاغريقية نفسها أم لأولاد الطبقة الارستوقراطية من السكان الاصليين ، وأغلب الظن أن مناهج الدرس كانت وفق النظم التعليمية المتبعة في معاهد العلم من بلاد الاغريق . وهذا يرينا إلى أي حد كانت كل مدينة اغريقية في الشرق تصور الحياة الفكرية عند

الاغريق بجانب تصويرها للحياة الاجتماعية ، وتساهم بنصيب في تأسيس الحضارة اليونانية ونشرها والمحافظة عليها .

نجد كذلك مجموعة كبيرة من الكتب قد نسخت على الجلود التي كانت تصنع في برجام أو على ورق البايروس الذي كان يصنع في مصر . وذلك يساعد على تصور مبلغ النشاط العلمي لا من ناحية الدراسة فقط ، ولكن من ناحية الانتاج أيضا .

ولحسن الحظ قد أبقى الزمن آثار كل ذلك حتى اكتشفها المنتقبون في هذا العصر الحديث . وقد قطع هذا سبيل الشك على الفكرة القائلة بأن الحضارة الاغريقية لم تعرف بشكل واسع في بيئة العراق إلا في العصور المسيحية الاولى وعلى أيدي السريان فقد أثبت هذا الكشف فساد هذه الفكرة ، بل رجح الفكرة المناقضة وهي أن هؤلاء السريان أو أجدادهم من الآراميين بالمعنى الدقيق قد عرفوا الحضارة الاغريقية ورأوا معالمها ودرسوا آثارها في بيئة العراق قبل أن يعرفوها ويدرسوها في بلاد الاغريق نفسها ، ثم إن اتصالهم بالاغريق في آسيا الصغرى وعلى الخصوص في وادي الرافدين كان أكد وأدوم من اتصالهم بالاغريق في شبه جزيرتهم ، ومن المرجح أن اصطلاح السريان الذي اختاره الآراميون لأنفسهم بعد اعتناقهم للديانة المسيحية لكي يهجروا اصطلاح - آرامي - الذي يذكر بالديانة الوثنية ، نقول إن اختيار الآراميين لهذا الاصطلاح ، وهو اصطلاح يوناني كان يطلقه الاغريق على الآراميين . لم يكن إلا عن طريق صلتهم بالاغريق في الشرق . في مدينة دورا ، التي نتحدث الآن عنها ، وفي كل المدن اليونانية في وادي دجلة والفرات ، بل وفي المدن الهامة الاخرى كانت اللغة اليونانية هي لغة الحديث أيضا بجانب كونها لغة الكتابة والعلم

بين الطبقة الأرستقراطية كلها وبين كثير من عامة الشعب من غير اليونانيين
ولذلك أثره في حياة الناس الخاصة والعامة . في كل هذه المدن كانت القوانين
المستعملة هي القوانين اليونانية وليدة البيئة والفكر اليوناني . في كل هذه
المدن كانت المؤسسات العامة من وحي الفن اليوناني ، ومن عمل المهندسين
اليونانيين . في كل هذه المدن أخيرا كان الناس على علم بالآداب اليونانية ،
والمعارف اليونانية ، وكانت الديانة اليونانية وما تحمل معها من أساطير
وتعاليم منشرة بشكل عظيم . من هذا نرى أن الاغريق في بيئة العراق
كانوا يعيشون عيشة لا تكاد تختلف عن حياتهم في بيئتهم الأولى وأنهم لم
يكونوا في عزلة عن سكان البلاد الأصليين ، فمن طبيعتهم الاختلاط
والاتصال ، ولم يكن اتصالهم قاصرا على الطبقة الارستوقراطية أو السادة ،
كانوا يتصلون بكل طبقات الشعب في معارفهم وفي معاملاتهم ، إذ أنهم لم
يفدوا إلى هذه البلاد ليكونوا حكاما فقط باسم بلادهم وحكومتهم ، همهم
جباية الضرائب ونقل الثروة إلى شبه جزيرتهم شأن غيرهم من المستعمرين
ولأنما وفدوا ليستقروا ويعيشوا ، وفي ذلك تصديق للفكرة القائلة بأن
الاغريق فتحوا العالم وأعينهم في السماء ، وقد جاء الروم من بعدهم فغزوه
وأعينهم في الأرض . وفي ذلك من غير شك تحقيق للرغبة التي كانت تخامر
نفس الاسكندر الاكبر ، وتنفيذ لمشروعاته الثقافية العريضة . وبعد ذلك
لا يجد الباحث عسرا في تصور أثر المدن الاغريقية في بيئة العراق ، ولا
أثرهم في سكان العراق الذين خالطوهم واتصلوا بهم عن طريق مباشر .

هذه الحالة التي وصفناها في البلاد الآسيوية عامة وفي أرض النهرين
خاصة لم تستمر وقتا طويلا بعد الفتح كي تصور مظاهر النهضة الاغريقية
تصويرا شاملا صادقا ، وبقيت أرض النهرين تحت حكم ورثة الاسكندر

مستقلة أولا ، وتحت حكومة سوريا ثانيا ، وفي هذا النشاط العلمي حتى القرن الأول قبل الميلاد ، أى ما يقرب من ثلاثة قرون ، وهذه مدة كفيلة بتنشئة أربعة أجيال فى أحضان الثقافة اليونانية ، ولذلك فقد كان طابع تلك الثقافة فى آسيا قويا غير أنه ليس من السهل أن يتصورها من لم يدرس دراسة تحليلية تاريخ اليونان فى الشرق ويتتبع آثارهم العلمية ، والأدبية ، والفنية فى كل تلك البلاد المفتوحة منذ دخولهم فيها حتى تغلب الروم عليهم وحتى هؤلاء الروم لم يحاولوا استبدال الأغريق أو الأضعاف من شأنهم فى بلاد عرفوها وطبعوها بطابعهم الخاص من الناحية اللغوية والعقلية والعلمية ، وإنما أبقوا عليهم واستعانوا بهم واكتفوا لأنفسهم بأدارة الجهاز الحكومى وجمع الضرائب المختلفة بوسائلهم الشرهة المجحفة المعروفة .

صحيح أن بيئة العراق لم تستقر سياسيا خلال هذه القرون الثلاثة ، إذ أنها تعرضت فى بعض الفترات لنزاع من هذا النوع بين الحكام اليونانيين وشعب الفارثيين *Parthes* ، الذى كان يقيم فى منطقة خراسان واستقل فى حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، ولكنها بالرغم من هذا النزاع السياسى قد بقيت محافظة على مظاهر الحياة الاجتماعية اليونانية ، وحريصة على أبحاثها العلمية والأدبية . وهذا يفسر لنا كيف كان السريان مقتفين آثار الثقافة اليونانية وحريصين على تراثها العلمى ، ويفسر لنا كذلك كيف وجدت فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح مدارس فى أرض النهرين تعلم فيها العلوم باللغة اليونانية وتدرس فيها آثار الثقافة اليونانية . فقد يزول السلطان السياسى لشعب من الشعوب ، كما ذكرنا آنفا ولكن آثاره العقلية تبقى ماثلة من بعده قرونا طويلة . ومن هنا ندرك مرة أخرى الفرق بين مهمة المؤرخ السياسى ومؤرخ الحضارة ، الأول يذكر الأحداث السياسية

ويعلمها ويقارنها ثم يسجل نتائجها القريبة والبعيدة ، أما الثاني فإنه ينفذ من خلال كل ذلك ولا يقف عنده إلا ريثما تتبين له الصلة بين السياسة والحضارة أو بمعنى آخر بين أنظمة الحكم وإنتاج العقل ، ثم هو يمضى بعد ذلك في تعرف هذا الانتاج من حيث النشأة ، والمكانة الأدبية التي يمكن أن يكون قد وصل اليها إذا ما قورن بآنتاج غيره أو بمظاهر حضارة أخرى ومؤرخ الحضارة في كل هذا ليس مقيدا بتواريخ معينة ولا بأزمنة محدودة وربما لا يتقيد كذلك بإمكانة خاصة ، فهو رخ ظاهرة القانون في حضارة من الحضارات مثلا ، أو مؤرخ ظاهرة الأدب النقدي على السنة الحيوانات والطير قد تضطره طبيعة البحث إلى أن يرجع الى الوراأ أجيالا ، وأجيالا ويطوف ببيئات مختلفة وشعوب متباينة . مؤرخ هذه الظاهرة في الحضارة الفرنسية لا يقف عند - لافونتين ^(١) - Lafontaine ، وإنما يذهب إلى روما القديمة حيث - فيدر - Fedre ^(٢) ، وإلى أثينا حيث - ايزوب ^(٣) - Esape ، ثم

(١) لافونتين ، شاعر فرنسي ولد سنة ١٦٢١ وتوفي في باريس سنة ١٦٩٥ ، وله مجموعة الاساطير المنظومة شعرا تحت عنوان - Fables ، وقد نظمها في نحو خمسة عشر عاما وتقع في أحد عشر كتابا .

(٢) فيدر Fedre ، شاعر لاتيني ولد سنة ٣٠ ق . م وتوفي سنة ٤٤ بعد الميلاد ، وقد حرره من الرق الامبراطور أغسطس وهو صاحب مجموعة الاساطير المنظومة على السنة الحيوانات ينتقد فيها المجتمع وما كان فيه من أسراف في مختلف النواحي .

(٣) ايزوب Esape ، أحد الادباء اليونانيين المشكوك في وجودهم بالرغم من أن المؤرخ اليوناني هيرودوت يتحدث عنه كشخصية معروفة مشهورة . والشهرة التي عرف بها هو أنه من رقيق الشرق الوافدين الى بلاد اليونان ثم حرر واشتهر بالمسكر والدهاء وسبك الخيلة . وأثر عنه كذلك أنه ألف مجموعة من الاساطير على السنة =

إلى بيئة الفرس ومنها إلى بيئة الهند أو بيئة سومر حيث تقف هذه الظاهرة
الأدبية أو حيث يقف علمنا بها على الأقل ، وكذلك مؤرخ ظاهرة الشعر
القصصى في نفس الحضارة الفرنسية لا يقف عند فيكتور هوجو^(١) ولا عند
تورولدوس^(٢)

= الحيوانات يتتقد فيها المجتمع ومن يثبت وجوده يذكر أنه كان يعيش في عهد كيزوس
Cresus ، آخر ملك يوناني لمنطقة ليديا ، وقد عاش هذا الملك في خلال القرن
السادس قبل الميلاد . وما ينبغي أن يعرف هنا أيضا هو أن الذي جمع ونظم مجموعة
أساطير ايزوب إنما هو ديمتريوس الفاليري - *Demetrius de phaler* ، وذلك في
حوالي سنة ٣٢٠ قبل الميلاد . ثم أن هذه المجموعة من الأساطير قد نظمها شعرا
شاعر يوناني آخر اسمه بابريوس *Babrius* في خلال القرن الثالث الميلادي وقد
بقى هذا النظم غير معروف حتى سنة ١٨٤٣ حيث اكتشفت في أحد الأديرة في
جبل أثوس - *Athos* في الجنوب من بلاد مقدونيا .

(١) فيكتور هوجو ، من رجال الادب البارزين في فرنسا ولد سنة ١٨٠٢
وتوفي عام ١٨٨٥ م ، وله ضمن مؤلفاته العديدة ملحمة من نوع الشعر القصصى
تسمى - أسطورة العصور *Legend des siecles* نظمها فيما بين سنتي ١٨٥٩
و ١٨٨٣ م وهذه الملحمة تقع في أربع مجلدات ، حاول الشاعر فيها أن يرسم صورة
الحياة الانسانية في أدوارها المختلفة ، منذ الظلام والخليقة الاولى حتى عصر النور
بما في ذلك من خرافات ، وتاريخ ، وفلسفة ، وعقيدة ، وعلم .

(٢) تورولدوس - *Turoltus* ، شاعر فرنسي من أقليم النورماندى وقد عاش
في القرن الثاني عشر الميلادي ، والراجح أنه صاحب الملحمة المعروفة باسم اغنية
رولاند - *Chanson de Roland* ، يتغنى الشاعر في هذه الملحمة ببطولة أحد الفرسان
الفرنسية الذين كانوا مع الملك شرلمان أثناء حروبه مع العرب في أسبانيا : انتهت
الحرب بهزيمة شرلمان فأخذ في التقهقر إلى الشمال ، ولما كان في بلاد الباسك هاجمه
اهلها من أعلى الجبال وحاصروهم فأظهر الفارس البطل رولاند شجاعة وجرأة حتى بها
مؤخرة الجيش من الحصار .

وإنما يرجع إلى فيرجيل (٣) ولو كانوس (٤) في الأدب اللاتيني ،
ومنها يعود إلى هوميرو في الأدب اليوناني (٥) ثم ينتقل الى الماضى

(٣) فيرجيل ، ابرز شاعر لاتينى دون شك ، نظم الشعر فى أهم أغراضه : الغنائى
والتعليمى والقصصى ، وكانت عنايته بسلامة اللغة وصحة العبارة لا تقل عن عنايته
بقوة المعنى ، وأهم وسائله فى الوصول بالشعر الى أسنى مكانة هى الصبر وحسن
الاختيار . وهو صاحب ملحمة مشهورة تسمى بالآينياده ، ومات قبل أن ينهيها
ويهبها للنشر ، وموضوع هذه الملحمة هو الحديث عن أصل الشعب اللاتينى والأدوار
التي مرت به حتى تكون . وتقع هذه الملحمة فى اثنى عشر جزءا يتحدث فيها عن
البطل الطروادى - آينيه - كيف ترك طرواده واخترق البحر الأبيض المتوسط ،
وكيف القت به السفينة فى شمال افريقيا ، وأخيرا كيف وصل الى ايطاليا واتصل عن
طريق المصاهرة بأحد ملوكها ثم كيف تكون من سلالة الشعب اللاتينى :

(٤) لوكانوس *Lucanus* ، شاعر لاتينى من شعراء القرن الاول الميلادى ، وهو
من أصل اسباني ولد فى مدينة قرطبه سنة ٣٩ م ونشأ فى مدينة روما ولقت الانظار
بقوله الشعر الجيد وهو صغير فقر به الامبراطور نيرون الى قصره وحينما وجد بينهما
شئ من التنافس فى قول الشعر طرده الامبراطور فغاض ذلك لوكانوس فانضم الى
أعداء نيرون السياسيين وكان ضمن مؤامرة قد دبرت للأمبراطور ولما كشف أمر هذه
المؤامرة حكم على لوكانوس بالأعدام على الطريقة الرومانية المعروفة ، ذلك أن يقطع
بنفسه شرايين يده ويترك الدم ينزف حتى يموت ، وبهذه الطريقة مات لوكانوس فى
روما سنة ٦٥ م وهو صاحب ملحمة مشهورة باسم فارسال *Pharsale* ، وموضوع
هذه الملحمة هى الحرب بين قيصر وبومبي التي انتهت بانتصار قيصر ، وبانتهاء هذه
الحرب انتهى أيضا عهد الحكم الجمهورى فى روما . وقد سميت الملحمة باسم المدينة
التي حصلت فيها الموقعة الفاصلة بين قيصر وبومبي سنة ٤٨ قبل الميلاد .

(٥) هوميرو شاعر يونانى مشكوك فى وجوده أيضا ، ولكن المعروف أنه وجد
فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وتصوره الروايات شيخا أعشى هرما متنقلا من مدينة
إلى أخرى يقص على الناس أشعاره القصصية ، وينسب اليه أقدم ملحمتين فى الادب

البعيد في بيئة البابليين والسومريين حيث ملحمة جلجاميش^(٦) . وهكذا
داوليك في سائر الظواهر الهامة الأخرى من علم وأدب وفن لا يتقيد
مؤرخ الحضارة فيها بزمان ولا بمكان :

وإذن لم يكن ضياع سلطان اليونانيين من وادي دجلة والفرات على
يد القبائل المقيمة على حدود العراق من الشرق والشمال قاضيا على الثقافة
اليونانية التي تمكنت أصولها من البيئة ، وإنما استمرت تحافظ على كيانها
وتستمد ما كانت في حاجة إليه من مدينة برجام *Pergame* ، أهم مركز
لثقافة اليونانية في آسيا كلها . ولنلق الآن نظرة عاجلة أخيرة على مدينة
دورا التي اتخذناها مثلا للندن اليونانية الأخرى في بيئة العراق ؛ زال سلطان
الآغريق عن هذه المدينة ، ووقعت تحت حكم الفارتيين ، ولكنها استمرت يونانية
في لغتها وفي ثقافتها حتى بعد أن انتشرت الديانة المسيحية ، واعتنقها سكانها
من اليونانيين وغيرهم . وفي خلال القرن الثالث الميلادي نجد هؤلاء السكان
يقومون بعمل له دلالة البعيدة . ذلك أنهم ترجموا كتاب الديايطسرون ،

= اليوناني هما : الألياذه ، والاولديسا ، موضوع الاولى أبحار اليونانيين الى مدينة
طرواده في آسيا الصغرى ومحاربتهم لأهل طرواده لكي يستخلصوا سيدة يونانية
اغتنبها ابن ملك طروادة ، وموضوع الثانية هو أبحار - أوليس - أحد ملوك
اليونانيين الذين اشتركوا في حرب طرواده ، إلى شبه الجزيرة اليونانية ، وقد قامت
عواصف شديدة في البحر فضلت به السفينة الطريق ثم حدثت له في رحلته أحداث
ومفاجآت عجيبة وبقي في ذلك التيه حتى وصل أخيرا إلى مملكته . ويقال أن هذه
القصص كانت معروفة قبل هوميروس ولكنه هو الذي جمعها ونظمها ،

الذي تقدمت الإشارة إليه منذ قليل ، من السريانية إلى اليونانية ، لكي يكون مرجعهم الديني ومرشدهم في إقامة الشعائر الدينية على اختلافها . وهذا يدل بوضوح على أن لغة سكان هذه المدينة في القرن الثالث الميلادي كانت اليونانية وأن درايتهم بغيرها من اللغات كانت منعدمة أو على الأقل سطحية بسيطة . ولم يكن يعرف عن هذه الترجمة اليونانية شيء حتى سنة ١٩٣٢ م ، ولكن بعد هذا التاريخ مباشرة اكتشف المنقبون في مدينة دورا أيضا ورقة من الرق تشتمل على أربعة عشر سطرا من الديايطرون باللغة اليونانية فعرفت بذلك هذه الترجمة .

وبعد القرن الثالث الميلادي لم تطمس معالم الثقافة اليونانية من مدينة دورا ، بل استمرت في وسط نشاط السريان وبين مدنهم العلمية تمثل مركزا هاما في الشرق من المراكز التي تلتقي فيها الثقافة السريانية والثقافة اليونانية (١) وشأن مدينة دورا في بيئة العراق هو شأن غيرها من المدن الآغريقية في طوال الوادي وعرضه ، بل إن التنافس بين هذه المدن في الاحتفاظ بالثقافة الآغريقية والعمل على نشرها قد تجاوزها ووصلت عدواه إلى المدن الأخرى التي كان سكانها من الفرس والساميين (٢) .

وهنا يجب ألا يغيب عنا أن الثقافة اليونانية في الشرق قد أخذت صوراً عدة ، ومصدر ذلك البيئات المختلفة فهي في الاسكندرية غيرها في أنطاكية وهي في بروجام غيرها في العراق أو في بابلونيا ، إذ كان وجود اليونانيين

(١) انظر تاريخ الأدب السرياني بقلم دكتور مراد كامل ، دكتور محمد اليكزي

ص ٥٤ - ٥٥

(٢) انظر

Nouvelle Histoire grecque par Ropert Cohen page 371-372

حافظوا على إحياء الثقافات القديمة في هذه البيئات ، وذلك لسببين هامين :
الأول رغبة الطبقة المستنيرة من الأغريق في التعرف على هذه الثقافات
الشرقية وإدراك كنهها ، الثاني نوع من التعصب والشعور بالقومية عند
المثقفين من أهل البلاد وخصوصا طبقة رجال الدين ، وكان ذلك بمثابة
رد فعل أحدثه نشاط الثقافة اليونانية في هذه البلاد .

وما دامت العراق هي التي تهتمنا في هذا البحث دون سواها فجدد بنا
أن نعرف أن بابيلونيا صارت في وسط المدن اليونانية الجديدة بمثابة مركز
هام للثقافات الشرقية القديمة ، التي هي تراث السومريين والآشوريين والفرس
فكان فيها أكبر الآلهة ، ماردوك ، وظلت عقائده وأنظمة عبادته ، وأعياده
معروفة ومعمولا بها طوال حكم اليونانيين ، وظلت فيها كذلك الأبحاث
الرياضية والطبيعية والفلكية دون فتور . وهكذا كانت مدينة بابل في وسط
المدن اليونانية بالنسبة لمحافظةها على التراث الثقافي القديم أشبه شيء بمدينة
هيليوبوليس ، وبمفيس ، وطيبة في وادي النيل بجانب مدينة الاسكندرية
التي كانت أهم مركز للثقافة الأغريقية .

ولم تكن هذه العوامل التي تعرضنا لذكرها حتى الآن هي وحدها التي
مهدت السبيل لاستقرار الثقافة اليونانية وانتشارها في بيئات الشرق ، ولكن
هناك عاملا آخر أجل من كل ذلك شأنا وأعظم خطراً ، ذلك هو ما كانت
تسم به الثقافة اليونانية نفسها من سمات القوة والعظمة ، وما كان يملؤها
من المبادئ الانسانية العامة ، ثم ما تشتمل عليه من دواعي الأغراء ،
سواء أكان ذلك في مظاهر الفن أم في معالم الأدب أم في آفاق الفلسفة ،
ولعل أهم تلك الدواعي هي التنوع والغزارة في الانتاج العقلي والخيالي
والعاطفي ، ثم ما كان يتجلى به ذلك الانتاج من حرية الفكر وصراحة

التعبير والبعد عن الملحق السياسي والتفاهق الاجتماعي ، وأخيرا ماوفق إليه ذلك الانتاج في كثير من مظاهره إلى الوصول إلى المثل العليا التي كانت تطمح إليها البشرية في العالم القديم والتي لاتزال حتى الآن تتخذ نبراسا يهتدى به رجال الفن والأدب والرياضة .

لقد وفدت هذه الثقافة إلى الشرق وهي في أوج عظمتها فكانت بمثابة طور طبيعي ومرحلة نهائية لما كان يعرفه الشرق من علم وفن وأدب ؛ ولذا لم يجد أهل الشرق عناء في أن يمارسوا هذه الثقافة ويحاكوا أهلها في إنتاجهم ومعارفهم ، بل أقبلوا طواعية يدرسونها ويفهمونها ويندمجون فيها كأنما نبتت في أرضهم أو تمت إليهم بسلب .

لقد جاءت الفلسفة اليونانية غنية بأفكارها ومعارفها إلى الشرق وفيها منهج البحث عن الحقيقة المجردة ناضجا واضحا ووسائل الوصول إلى تلك الحقيقة ممهدة منضبطة ميسورة ، وجاءت الأبحاث اللغوية متعددة شاملة وقد خدمتها الحركة السوفسطائية أجل خدمة فوضعت الاسس الأولى لعلم النحو ووصلت بالعلوم البلاغية - بحث ومناظرة وبيان وبديع - إلى درجة السكال ، وجاء الشعر اليوناني وهو يشتمل على كل الانواع الشعرية المعروفة إذ ذاك ، ليست على حالتها البسيطة كما رأيناها عند البابلين والاشوريين ولكنها غنية رائعة ، وجاء الفن الاغريق بمظاهره العديدة وفيه أكمل النماذج وأدق المقاييس للذوق والجمال وجاء النثر مليئا بالأبحاث ومشملا على عنصريه الاساسيين : العنصر العلي والعنصر الأدبي ، وهو يمثل على الخصوص في أبحاث التاريخ والجغرافيا والطب . أما الفلسفة وأبحاثها ووسائلها فكانت ممثلة فيما خلفه فيثاغورس^(١) .

(١) انظر ص ١٣٠ من كتابنا هذا - العراق وماتوا إلى عليه من حضارات .

(١) يعتبر أرسطو من أشهر فلاسفة الاغريق ومن أكثرهم إنتاجا من ناحية الكم ومن ناحية الكيف معا. ولد في مدينة ستاجير من مقاطعة مقدونيا سنة ٣٨٤ ق.م ونشأ في وسط ارستقراطي إذ أن والده كان طبيبا خاصا للملك مقدونيا أمينتاس الثاني *Amyntas II* ، وفي سنة ٣٦٧ ق.م ذهب أرسطو إلى أثينا كي يتم تعليمه وكان سنه إذ ذاك سبعة عشر عاما؛ وفي نفس السنة مات والده وترك له ثروة مالية كبيرة وهناك في أثينا تتلمذ أرسطو على العالم البياني والخطيب البليغ — إيزوقراط — *Isocrates* الذي فضل الموت جوعا على أن يعيش في العبودية والذل تحت حكم الغاصب فيليب، ملك مقدونيا، الذي هزم الاتينيين في سنة ٣٣٨ ق.م وضم عاصمتهم إلى ملكه، بقى أرسطو تلميذا لهذا الخطيب حتى رجع أفلاطون إلى أثينا من صقلية سنة ٣٦٥ ق.م، ومنذ عودة أفلاطون أصبح أرسطو تلميذه المحبب إليه مدة ثمانية عشر عاما، أي حتى وفاة أفلاطون سنة ٣٤٧ ق.م، ومن هذا التاريخ حتى سنة ٣٤٢ ق.م اشتغل أرسطو بالأسفار وبعض الانتاج العلمي. وفي سنة ٣٤٢ ق.م يستدعيه فيليب، ملك مقدونيا، ليكون استاذا خاصا لابنه الاسكندر الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فيذهب أرسطو إلى مقدونيا ويستمر في صحبة الاسكندر حتى يعد حملته لغزو الشرق في سنة ٣٣٥. وهنا يترك الاسكندر في غزواته الحربية ويذهب هو إلى أثينا فينشئ مدرسة خاصة في الفلسفة ويشغل بالتعليم والانتاج، وبعد موت الاسكندر في الشرق يوجد رد فعل سياسي في أثينا فيثور الاتينيون ضد الحكم المقدوني وضد من كان يناصر هذا الحكم؛ وهنا يحدد الخطر بأرسطو ويخشى على حياته من الاتينيين، إذ أنه كان مقدوني الاصل والنشأة وكان صديقا للملك فيليب وأستاذا لابنه الاسكندر، ولقد كان أبوه الطبيب الخاص لجد الاسكندر، الملك أمينتاس الثاني لهذه الأسباب يترك أرسطو أثينا سنة ٣٢٣ ق.م ويعتزل في مدينة كاليبس *Chalcis*، وفي السنة التالية، سنة ٣٢٢ ق.م يصاب بمرض فيموت منه.

وكانت فلسفة أرسطو صدى لفلسفة أستاذه أفلاطون كما أن ثقافة الاسكندر =

= لا كبر صدى لثقافة أرسطو . ويمكن تلخيص فلسفة أرسطو في البحث عن الحقيقة وطريقة البحث في تلك الحقيقة تنحصر في الفكرة العامة التي تجمع بين الأشياء المتشابهة . ولعل أهم شيء يفرق بين التلميذ وأستاذه هو أن أفلاطون يحاول أن يخضع كل الأفكار إلى الفكرة العليا ، فكرة الخير ، أما أرسطو فكان يتخذ له منهجا آخر فيرى الاستقلال التام بين الأفكار ففكرة الشر لا تخضع لفكرة الخير وإنما لكل منها حقيقة مستقلة يجب البحث عنها ومحاولة الوصول إليها .

وقد ترك أرسطو مجموعة عظيمة من الكتب ولكن بعضها لم يفسر إلا بعد موته بنحو ٢٥٠ سنة ؛ وقد تناولت مؤلفات أرسطو كثيراً من الموضوعات المختلفة فمنها ما هو خاص بالشعر ومنها ما هو خاص بالبيان ، ومنها ما هو خاص بالخطابة ومنها ما هو خاص بالفلسفة ، وليس من السهل هنا أن نتناول كل مؤلفاته بالتفصيل ولكننا نستطيع أن نجملها في ست مجموعات : ١ - مجموعة شعره ، ٢ - خطبه ؛ ٣ - مجموعة خطاباته أو مراسلاته ؛ ٤ - مجموعة محاوراته ؛ ٥ - مجموعة كتبه العلمية ؛ ٦ - مجموعة كتبه الخاصة بالبحث عن العلم الحقيقي ، وأغلب هذه المؤلفات كانت معروفة للأجانب خارج أتيننا ؛ بل أن بعضها قد عرف وحفظ في خارج أتيننا ، ثم اشترى ونسخ ليحفظ في العاصمة الإغريقية ، مثل ما حدث في مدينة من آسيا الصغرى تسمى تيوس Teos .

(١) يعتبر أفلاطون أكبر خليفة لسقراط وهو لا يزال حتى اليوم واحداً من أساتذة الفن والعقل الخالدين . فهو كفيلسوف المؤسس الحقيقي لمبادئ المثالية ، وككاتب أمهر مفسر في النثر الإغريقي . ولد أفلاطون في أتيننا سنة ٤٢٨ ق.م من أسرة نبيلة وقد عرف من صغره بكثرة دراساته في فنون المعرفة فتعلم الرياضة ، والموسيقى والرسم ، ثم أقبل على تعلم الأدب فكانت باكورة إنتاجه في هذا نظمه مجموعات من الشعر الغنائي ثم مجموعات أخرى من الشعر المسرحي ، وبعد ذلك اتجه إلى دراسة أصول المعرفة أي الدراسة الفلسفية ، وكل ذلك كان قبل أن يصل إلى سن العشرين =

= وحينما وصل إلى سن العشرين تلاقى مع سقراط للمرة الأولى ، ومنذ ذلك التاريخ ،
 أى حوالى سنة ٤٠٨ ق.م ، يستمر أفلاطون ملازما لسقراط حتى يقع هذا الأخير
 ضحية لغضب الأتينييين وثورتهم عليه ، ونحن نعلم ما كان من نهايته ، ولكن
 أفلاطون لم يستطع أن يكون بجانب أستاذه فى ساعة محنته كسائر التلاميذ ، إذ أنه
 كان مريضا . وبعد موت سقراط أصبحت الإقامة فى أثينا لا تطاق بالنسبة لأفلاطون
 إذ أن شرر الغضب فى أثينا لم يقتصر على قتل سقراط بل بدأ يتطاير فيدرك أتباعه ،
 ولهذا فقد رأى أفلاطون أنه لا بد من ترك أثينا فغادرها ومكث بعيداً عنها نحواً من
 اثنى عشر عاماً قضاها ما بين ليبيا وإيطاليا ومصر . وفى خلال هذه الأسفار فى تلك
 الاقطار المختلفة اتصل أفلاطون بكثير من العلماء والادباء والفلاسفة ورجال الدين ،
 ولهذا فإن نتيجة هذه الأسفار كانت عظيمة الاثر على أفلاطون بالنسبة لا فكاره
 ومعارفه وفلسفته . وبعد زمن قصير قضاه فى صقلية عاد أفلاطون إلى أثينا وكان
 سنه إذ ذاك نحواً من أربعين سنه . وهناك بدأ يذشر معارفه بين أتباعه وتلاميذه
 ويعلم فلسفته فى المعهد الاكاديمي ، إذ اعتاد الاساتذة أن يجتمعوا بتلاميذهم فى
 أوقات عديدة وفى حلقات حرة ، هى أبعد ما تكون عن النظام المدرسى المعروف ،
 فكان الاستاذ يجتمع بطلابه يتحدث إليهم ويتحدثون إليه ، يناقشهم ويناقشونه
 ويتبادلون الرأى فيما بينهم وربما أقيمت وليمة من وقت إلى آخر فكانت فرصة أخرى
 تجمع بين الاستاذ وطلابه على المائدة كما تجمع بينهم حلقة الدراسة . واستمر أفلاطون
 على هذا الحال فى أثينا لم يغادرها إلا فى فترتين قصيرتين ذهب فيها إلى جزيرة صقلية
 الاولى فى سنة ٣٦٧ ، والثانية فى سنة ٣٦١ ق.م . وفى سنة ٣٤٧ ق.م يموت أفلاطون
 ولم يكن قد تزوج فترك ميراثه لاهد تلاميذه وهو ابن أخيه أو أخته ، ثم يؤول
 أمر تلك الثروة فيما بعد إلى تلاميذ ذلك الوارث ، أما بيت أفلاطون فإنه أصبح
 مدرسة تعلم فيها العلوم على اختلافها .

ويعتبر أفلاطون من أكبر المؤلفين الاغريق بالرغم من أسفاره الطويلة ومن
 حياته المضطربة فى كثير من الاحيان ، فقد وجد له نحو من اثنين وأربعين مؤلفا
 هلى شكل محاورات تبحث فى موضوعات مختلفة ، ونحو من ثلاثة عشر رسالة =

وأما الأبحاث اللغوية فكانت ممثلة فيما تركه أساتذة السوفسطائيين أمثال
بروتاجوراس .^(١)

= ومجموعة من التعاريف المتنوعة ، وهذا عدا مؤلفات أخرى أقل قيمة من ذلك ،
وأغلب هذه المؤلفات كان معروفا عند القدماء في الغرب وفي الشرق وبقي معروفا
حتى الوقت الحاضر ، وأفلاطون من الاغريق القلائل الذين لم يذهب الزمن بأثارهم
العقلية .

^(١) كان مولد بروتاجوراس *Protagoras* في مدينة « أبدير » الواقعة شمال
بلاد الاغريق على شواطئ بحر إيجه في حوالى سنة ٤٨٥ ق.م ثم اشتغل في سن مبكرة
بدراسة الفلسفة ، وهو من المؤسسين لحركة السوفسطائية عند الاغريق ، تلك الحركة
التي ليست في الواقع سوى رد فعل للدراسات الفلسفية في أتيننا ، تلك الدراسات التي
صرفت الناس عن الماديات والحياة الواقعية وانطلقت بهم وبأفكارهم إلى ما وراء
الطبيعة يبحثون عن الحقيقة المجردة وعن أصل الخلق ، وعن المثل العليا . قام هذا
الفيلسوف بمجهود كبير للقضاء على الفلسفة القديمة وبدأ ينشروىؤسس مبادئ الحركة
السوفسطائية ، ومن مبادئه المشهورة : العالم الخارجى ليس إلا مجموعة أفكار يكونها
الإنسان لنفسه عن هذا العالم أو بمعنى آخر أن الحقيقة في حد ذاتها لا وجود لها وإنما
هو الإنسان الذى يتصورها ويوجدتها ، وإذن فالحقيقة أمر نسبي ، فما نراه نحن حقيقة
قد لا يراه غيرنا ، وما كنا نراه بالامس حقيقة قد لا نراه اليوم . وكذلك كان يرى
بروتاجوراس أن موضوع الكلام لا يمكن أن يكون فى حد ذاته حسنا أو قبيحا ،
ولنما يأخذ حسنه أو قبحه من شخص المتكلم ومن قدرته على ابرازه فى الثوب الذى
يحيكه من أجله . ولقد جاء هذا الفيلسوف إلى أتيننا ينشر مبادئه الجديدة التى وجدت
رواجا عظيما بين الشبان الذين كانوا يطمعون فى الوصول الى المناصب الحكومية عن
طريق الخطابة البليغة والتعبير الجميل والاقناع ولو عن طريق خديعة العقول . وفى
سن السبعين أى حوالى سنة ٤١٥ ق.م وجهت اليه تهمة الخروج عن الدين وحكم عليه
بالنفي من أتيننا ، ولكنه لم يعيش بعد هذا الحكم طويلا فمات غرقا . وقد ترك هذا =

= السوفسطائي جملة مؤلفات لم يبق منها سوى بعض فقرات لا يمكن أن تعطى وحدها صورة واضحة عن مؤلفها . وأهم هذه المؤلفات كتاب سماه « الحقيقة » وكتاب آخر موضوعه « البحث والمناظرة » ولكن عنوانه لم يعرف بالدقة ، وبفضل رسالة من رسائل أفلاطون أمكننا أن نعرف الكثير عن بروتاجوراس وعن طريقته في الدرس والاقناع . ورسالة أفلاطون مؤلفه على نظام الحوار ومسماه باسم السوفسطائي نفسه « بروتاجوراس » . وبالرغم من أن أفلاطون قد قصد من وراء رسالته التهم على السوفسطائيين وهدم مبادئهم ونظرياتهم إلا أننا نستطيع أن نستخلص منها أن بروتاجوراس في طريقته التعليمية كان يقص على تلاميذه أولاً قصة خرافية أو أسطورة رمزية ثم يلقي على هذه الأسطورة أو القصة محاضرة ويعقبها بشرح وتعليق مستشهدا بكثير من أبيات الشعر الجيد المشهور . وكان يتحرى إلقاء كل ذلك بأسلوب بليغ ، وعبارة سلسة ، وألفاظ منمقة مختارة ، وأطناج يدل على سعة في المعارف ؛ ولكنه كان يتحاشى الدقة التي تدعو إليها الفلسفة . فكان حسن عباراته وجمال أسلوبه بغريان تلاميذه ويشوقانهم ؛ ولكنهم يخرجون من عنده وليس لديهم معارف جديدة ، إذ أن موضوع الدرس نفسه خرافة أو أسطورة ، والهدف منه إثارة الإعجاب والزيف على العقول .

(١) ولد جورجياس Gorgias في جزيرة صقلية في نفس التاريخ الذي ولد فيه بروتاجوراس أو قريباً منه أي حوالي سنة ٤٨٥ ق.م ، وقد بدأ أيضاً بدراسة الفلسفة ثم نهج نهج الحركة السوفسطائية ونال من وراء ذلك شهرة واسعة في كل صقلية . وفي حوالي سنة ٤٢٧ ق.م بعثه مواطنوه مندوباً عنهم إلى أثينا يشكو إلى الحكومة ما يلاقيه أهل الجزيرة من الحكم الأغريق فدخلها لأول مرة في هذا التاريخ وهناك وجد الفرصة سانحة لكي ينشر تعاليمه ومبادئه ، إذ أن البيئة كانت خصبة ومهيأة من قبله . ومات هذا السوفسطائي بعد أن عاش نحواً من مائة سنة ، أي حوالي سنة ٣٨٥ ق.م وما عرف عن مؤلفاته أكثر مما عرف من مؤلفات سابقه بالرغم من ضياع الكثير

وبروديغوس^(١) وكذلك فيما خلفه أرسطو في هذا الميدان^(٢) وأما الشعر اليوناني فالتقصي منه يمثل في أروع ما عرف منه حتى الآن ، إلا لياذه والأوديسا للشاعر هوميروس^(٣)

== منها . وكان هم جورجياس ، كسابقه ، موجهها أولا إلى جمال التعبير وموسيقى الجمل فكان يبذل جهداً في أن يكون تعبيره ذا وزن يكاد يشبه وزن الشعر ، وذا وقع موسيقى على السمع . وأهم وسيلة كان يستخدمها في التعبير البياني هي وسيلة التقابل أو التضاد بين الألفاظ والمعاني ، وكان مع حرصه على هذا التقابل يتخير الألفاظ التي تتعادل في عدد المقاطع وفي نفس الصيغ الفعلية . وكان مع عنايته الشديدة وحرصه البالغ من ناحية الأسلوب وجماله وموسيقاه لا يهتم مطلقاً بالمعنى ، فسواء لديه أكان في هذه الجمل الرنانة فكرة أم لا . ومن مبادئ هذا السوفسطائي : الكائن المطلق لا وجود له . ولو كان موجوداً فهو غير معروف . ولو كان معروفاً فهو غير مدرك ولا يمكن شرح كنهه ، وبهذا كان من السهل اقناع الناس بألا جدوى من وراء البحث عن الحقيقة المطلقة ، وتوجيههم إلى فن القول بعنصريه : الجدل والبيان ؛ الأول لا قناع الخصم في مناقشة فردية ، والثاني لا قناع الجمهور في الخطب السياسية أو القضائية .

(١) ولد بروديغوس Prodicos ، في جزيرة صغيرة من الجزر اليونانية حوالي سنة ٤٧٠ ق.م ، وهو ثالث المؤسسين للحركة السوفسطائية . وقد جاء بدوره إلى أثينا يساهم في تأسيس هذه الحركة فاشتغل بالتعليم وكون له من وراء ذلك ثروة طائلة . وكان فوق شهرته بالسوفسطائية معروفاً بالاستقامة الخلقية وبتحرى الدقة في معاني الكلمات . ولذا فأن أرسطو كان يرسل إليه تلاميذه الذين لم يكونوا مستقيمين في أخلاقهم العملية كي يقومهم بتعاليمه الأخلاقية .

(٢) نقصد بذلك على الخصوص كتاب الشعر وكتاب البيان لأرسطو .

(٣) هوميروس من أوائل شعراء اليونان ، عاش على حسب الروايات في القرن التاسع قبل الميلاد . وانظر بعد هذا ص ٨٤ من هذا الكتاب : العراق .

والتعليمي منه ممثل فيما خلفه الشاعر اليوناني الكبير : هيزيود *Hesiod* ،^(١)
والمسرحي منه ممثل أروع تمثيل فيما تركه أيشيل *Aeschyle* ^(٢)

(١) انظر ص ٦٣ (هامش) ثم ص ٨٩ ، ٩٠ من كتابنا العراق .

(٢) إن مكانة إيشيل *Aeschyle* في الشعر المسرحي تشبه تماما مكانة هوميروس في الشعر القصصي أو مكانة هيرودوت في فن التاريخ فكما أن الأول قد سمي أبا الشعر القصصي ، والثاني أبا التاريخ فأن إيشيل قد سمي أبا التراجيدي في الشعر المسرحي عند اليونان ، إذ أنه بفضل ما كان يعطيه من حيوية لموضوعاته ولاشخاص رواياته ولاسلوبه قد استكمل هذا الفن الشعري كل صفاته ووصل إلى الدرجة التي كان ينتظرها له الاغريق ، ولهذا فإنه ، وهو لا يزال حيا ، قد غزت مؤلفاته مسارح التمثيل في صقلية كما غزتها في أتينيا .

ولد هذا الشاعر من أسرة أرستقراطية في بلدة صغيرة تقع في الشمال الغربي لأتينيا سنة ٥٢٥ أو سنة ٥٢٤ ق.م اسمها *Eleusie* وبالرغم من نشأته الارستقراطية فإنه لم يعارض - إذا اعتمدنا على مؤلفاته في تحليل شخصيته - النزعة الديمقراطية التي كانت تسود الاغريق في زمنه ، وكانت حياة هذا الشاعر كلها عمل جدي - في شبابه اشترك فعليا في الحروب الميديه ، ثم لم تلبث حالة الهدوء أن تعود نوعا ما إلى أتينيا حتى اشتغل بالأدب واتجه بصفة خاصة إلى الأدب المسرحي فأنتهج فيه وصادف إنتاجه نجاحا في أول الامر ؛ حيث دخل في مسابقة مسرحية فاكسبها ، ومن ذلك الحين كان أيشيل لا يرى إلا مؤلفا أو ممثلا على المسرح ، أو منافسا في تلك المسابقات المسرحية ، وبقي كذلك حتى توفي في سنة ٤٥٦ ق.م ، ولعل أوضح دليل على ذلك هو ذلك العدد الضخم الذي ألفه من المسرحيات فقد عرف عنه أنه ألف سبعين تراجيديه وعشرين درامه هجائية ، ولم يبق من هذا العدد الكبير سوى سبع مسرحيات هي : ١ - المستعطفات *Les supplantes* ؛ ٢ - الفرس *Les perses* - الرؤساء السبعة أمام طيبه *Les sept chefs devant thébes* ، ٤ - بروميثيه في الاغلال *Prométhée enchainé* ، ٥ - أغاممنون *Agamemnon* ، ٦ - الساقيات في نخب الآلهة *Les choéphores* ، ٧ - الخيرات *Les Euménides*

سوفوكل Sophocle (١) والغنائى منه يمثل فيما نركه سيمونيد Simonide (٢)

(١) ولد سوفوكل Sophocle سنة ٤٩٧ أو ٤٩٥ ق.م فى ضاحية من ضواحي أثينا اسمها Colone من أسرة ميسورة الحال لا تصل فى الجاه ولا فى المكانه الاجتماعية إلى أسرة إيشيل . ومنذ صغره اتجه إلى الدراسات الأدبية وخصوصا الأدب المسرحى وإلى الموسيقى، ولقد صادف فى شبابه فوزين : أحدهما حينما رأس فرقة موسيقية وهو لم يتجاوز خمسة عشر أو سبعة عشر عاما على الأكثر للاحتفال بالنصر فى موقعة سالامين Salamine والثانى حينما دخل فى مسابقة أدبية مسرحية مع إيشيل فانتصر عليه وهو فى سن التاسعة والعشرين بل ربما فى سن السابعة والعشرين . ومنذ ذلك التاريخ يمضى سوفوكل فى نفس المنهج المسرحى الذى رسمه من قبله إيشيل ونعنى بذلك الإنتاج للمسرح التراجيدى ، ويبقى كذلك حتى يموت فى سنة ٤٠٥ ق.م وبما يدل على عظمة سوفوكل فى هذا الإنتاج أن الفوز لم يتخلف عنه فى كل المسابقات الأدبية التى دخل فيها وهى عشرون مسابقة ، وأقل فوز أحرزه فى هذه المسابقات أنه كان الثانى بين المتسابقين ، ولم يعرف مثل هذا الشاعر آخر بين شعراء الاغريق المتسابقين . وإذا كان سوفوكل قد أثبت تفوقه على إيشيل فى الكيف فإنه قد أثبت تفوقه عليه أيضا فى الكيف فقد ذكر مؤرخو الأدب الاغريقى انه ألف عددا من المسرحيات لا يقل عن ١١٥ مسرحية فى فن التراجيدى وربما وصل هذا العدد إلى ١٢٠ . من هذه المسرحيات :

(٢) يعتبر سيمونيد Simonide أيضا من أعلام الشعر الغنائى بين الاغريق . ولد حوالى سنة ٥٥٦ ق.م فى جزيرة صغيرة من جزر الاغريق اسمها Ceos . وفى سن الثلاثين جاء إلى أثينا ليتصل بأدائها وقد تم له ذلك غير أن أقامته فيها لم تدم طويلا فتركها إلى تيساليا وبقي هناك حتى شبت الحرب الميديه فعاد ثانيه إلى أثينا وهناك بدأت شهرته ترتفع على حساب الشعر الذى بدأ ينظمه فى رثاء القتلى من الاغريق فى موقعة - ماراتون - بل ان هذا الرثاء كان نفسه سبباً لاتصاله بالرؤساء وبقي فى أثينا ينعم بتلك الصلة وبما كان يحظى به من شهرة أدبيه حتى بلغ الثمانين من عمره ، وحينئذ ترك أثينا وذهب إلى صقلية وهناك اتصل بأكثر الشخصيات =

== حتى بملك سيراكوز وبقى هناك حتى مات حوالى سنة ٤٦٧ ق.م . وقد نظم سيمونيد عددا كبيرا من القصائد المتنوعة فى الشعر الغنائى : نظم فى الرثاء ، وفى الهجاء وفى الغزل ، وفى غير هذا وذاك كالممدح والوصف ، ولكن لم يوجد من كل شعره سوى بعض مقتطفات من قصائده .

(١) يعتبر بندار Pindare الشاعر الاول من بين أصحاب الشعر الغنائى عند اليونانيين . ولد سنة ٥٢١ ق.م فى المنطقة الجبلية من مقاطعة ثيساليا الواقعة فى شمال بلاد الاغريق بالقرب من مدينة طيبة . وفى سن مبكرة قد اتجه إلى ممارسة الشعر الغنائى ، وهناك أسطورة تقول إن الآلهة قد منحته هذه الموهبة منذ صغره ، إذ أن جماعة من النحل استقرت على شفتيه وهو نائم وصنعت عليها شهداً . ولم يكتف بندار بالدراسات الأدبية فى مقاطعته ، وإنما ذهب إلى أتيننا ليتصل بأدبائها وعلى الخصوص بشعرائها ، وهناك تفتحت مواهبه ولفت إليه الأنظار بسرعة فتقرب من الأمراء والحكام ليس فى شبه جزيرة اليونان فقط وإنما فى صقلية وفى شمال أفريقيا أيضاً . ولقد كان من نتيجة تلك المكانة الأدبية التى اكتسبها بندار فى حياته واستمرت مقرونه باسمه بعد موته أن أمر الاسكندر الأكبر جيوشه أثناء حصاره لمدينة طيبة بأن لا يمسوا بأذى منزل بندار ، وهكذا حفظ منزل الشاعر مما تعرضت له أحياء طيبة وبيوتها أثناء الحصار وبعده .

ولقد خلف بندار ثروة هائلة من الشعر الغنائى يقال أنها كانت تشتمل على ١٧ ديوانا كبيرا من الشعر ، ولسوء الحظ لم يبق منها سوى أربعة . وأهم الصفات التى يتحلى بها شعر بندار هى : الجرأة فى التفكير وفى اختراع الصور البيانية فلم يكن عالة على السابقين ، والموسيقى الكاملة فى الجمل والسمو فى الأسلوب ، ثم الخيال الواسع والاكتثار من هذه الصور البيانية ، وبقى بندار محتفيا بمكانته الأدبية بين معاصريه حتى مات فى سنة ٤٤١ ق.م .

وأما الفن فكان ممثلاً في صور عديده كلها تمشد الكمال . ولم يقف أمر هذا الفن ، وخصوصاً ما كان منه في ميدان النحت والتصوير ، على الدقة والاجادة في تصوير الواقع المادى ، وإنما تجاوز ذلك إلى المعنويات وراح يتخيلها ويبرزها في مثلها العليا كالمثل الأعلى للبطولة ، والمثل الأعلى للحكمة ، والمثل الأعلى لكمال الجسم الرياضى وهكذا دواليك بالنسبة لكثير من المعانى . وهناك قصة طريفه لا نرى بأساً من ذكرها هنا فهى تلقى بعض الضوء على قيمة الفن الاغريقى وعلى مبلغ ما وصل اليه من درجات الكمال : يروى لنا الكاتب اللاتينى - بلين القديم - Pliny-L. - خبر مباراة فنية أقيمت بين فناني الاغريق والصوره التى يقدمها هذا الكاتب عن تلك المباراة ، إن هى إلا مثل من أمثلة عديدة لما كان يصنعه الاغريق قديماً فكثيراً ما كانوا يقيمون هذه المباريات فى مواسم خاصة للنهوض بالانتاج الادبى والفنى ، وكثيراً ما كان الناس يأتون من بلاد بعيدة ويتحملون مشاق السفر أياها وليالى لحضور هذه المباريات والاحتفاء بمن يحرز فيها قصب السبق . وبالرغم من ضآلة القيمة المادية للمكافآت التى تمنح للفائزين إذ أنها كانت فى كثير من الاحيان غصنا من أشجار الزيتون أو تاجاً من أوراقها ، نقول بالرغم من ضآلة القيمة المادية لمكافآت الفائزين فإن قيمتها الادبية كانت ذات جلال وعظمة بحيث تعد نخرأ لاسرة الفائز أو لقبيلته وللمدينة أو المقاطعة التى نشأ فيها ، بل أن نخر هذه المكافأة كان يورث فيقال فلان ابن فلان المتوج فى مباراة كذا أو الفائز فى مسابقة كذا . وكان للاغريق قديماً غرام شديد بهذه المسابقات وولع عظيم بأحراز النصر فيها ، وكانت لديهم بجانب المباريات الفنية مباريات فى الرياضة بأنواعها على نحو ما نجده الآن فى كثير من الدول ، ومباريات فى الشعر على

مثال ما عرفناه عند العرب قديماً من أمر المعلقات لافى أجادة الشعر
ونظام التحكيم فحسب بل وفى تسجيل القصائد وتخليدها بالكتابة على
جدران المعابد .

يذكر الكاتب اللاتينى ^(١) أن تلك المباراة الفنية التى أقيمت بين رسامين
أغريقين هما : زيوكسيس *Zeuxis* وباريزيوس *Paresius* وأعلن عن
موعدهما بين أفراد الشعب وجاء الناس من كل صوب لحضورها وأخذ
المحكمون أمكنتهم الخاصة ، وبدأ أحد الفنانين يكشف عن أثره الفنى فأذا
به عنقود من العنب بالغ من دقة الصنع وكال الانسجام وقوة التعبير عن
الواقع درجة جعلت العصافير تهوى إليه وتنقره بمناقيرها ظناً منها أنه عنقود
حقيقى من العنب . ثم تقدم الفنان الثانى وكشف عن أثره الفنى ، فأذا به
لوحة لامرأة تختفى وراء نقاب فطلب الفنان الأول من زميله أن يرفع
النقاب عن التمثال حتى يراه المحكمون والنظاره ، فقال صاحب اللوحة لزميله :
إذهب إليها بنفسك وارفع النقاب عنها ، فذهب وحاول رفع النقاب ولكن
شد ما كانت دهشته حينما وجد أن النقاب ليس إلا جزءاً من الصورة
فأعلن فى صراحة فوز خصمه واستحقاقه للمكافأة قائلاً : لقد استطعت ببنى
أن أخدع العصافير أما أنت فقد استطعت أن تخدع فنانا مثلك .

ثم يستطرد الكاتب اللاتينى فيذكر أيضاً بعد هذا مباشرة قصة أخرى
عن الرسام زيوكسيس إذ يقول ان هذا الفنان قد رسم فى مرة أخرى لوحة

^(١) انظر ص ٤٨٩ من المجلد الثانى ، الكتاب الخامس والثلاثين ، الفصل العاشر ،
من كتابه التاريخ الطبيعى :

*Page 489. volume II. livre 35. chapitre 10. Histoire naturelle;
Collection Nisard*

موضوعها غلام ممسك بيده عنقوداً من العنب ثم عرضه فجاءت العصفير
تنقر في حب العنب ، ولكنه تقدم بعد لحظة إلى لوحته غاضباً محنقاً لعدم
إجادته اللوحة ، ولما سئل أجاب : أننى أجدت تصوير عنقود العنب ولكننى
لم أجد تصوير الغلام ، فلو أن الغلام كان يحاكي الطبيعة كما حاكها عنقود
العنب لخشيته العصفير ولما جاءت تنقر حب العنب في يده .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الآثار النثرية وجدناها ممثلة تمثيلاً واضحاً في
التاريخ والجغرافيا والطب ، فقد جاء التاريخ :

وهو ، بدل أن يتناول ذكر ملوك بابل أو آشور في صور أقرب إلى
الجفاف والملل ، يشتمل على قصص طويل فيه تحليل وفن ، ويتناول شعوب
العالم المعروف إذ ذاك ، والذي يمثل هذا الفن هو هيرودت *Hérodote* ^(١)

وجاءت الجغرافيا غزيرة المادة ، واسعة الأفق ، واضحة المنهج ، لا كما
كانت عند البابليين والآشوريين قاصرة على وصف السماء وما فيها من كواكب
وتخطيط لبعض المسالك التجارية بين آسيا الصغرى ووادي دجلة والفرات ،
وهي ممثلة فيما تركه هيكاتيه *Hecatee* ^(٢)

وجاء الطب مع كثير غيره من المعارف اليونانية مستكمل البحث واسع
التجارب .

وهكذا تبدو بلاد الإغريق كبوتقة تصهر فيها المعارف البدائية التي كان
يحملها إليها اليونانيون الجوالون في بلاد الشرق ثم تردها إلى الشرق بدورها
سبائك متماسكة الأجزاء خلاصة الرواء . ولعل أهم مظهر وأوضح خاصة

(١) انظر كتابنا عن العراق ص ٩٣ - ٩٤

(٢) انظر كتابنا عن العراق ص ٩٢ - ٩٣

للأغريق في صهر هذه المعارف الأولية وتصويرها في سبائك جديدة هو
فلسفة تلك المعارف ، أى التعمق في تحليلها والامعان في إبراز نتائجها ، ثم
اخضاعها للبراهين الثابتة وذلك عن طريق المقاييس العقلية أو المنطقية . وهذه
هى أصالتهم التى لا نستطيع أن نشك في نسبتها إليهم . وهكذا لم تجد الثقافة
الأغريقية عناء في أن تعلن عن نفسها ، وتدعو الشعوب الأخرى إلى أن
ينهجوا سبيلها ، ولم يجد الشرق كذلك عناء في أن يتألف معها ويتأثر بها
ولقد ظهرت ثمار ذلك في الشرق نفسه قبل الميلاد وبعد الميلاد وحتى في
أيام النهضة العلمية الإسلامية تحت حكم الدولة العباسية . وبعد فإن هذه البيئة
العراقية التى كانت على مثل هذه الصلة من الثقافة الأغريقية لأبد وأن
يكون لها أثرها البعيد في الحضارة الإسلامية .

وإذن فينبغى على الباحث في فروع المعارف الإسلامية ألا يجد شيئاً من
الغربة حينما يرى طابع العقلية الأغريقية رصدي مناهج البحث عند الأغريق
فهو حين يرى ظهور العلوم العربية ناضجة في فترة قصيرة من الزمن
لا تتناسب مع ما ينبغى من الوقت لنشأة العلم ونموه يجب عليه أن يدرك في
نفس الوقت أن منهج البحث في تلك العلوم كان معروفاً في بيئة العراق .
وهو حين يرى مقاييس المنطق وفلسفة المعارف قد ظهرت مبكرة في أوليات
هذه العلوم العربية كالتعليلات في علم النحو والجدل العقلي والبرهان المنطقي
في علم الكلام والقياس الفلسفي والافتراضات العقلية أو الوهمية في علم
الفقه يجب عليه أن يدرك في نفس الوقت أن ذلك كله كان صدى للفلسفة
الأغريقية التى كانت مدروسة ومعروفة في بيئة العراق . ومن هنا نلص
مرة أخرى إحدى النتائج التى قصدنا إليها من وراء هذا البحث وهى الكشف
عن جذور المعارف الإسلامية ، وفهم تلك المعارف ، ورد ما يمكن رده
منها إلى أصوله الأولى .

اللون الثالث هو لون الحضارة الرومانية :-

قد يبدو غريبا لاثول وهلة أن نتحدث عن الحضارة الرومانية في بيئة العراق ، إذ أن كتاب الشرق ومؤرخوه قد أهملوا ما كان هناك من صلات متبادلة بين الروم وسكان وادي الرافدين ، ولكننا حين ندرس هذه الصلات تحت ضوء عاملين هامين ، هما عامل السياسة ، وعامل الدين ، نجد أنه لا مفر من التعرف ، ولو قليلا ، على الخطوط الرئيسية للحضارة الرومانية ، ومن هذا ندرك كم كان لهذه الحضارة من أثر ، ولو من طريق غير مباشر في بيئة العراق ، وبالتالي في بعض نواحي الحضارة الاسلامية وفي العقلية العربية أو الاسلامية بوجه عام التي ساهمت بنصيب كبير في نشأة تلك الحضارة ونموها . لقد قيل إن الفقه الاسلامي قد تأثر ، ضمن ما تأثر به ، بالقانون الروماني وخصوصا مسائل الرقيق وما يتعلق بها من بيع وشراء وعتق ومكاتبة وولاء وأرث وارتكاب جرائم ، وقيل إن هذا الاثر واضح فيما اثر عن الاوزاعي من أحكام وآراء ، وعزى ذلك الاثر إلى البيئة التي نشأ فيها الاوزاعي . ونحن مع ترجيحنا لوجود هذا الاثر في الفقه الاسلامي نقرر أننا قد استطعنا أن ندلس خلال اطلاعنا ودراستنا للحضارة الرومانية وما فيها من آثار علمية وأدبية وقانونية تشابهها يلفت النظر بين هذه الحضارة وبعض الاتجاهات في الحضارة الاسلامية وعلى الخصوص في الميدان الأدبي والميدان الاجتماعي الذي يمس العقيدة . أما ما يختص بالميدان الأدبي فقد لاحظنا تشابهها واضحا بين شعر الغزل الذي يصور بيئة بغداد وحاناتها وملاهيها ومجتمعاتها وشعر الغزل في بيئة روما ، وقد لاحظنا التشابه أوضح وفي محيط أضيق بين بشار وشاعر لاتيني اسمه أوفيدوس Oviduis من شعراء

القرن الأول الميلادي ؛ إذ أن شعر كل من الشعارين في الغزل وفي تصويره
اللذة والمتعة وفي الدعاية لذلك وفي النتائج الاجتماعية المترتبة على هذا الشعر
نقول أن شعر كل واحد من الشعارين في هذا الميدان يكاد يكون صادراً
عن منبع واحد ومتجهاً إلى هدف واحد ؛ وتعالوا بنا نقرأ شعر بشار في
الغزل وتصويره للمرأة وتهالكه عليها ودعوته الشبان إلى تتبعها واللاحاق في
طلبها وعدم اليأس من رفضها ، ثم لننظر في النتائج المترتبة على ذلك من
سخط الطبقة المتدينة أو المحافظة في البصرة وفي بغداد من ذلك الشاعر الماجن
ومن شعره الخطر على الشبان وعلى النساء معاً ، ومن الجهر بالشكاية من
ذلك والاستعانة بأولى الأمر والسلطان لكي يتخلص المجتمع من برائن ذلك
الشعر المؤكد ؛ ثم لنقرأ سوياً هذين البيتين على الخصوص من شعر بشار

لا يؤيسنك من محبة . . قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة . . والصعب يمكن بعد ما جمحا^(١)

ولننتقل بعد ذلك سوياً إلى ديوان صغير في الشعر الغزلي نظمه أوفيدوس
باللاتينية تحت عنوان « فن الحب » حيث يصور فيه المجنون في مدينة روما

^(١) ويروى بهذه المناسبة أن أحد الشعراء قال : دخلت على بشار الأعشى وبين
يديه مائتا دينار فقال لي : خذ منها ما شئت . أو تدري ما سببها ؟ فقلت لا . قال
جاءني فتى فقال لي أنت بشار ؟ فقلت نعم . فقال إني آليت أن أدفع إليك مائتي
دينار وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي فهممت أن أتركها
فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من محبة * قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة * والصعب يمكن بعد ما جمحا

فعدت اليها فلأزمتها حتى بلغت حاجتي .

ويحلل فيه طبيعة المرأة وتهالكها على المتع الرخيصة ويدعو الشبان إلى تتبعها
والإلحاح في طلبها وعدم اليأس منها إن هي أظهرت جفاء أو امتناعا فتلك
صنعة حذقتها المرأة ويلد لها أن تمارسها دائما ، ثم هو بعد ذلك يرسم للشبان
الخطط للفوز بها والنيل منها فيدلهم على الأماكن التي تتردد إليها المرأة
كالحدائق العامة والمعابد ، ويرشدهم إلى الوسائل الشيطانية للحديث معها ولأغرائها
ثم لا يقف عند هذا الحد بل يتتبعهم في خلواتهم الأثيمة فيصف كل ما يمكن
أن يدور بين الرجل والمرأة في تلك الخلوة وصفا ماديا دقيقا جريئا مكشوبا
ولننظر فيما بعد فيما ترتب على نظم هذا الديوان من تفشى الفاحشة وسخط
الطبقة المتدينة المحافظة واستغاثتها بالإمبراطور أوغسطس لكي ينقذ مجتمع
روما من ذلك الفساد بنفى الشاعر أوفيدوس ، وقد فعل . ولنقرأ أخيرا
هذه الأبيات من شعر هذا الشاعر في ديوان « فن الحب »

« ولتكن متأكدا قبل كل شيء أن عسر النساء جميعا إلى مياسرة ؛ إن
في استطاعتك الفوز بهن ، فامدد فقط شباكك . . . وإذن فتقدم ولا تشك في
الفوز بهن ، ففي الألف منهن ربما لا تجد واحدة تستعصى عليك ، وسواء
قبلن أم امتنعن فانهن يحبين دائما أن يغازلن ، وحتى لو نأت عنك ودفعتك
فليس في ذلك من خطر عليك ، وأما فيما يختص بالميدان الاجتماعي فقد لاحظنا
كذلك تشابها بين طريقة استفتاء المسلمين لصحف القرآن وآياته وطريقة
استفتاء المسيحيين بنصوص ديوان الشاعر اللاتيني ، فيرجيل ، وأشعاره ^(١) .

^(١) كان المسيحيون حتى العصور الوسطى إذا شغلهم فكرة أو أرادوا الإقدام
على أمر ما لجؤوا إلى ديوان فيرجيل أو ملحمته المعروفة بالإنيادة ففتحوا هذه
الملحمة عن طريق الصدفة وبدون تفكير ثم قرأوا أيضا ما تقع عليه أعينهم من الأبيات
الشعرية دون بحث أو امعان نظر ، ومن معنى ما يقرأون من الشعر يأخذون =

وهذه أشارات بسيطة ولكن مغزاها بعيد . وقد يقال في هذا الصدد
بمناسبة وجود أوجه شبه بين بعض اتجاهات الحضارة الإسلامية والحضارة
الرومانية : إن الأسباب المتشابهة تؤدي إلى نتائج متشابهة ، وهذا صحيح ،
ولكن ينبغي أن نقرر أيضا أنه ليس من السهل أن نتقن من أول نظرة
أثرا لأحدى هاتين الحضارتين في الأخرى ، وخصوصا مع ما كان بين هاتين
الحضارتين من صلات متبادلة كما سيتبين ذلك بعد قليل . ولقد تعجلنا ذكر
هذه النتائج قبل أن نمد لها ليطمئن القارئ أولا ، ولنزيل من فكره هذه
الغربة التي قد تظهر له بادية بدء عندما يقرأ عنوان هذا البحث .

وقبل أن نبين العوامل التي كان من أجلها أن وصلت آثار الحضارة
الرومانية إلى الشرق وعلى الخصوص إلى بيئة العراق نحب أن نوضح أولا

== فالهم أو يستفتحون على الأمر الذي يشغلهم . وهذا شبيه بما لانزال نراه حتى
الآن بين بعض المسلمين بالنسبة للقرآن .

ولعل منشأ هذه العادة عند المسيحيين بالنسبة لفيرجيل هو ما كان يحاط به من
هالة التقدير والاحترام بسبب سيرته الطيبة ومكانته الأدبية العالية فأصبح المسيحيون
يضمونه إلى صفوفهم ، بالرغم من موته قبل مولد المسيح بتسعة عشر عاما ، ويعتبرونه
ضمن من تنبأ بمولد المسيح وما ينشره على الأرض من سلام . ذلك أن فيرجيل في
قصيدته الرابعة من ديوانه الشعري المسمى - بوكوليك - قد تحدث عن مولد طفل
يضع حدا لهذه الحروب والآلام ، وينشر السلام على الأرض . ولقد أثارت هذه
الفكرة الخيالية من فيرجيل كثيرا من الجدل عند رجال النقد الأدبي قديما ورأى
فيها كل فريق رأيا ، فرأى البعض أن هذه صورة رمزية لابن أوكتافوس أو لابن
أنطونيو وكليوباتره أما رجال الدين المسيحي في القرون الوسطى فقد رأوها بنوء
بمولد المسيح ولا يزال فريق منهم حتى الآن يحاول أن يعقد صلة بين فكرة فيرجيل
وما كان يجري في الشرق من نبوءات بمولد عيسى .

قيمة الفكرة الشائعة عند كثير من الناس ، وهي أن الحضارة اللاتينية أو
الرومانية وليدة الحضارة الاغريقية ، وأن روما مدينة إلى أثينا بكثير من
علمها وفلسفتها وأدبها وفنها ومعارفها . هذه الفكرة صحيحة في ظاهرها إلى
حد بعيد إذا نظرنا إلى الثقافة اللاتينية من حيث النشأة ، فإن إيطاليا كانت
مستعمرة قبل أن تنهض روما سياسيا لكثير من الاغريق وقد استمروا فيها
حتى بعد نهضتها ، وأن اللغة الاغريقية كانت منشورة في أجزاء عديدة منها
وخصوصا في الوسط والجنوب ، وأن أوائل المثقفين من رجال العلم والأدب
في روما كانوا إما من الاغريق أنفسهم وإما من تلاميذهم ، وأن أول
الانتاج الأدبي في روما كان صورة من الأدب الاغريقي ، إما ترجمة مباشرة
وأما تقليدا دقيقا في الموضوع وفي المغزى . ولكن هذا الحال لم يلبث أن
يزول ، وسرعان ما نجد روما تستقل ثقافيا كما استقلت سياسيا وتشق لنفسها
طريقا في الحضارة كما شقت لنفسها طريقا في السياسة ، ونجد الرومانيين
يأخذون في الثقة بأنفسهم والاستقلال بأفكارهم والتغنى بآثارهم ويستقون
موضوعاتهم الأدبية من يلمتهم ومن مجتمعهم ، ولا يقفون عند هذا الحد فقط
بل يقومون بالدعاية ضد الاغريق وأدب الاغريق وفلسفة الاغريق وعلماء
الاغريق في روما فيطردونهم منها ويحرمون دخولهم فيها . وهنا تبرز الشخصية
الرومانية ، وتظهر العقلية الرومانية ، وتتكون الحضارة الرومانية المختلفة عن
الحضارة الاغريقية في كثير من المعاني والمعارف والآثار ، فالأدب اللاتيني
يكاد يكون رومانيا خالصا يصدر في روما ويستمد موضوعاته من مجتمعها
أو من البيئات الإيطالية ، ويتحدث إلى الرومانيين ، وتغلب عليه روح الجد
ويتحكم في كثير من صفاته التحفظ ، ولعل أوضح دليل على ذلك هو
ما أحدثه ديوان الشاعر أوفيدوس ، الذي تحدثنا عنه منذ قليل ، من رد

فعل في روما وفي المجتمع الروماني ، هذا والآثار الأدبية بوجه عام لم تكن سوى صدى لتلك النزعة القومية الجادة ، وصورة لهذا الروح القوى الوثاب فهو أدب مادي واقعي يردد في كثير من الأحيان رغبات الشعب الروماني ويرسم في جلته ميول ذلك الشعب وأهدافه التي يرمى إليها من سيادة روما نياسيا وديفيا وأديبا .

وأما الفلسفة اللاتينية ، إن ساغ لنا الاعتراف بوجود فلسفة لهم فهي كذلك تصوير لذلك الروح العام عندهم . فلسفة واقعية مادية أيضا ، وهي وإن كانت في جوهرها تريد لما كان يصدر عن فلاسفة الأغريق من مذاهب ومبادئ وآراء إلا أنها اتسمت بطابع جديد يشبه نفس الطابع الذي اتسمت به دراسة الفلسفة في جامعة الاسكندرية بالنسبة للفلسفة الاغريقية ، ونعني بذلك الطابع هو مذهب الاختيار ، بمعنى أن تدرس المذاهب الفلسفية على اختلافها ثم يختار منها ما يلائم العقل ويتمشى مع البيئة والمجتمع ، وذلك مثل مذهب أبيقور ، الذي كان يدعو إلى الاستمتاع بملاذ الحياة ومتعها ولكن عن طريق العمل المثقف المذهب ، ومذهب زينون ، الذي كان يدعو إلى التقشف في الحياة والزهد في ملاذها وتقوية سلطان العقل على أهواء العواطف ؛ فان المذهب الأول لم يصادف في روما ما صادف المذهب الثاني من رواج اللهم إلا بين الطبقة الخليفة . وكذلك لم ترج في أوساط روما مبادئ الفلسفة التي كانت تمسك للبحث عن الحقيقة المجردة . وهذا هو ما يميز الفلسفة اللاتينية عن الفلسفة الاغريقية ، وهي بهذا الاعتبار عند الرومانيين كانت تهدف بدورها في أغلب الأحيان إلى بناء المجتمع وتقويمه والعمل على نفعه المادي أولا وقبل كل شيء . ولذلك فان هذه الفلسفة اللاتينية قد تسربت إلى كثير من رجال الادب اللاتيني وأشربت بها نفوسهم

لدرجة أن بعض آثارهم الأدبية قد اضطُغت بروحها ومبادئها مثل آثار
هوراسيوس *Horatius* ^(١) من الشعراء ،

(١) تعتبر حياة هوراسيوس *Horatius* صورة لما كان يحدث كثيراً بالنسبة
لأعلام الأدب اللاتيني فإن الكثير منهم كان إما أجنبياً وإما من طبقة الشعب البسيطة
ولكن بواسطة مجهودهم الخاص كانوا يصلون إلى مكابدة اجتماعية مرموقة ، ولهذا كان
التشابه واضحاً تماماً بين الحضارة الرومانية والحضارة الإسلامية أو بين بغداد وروما
ولد هوراسيوس سنة ٦٥ ق م في مدينة صغيرة اسمها فينوز *Venous* بالقرب
من المقاطعة الإيطالية المعروفة باسم - أبولي - من والدين متواضعين ؛ إذ كان أبوه
رقيقاً قد حرر ولكنه استطاع أن يكسب ثروة لا بأس بها من عمله ؛ فكان يعمل
كمحصل في بيوع المزداد ، ولقد حاول جهده أن يخلق من ابنه شاباً مثقفاً فبعث به
إلى روما وبعد دراسته الطويلة فيها أرسله إلى أتينيا ليتوج دراساته شأن
الارستقراطيين وأولاد الأثرياء من الروم ، وهناك ينضم إلى جيش قتلة قيصر
المدافعين عن النظام الجمهوري في روما ولكن هذا الجيش يهزم ويقضى عليه فيعود
هوراسيوس إلى مدينته خائفاً يترقب الشر من وقت لآخر فيجد ثروته قد ضاعت .
وبعد أن تهدأ الأمور يذهب إلى روما ليجد عملاً يعيش منه ، وهناك يعاونه
أحد أصدقائه القدامى المخلصين فيحصل له على وظيفة بسيطة تكفي لضرورياته ،
ولعل سوء الحال الذي وصل إليه أمره مع ما بذله من جهد في التعليم والثقيف قد جعله
يتبرم بالحياة ويسخط على المجتمع . ومن هنا يجد هوراسيوس في نفسه نزوعاً إلى
قول الشعر الهجائي فيطلق العنان للسانه ، ويشتهر به أمره ويكون ذلك سبباً في تعرفه
بالشاعر فيرجيل الذي كان يومئذ على صلة بالأمبراطور أوغسطس ؛ وحينئذ يتغير
مجرى حياته : يتصل برجال الدولة الذين يحاولون أن يجعلوا منه قيثارة لسياساتهم
وأعمالهم كما صنعوا بفيرجيل من قبله ، ويخالط الندوات الأدبية فيتعرف بأكبر
الشعراء والكتاب ، ويقوم في « فيلا » خارج العاصمة ، شأن الارستقراطيين من الروم ،
قد منحه إياها مايسيناس *Maecenas* ، أحد رجال الدولة . غير أن هذه الحياة =

= الاجتماعية الصاخبة لم تستهوه طويلا من الزمن ، فيتبرم بالمجتمع ، ويضيق حتى بالأصدقاء ، ويميل إلى العزلة بشكل عجيب ، وإذن فأنا نراه يذهب إلى جنوب إيطاليا لقضاء فصل الشتاء ، ثم يعود إلى منزله القروي الهادئ ، وقلبا يذهب إلى روما . ونتيجة ذلك أنه وجد في الفلسفة خير صديق فانفرد به وأنس إليه حتى مات سنة ٨ ق.م كانت الفلسفة كما ذكرنا رائدة هوراسيوس في تفكيره وفي خياله فانصبغ بها شعره وظهر فيه طابعها ظهورا واضحا وهذه الفلسفة التي تملكت على مشاعره كانت الفلسفة الأبيقورية ، الفلسفة الداعية إلى المتعة على شرط ألا تجانب هذه المتعة طريق العقل وألا تنحرف بالاخلاق .

ولقد نظم هوراسيوس الشعر في نوعين : الشعر الغنائي ، والشعر التعليمي ، فمن النوع الاول نجد له مجموعة من القصائد تسمى *Epodes* ، ومجموعة أخرى تسمى *Odes* وهاتان المجموعتان في أربعة دواوين ؛ ثم نجد له ديوانا آخر تحت عنوان

Carmen - saeculare

وأما الشعر التعليمي فنجد له منه مجموعة من القصائد الهجائية تحت عنوان *Satirae* وهذه المجموعة في ديوانين ومجموعة أخرى في ديوانين أيضا تحت عنوان *Epitres* ، ثم ديوانا صغيرا يسمى الفن الشعري *Ars poetica* وكل هذه الدواوين موجوده ومشروحة ومترجمة إلى أغلب اللغات الحية .

(١) يعتبر سيسرون أعظم خطيب روماني دون منازع ، ولا ينافسه في هذه المكانة إلا خطيب يوناني اسمه ديموستين على أن سيسرون يمتاز عليه كثيرا في السك وفي المواهب الطبيعية الجسمانية التي ينبغي أن تتوفر للخطيب . ولد سيسرون في مدينة صغيرة في الجنوب من روما اسمها *Arpinum* سنة ١٠٦ ق.م .

وكان أبوه من طبقة الفرسان ، وقد انتقل إلى روما ليحرف بنفسه على تعليم ولديه : ماركوس (سيسرون) وكانتوس . ولم يترك سيسرون فرعا من الدراسة إلا تمسك به وأخذ منه بنصيب : لغة ، قواعد ، بيان ، أدب ، علوم ، فلسفة ، قانون ،

== ثم انه ذهب فيما بعد إلى أتينا ليدرس الفلسفة الإغريقية في منبتها ويتصل بأكبر الفلاسفة إذ ذاك . وقد رشحته هذه المعرفة الواسعة ، والاتصال المباشر بالبيئات العلمية الأجنبية لأن يكون أحد رجالات روما البارزين في نحو نصف قرن تقريباً ، ولهذا فإنه من الصعب أن نرسم أطوار حياته ، إذ أن ذلك هو تاريخ حياة الدولة الرومانية نفسها وما تعرضت له من أكبر انقلاب سياسي ، ونعني بذلك هو انتقالها من الحكم الجمهوري إلى الحكم الدكتاتوري أو الإمبراطوري . وقد تنقل سيسيرون في مناصب الدولة حتى وصل إلى وظيفة قنصل . وقد بقي سيسيرون في أغلب حياته من أكبر المدافعين عن النظام الجمهوري بالرغم مما جره عليه هذا الدفاع من أذى ؛ فقد اضلهد من أعداء هذا النظام ، ثم نفى . وأخيراً قتل في سنة ٤٣ ق.م .

ومما تكن أهمية الدور السياسي الذي لعبه سيسيرون في روما فإن شهرته الخلقه جاءت من مقدرته البيانية في الخطابة سواء أكانت خطابة قضائية أم سياسية ، بل أننا نستطيع أن نقول أنه لم يكن موفقاً في سياسته إذ أنه ارتكب غلطة سياسية جرت عليه كثيراً من الضرر ، ذلك أنه ناصر قيصر في سياسته الدكتاتورية على حساب الجمهوريين يوم كان قيصر الحاكم بأمره في روما ، ثم أنه انقلب على سياسته بعد مقتله ؛ وسواء أكان ذلك لمجاراته لسياسة القوى أم لأن أخاه - كاتوس ، كان من أكبر الضباط في جيش قيصر فإن هذا التحول قد كان نقطة ضعف عند سيسيرون لم يخفف منها سوى ما كان يمتاز به من وطنية وشهرة أدبية .

ويهمنا أن نعرف هنا أن دراسة سيسيرون للفلسفة وإنتاجه فيها صبغ آثاره صبغة قوية ، بل أنه كان من أصحاب المذاهب فيها ، إذ قد عرف عنه أنه من أصحاب مذهب الاختيار ، أي تخير ما يروق له وما يتفق مع طبيعته من المذاهب الفلسفية القديمة .

وقد بلغت مؤلفات سيسيرون نحو السبعين مؤلفاً تناولت السياسة ، والبيان ، واللغة ، والدين .

(١) إن حياة هذا الأديب الفيلسوف تصور لنا حلقة من سلسلة حياة القصور ، ونعني بها قصور الأباطرة أو قصور الملوك .

ولد سينيكا *Seneca* في مدينة قرطبة من أسبانيا في سنة ٤ ق.م ، وجاء إلى روما ليدرس فيها الآداب والفلسفة والقانون ، وبعد أن اشتغل بالسياسة وبالمحاماة قليلاً انصرف إلى الأدب فذاع اسمه ؛ وهنا نراه على صلة بقصر الإمبراطور كلوديوس *Clavdus* ؛ غير أن هذه الصلة لم تلبث طويلاً حتى جنت عليه جناية أولى فنفته الإمبراطورة *Meossalina* إلى جزيرة كورسيكا حيث قضى فيها ثمانية أعوام وبعد عودته لم ينس حياة القصور فيتصل بالإمبراطورة *Agrippina* الزوجة الثانية لكلوديوس التي تعهد إليه بتربية ابنها نيرون ، وهنا لا يقف سينيكا على دور المربي والمعلم لولى العهد فقط وإنما يتدخل شيئاً فشيئاً في شئون الدولة ، وهكذا حتى أصبحت أمور الدولة كلها يسيرها سينيكا والإمبراطوره أجريدينا وحتى بعد أن تولى نيرون الحكم كان سينيكا هو المنفذ الحقيقي لشئون الإمبراطورية . ولكن نيرون عزم على التخلص من الأوصياء فقتل أمه أولاً ثم بدأ يترصد بسينيكا . ولما أحس بالموامرات التي تحاك من حوله طلب أن يعفى من حياة القصر . غير أن نيرون كان يترقبه ، ولم يمض عليه في هذه العزلة أكثر من ثلاثة أعوام حتى اتهمه الإمبراطور نيرون بالاشتراك في تدبير مؤامرة ضده وقضى عليه بأن ينتحر على الطريقة الرومانية ، ذلك أن يقطع شرايينه بنفسه ويترك الدم ينزف منه حتى يموت ، وكان ذلك في سنة ٦٥ بعد الميلاد . ولعل أهم فرع من فروع الدراسة التي أثرت على سينيكا تأثيراً عميقاً هي الفلسفة ، ولهذا فكان أكثر إنتاجه فلسفياً ، ومن هنا كانت شهرته بالفيلسوف . ويمكن أن نعتبره تلميذاً لفلسفة زينون *Zenon* تلك الفلسفة التي من أهم مبادئها الصبر والجلد وقوة الاحتمال وعدم المبالاة بالدنيا إن هي أقبلت أو أدبرت . وكل هذه الصفات قد انصبغت بها آثار سينيكا ودعت إليها فاسته .

ويمكن تقسيم آثار سينيكا إلى مجموعتين : الأولى الآثار الفلسفية وتشتمل على =

وأما القانون الروماني فإنه ، بعد المراحل الأولى في نشأته ^(١) ، يصدر بدوره عن الواقع الروماني والعقلية الرومانية ، وهو كذلك يستلهم المجتمع الروماني والبيئة الرومانية في أبحاثه وموارده وتفصيلاته . ولعل خير ما يمثل للقارئ روح هذا القانون هو ما جرى على لسان سيسيرون حينما كان يتحدث عن القانون الروماني مقارنا بينه وبين القانون عند الاغريق . يذكر سيسيرون أن سولون وهو أكبر مشرع عند الاغريق ، سئل يوما عن السبب الذي من أجله لم يوجد في القانون الروماني نص لعقوبة من يرتكب جريمة قتل أحد أبويه فأجاب سولون : لكيلا يفكر انسان في ارتكابها ، ويعقب سيسيرون على ذلك بما يفيد أن هذا ليس سوى قصور في نظر المشرعين الاغريق ، ثم يأخذ في الاشارة بالقانون الروماني وبما يمتاز به من واقعية وبعد نظر في التشريعات وأخيرا يذكر نص القانون في عقوبة كل من يرتكب هذه الجريمة الشنيعة . إن ما تقدم يوضح إلى حد ما الطابع العام للعقلية الرومانية ، وقد ظهر هذا الطابع جليا فيما أنتجه الفكر الروماني من علم

= كثير من الكتب منها : ١ الله ، أو الحكمة العليا التي تسير الكائنات جميعا *de providentia* ٢ قوة الاحتمال *Constantia* ، ٣ الغضب *de ira* ، ٤ السعادة *de vitabeata* أما المجموعه الثانية فهي الآثار الادبية وتشتمل على قصيدة في الهجاء وعلى عدد من المسرحيات من نوع التراجييدي : منها : هيركول غاضب ، نساء طرواده ، أوديب ، فيدر .

(١) لقد أثارت نشأة القانون الروماني كثيرا من الجدل فبعض العلماء يرى أن القانون نشأ في بيئة رومانية خالصة دون أن يكون له مردد أجنبي ؛ ويرى البعض الآخر أنه استمد أصوله الأولى من القانون اليوناني ؛ ولكن ليس هناك ما يمنع أن يكون قد اعتمد على الناحيتين معا .

وأدب وفن ، وقد قصدنا من هذه الملاحظات أن نلقى بعض الضوء على الحضارة الرومانية كي يستبين لنا بعض الفوارق الجوهرية بين الحضارة الرومانية والحضارة الأغريقية . ولنذكر الآن كيف وصلت آثار الحضارة اللاتينية أو الرومانية إلى بيئة العراق ؟

لم يكن غزو روما لبلاد الشرق في خلال القرن الأول قبل الميلاد مؤذنا بنقل حضارتها وتأثر الشرق بها عقب الغزو مباشرة وذلك لأسباب واضحة معروفة ، منها أن الشرق لم يكن إذ ذاك في حاجة إلى الحضارة الرومانية الحديثة العهد ، إذ أنه كان غنيا بحضاراته القديمة من ناحية ، وبالحضارة الأغريقية من ناحية أخرى ، تلك الحضارة التي استطاعت في زمن مبكر أن بسط نفوذها على كل بلاد الشرق بواسطة مستعمرات الأغريق وما كانت تشتمل عليه من وسائل مهيأة للبحث والدرس ، ومن هذه الأسباب أيضا أن الدولة الرومانية لم يكن من طبعها الاهتمام بالناحية الثقافية كاهتمامها بالناحية المادية ، وكل الذي يعنيه من وراء غزوها وفتوحها هو أن تبسط نفوذها السياسي ، وتستغل موارد البلاد المالية وتنفذ كل مشروع من شأن تنمية الثروة الاقتصادية ، وما عدا ذلك فهو في نظرها أمر ثانوي . ومن هذه الأسباب أيضا سياسة روما المركزية التي كانت تتبعها مع البلاد المفتوحة بمعنى أن روما يجب أن تكون المركز الأول للامبراطورية الرومانية من ناحية الإدارة ومن ناحية السياسة ومن ناحية الحضارة ، فالرئيس الأعلى للدولة يجب أن يقيم في روما والرؤساء الإداريون والعسكريون في البلاد المفتوحة يجب أن يكونوا موظفين لروما ، وثمار البلاد الفنية والاقتصادية والفكرية يجب أن ترسل إلى روما فكم من كتب قد نسخت في الاسكندرية وفي انطاكية وفي برجام لتزيد من ثروة مكتبة روما العلمية ، وكم من آثار

وتحفظ قد نقلت لتزين مؤسسات روما وميادينها العامة ! وكم من علماء أخذوا كأسلاف من البلاد المغزوة ليثبتوا أسس الحضارة في روما وليرفعوا من مجدها العلى ؛ ولقد كانت هذه السياسة المركزية بداية لسياسة استعمارية هائلة ، تلك السياسة هي جلب أولياء العهود ورجال الحكم في المستقبل إلى روما لتنشئتهم أو لأعدادهم سياسيا وفكريا لإدارة شعوبهم باسم روما ولمصلحتها هي دون مصلحة تلك الشعوب ؛ وقد لعبت هذه السياسة دورا خطيرا في مستقبل هذه الشعوب ولا تزال هذه السياسة تلعب نفس الدور حتى الوقت الحاضر بالنسبة للندن والمستعمرات الانجليزية في مختلف القارات .

لكل هذه الأسباب قد أبقت الدولة الرومانية على الأنظمة الإدارية الفرعية وعلى المعاهد العلمية المنتشرة في أقطار الشرق دون أن تحاول إدخال شيء من التغيير عليها ؛ وإذن فلم تظهر الحضارة الرومانية في الشرق إلا في عصور متأخرة عن فتوحها ؛ وكان ذلك نتيجة لعاملين أساسيين أحدهما عامل سياسى ، والثانى عامل دينى . وسنحاول توضيح كل من العاملين على انفراد أما العامل السياسى فاننا نقصد منه تلك الحروب الطويلة والمتواصلة تقريبا بين الجيوش الرومانية وبين الفرس ، حكام العراق ثم ماتج عن هذه الحروب من صلات أدبية ومادية وفكرية وفنية . دامت هذه الحروب بين هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين ، المتنافستين على سيادة الشعوب نحو من ٧٠٠ سنة من القرن الاول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى ، وكان ميدان هذه الحروب في أغلب الأحيان الأراضى التى تحف بنهر الفرات شرقا وغربا أتاحت هذه الحروب فرصة للرومان بتحصين مجموعة من المدن الهامة فى تلك المنطقة لتكون بمثابة معسكرات دائمة للجنود الرومانيين يعاشرون بواسطتها السكان الأصليين ويختلطون بهم ويتبادلون معهم الأفكار والمعارف ، وأهم

هذه المدن هي : مدينة دقي في الشمال الشرقي من أنطاكية في سوريا ، ومدينة حران أو الرها ، كما كان يسميها الروم أنفسهم ، الواقعة في شمال العراق ومدينة آمد التي عرفت فيما بعد باسم « ديار بكر » ومدينة دارا ، ومدينة نصيبين ، ومدينة سنجار ، ومدينة ماردين ، وأغلب هذه المدن كما نرى يقع في بيئة العراق نفسها . في خلال هذه القرون السبعة كان الروم إما مستعمرين لهذه المدن ، وإما مستعدين لشن حملاتهم منها على الفرس في الشرق وإما متأهبين لاستردادها بعد أن أجلاهم الفرس عنها . وإذن فمن الصعب أن يتصور المرء هذه الحال في خلال تلك القرون الطويلة دون أن يتصور مع ذلك أثر الفكر الروماني والحضارة الرومانية في بيئة العراق .

ولعل أبرز أثر في هذا هو أثر الهندسة المعمارية أو فن البناء عند الروم ، فقد اكتشف العلماء الأركيولوجيون حديثا في كل هذه المدن التي ذكرناها أو في خرائبها معسكرات وحصونا ، وقلاعاً ، وقصوراً وأسواراً كلها قد بنيت على الطراز الروماني^(١) .

بل إن هذا الأثر قد تعدى هذه المدن إلى مدن أخرى أبعد مسافة في داخل بيئة العراق وليس بينها وبين المعسكرات الرومانية صلة ما ، وذلك كمدينة طيسفون (المدائن) العاصمة الفارسية الواقعة على شاطئ نهر دجلة بالقرب من مدينة سلوقية العاصمة الأغريقية ، والقريبة أيضا من موقع مدينة بغداد العاصمة العباسية . في سنة ٣٦٣ ميلادية وصل الإمبراطور الروماني جوليانوس الذي حكم من سنة ٣٦١ إلى سنة ٣٦٣ م ، في حروبه مع سابور الثاني ، ملك

(١) انظر ما كتبه الاستاذ سيميتون لويد في كتابه - الرافدان - ص ١٤٦ - ١٨٤ حيث هذه المدن وآثار الروم فيها .

الفرس إلى مدينة طيسفون مشتتا أمامه فلول الجيوش الفارسية ؛ وهناك يقول مؤرخ الحملة الروماني أميانوس مارسيانوس ، أنهم وجدوا في هذه المدينة العظيمة ذات الطابع الشرقي قصراً قد بنى على الطراز الروماني فهزت الجنود نشوة الفرح برؤيته ، ولهذا فقد تركوه دون أن يمسه بأي ضرر . وكان هذا عكس ما صنعوه في تلك الحملة الحربية من تخريب المدن وحرقتها وقتل من فيها على طول الطريق .^(١) ثم إن المنقبين قد اكتشفوا منذ قريب الجزء الذي لا يزال باقيا من ايوان كسرى العظيم في مدينة طيسفون ، وقد وجدوا أن هذا الجزء ليس إلا اقتباسا من الفن الروماني .

وهناك أثر آخر عدا فن البناء وما يستتبعه ، يعتبر نتيجة لذلك العامل السياسي ، الذي نتحدث عنه الآن ، ومساهما بقدر ما في تعرف بيئة العراق بالحضارة الرومانية ؛ ذلك هو ما كانت تستلزمه تلك الحملات العسكرية الرومانية من شق الطرق وتعبيدها وحفر القنوات وتنظيفها . ولعل أهم شيء في ذلك الميدان هو ما قام به نفس الامبراطور الروماني جوليانوس في أثناء حملته المتقدمة من حفر قناة عظيمة تصل نهر الفرات بنهر دجلة بالقرب من مدينة طيسفون وذلك لنقل أسطوله الضخم من الفرات إلى دجلة في أثناء مطاردته للفرس^(٢) .

وينبغي أن نضيف إلى ماتقدم أيضا ما عرف عن أباطرة الروم وقوادهم من اصطحابهم للفلاسفة والعلماء أثناء فتوحهم وغزواتهم أسوة بما كان

(١) انظر - الرافدان - ص ١٦٩ - ١٧٠

(٢) يذكر سيتون لويدي ص ١٦٩ أن هذا الاسطول كان مكونا من ١١٠٠ سفينة نهريّة بينها ٥٠ سفينة كبيره مسلحة ، وفي ص ١٧٠ يشير إلى أن الذي حفر هذه القناة ربما كان الامبراطور الروماني سيفيروس .

يصنعه الإسكندر الأكبر من قبل ، ولهذا أثره الذى ينبغي ألا يهمل بصدده ما نتحدث عنه ودليلنا على ذلك ما يرويه المؤرخون من أن الإمبراطور الرومانى جوليانوس حينما أصيب بسهم من سهام الفرس على أثر خلعه لدرعه بالفضبة لشدة الحر - كانت إصابة السهم فى كبده - نقول ، حينما أصيب بهذا السهم ولزم سرير الموت قد ختم حياته بمناقشة فلسفية طويلة مع من كان يصحبه من الفلاسفة (١) .

ومن آثار نفس العامل السياسى أيضا ما صنعه كسرى ، ملك الفرس ، بعد أن أحرق جنده فى إحدى حملاته الحربية ضد الروم مدينة أنطاكية وهذا الصنيع فى الواقع بعيد الدلالة بالنسبة لتأثر البيئة العراقية بالحضارة الرومانية ؛ ولعل دلالة هذا الصنيع أبلغ من كل ما تقدم : يحدثنا التاريخ أن كسرى قام بهذه الحملة غربا حتى وصل إلى أنطاكية على شاطئ البحر الأبيض ، وهناك حاصر المدينة أياما ، ولما امتنعت الحامية الرومانية من التسليم أشعل جنود كسرى النار فى المدينة التى كانت تمثل فى ذلك الوقت الحضارة الرومانية فى الشرق أوضح تمثيل من حيث السكان والآداب والفنون والحياة الاجتماعية ، ولقد حز فى نفس كسرى ما صنعه الجند وخصوصا حينما رأى مظاهر الحضارة الرومانية فى الجزء الباقى من المدينة المنكوبة وهذا جعله يصمم على أن يجمع من بقى من سكان المدينة ويصحبهم معه إلى العراق ويبنى لهم مدينة أخرى تمثل مدينتهم الأولى خير تمثيل ثم ينقل إليها كل

(١) يروى أن هذا الإمبراطور نشأ فى أحضان الديانة المسيحية ، ولكنه أنكرها فيما بعد وارتد إلى الوثنية ، بل أنه عمل على أحياء الوثنية من جديد . وحينما أحس بالموت أخذ قطرات من جرحه الدامى ثم قذف بها نحو السماء قائلا « لقد انتصرت أيها المسيح ،

مظاهر الحياة الرومانية والحضارة الرومانية ، وقد فعل ، فأسس لهم مدينة جديدة بالقرب من طيسفون سماها - مدينة كسرى المفضلة على أنطاكية ، وكان كسرى يقصد من وراء ذلك أن يبعث في مملكة بابل القديمة مظاهر الحضارة الغربية ^(١) . وعلينا نحن الآن أن نتصور مدى تأثير هذه المدينة الأجنبية في بيئة العراق .

وقبل أن نفرغ من الكلام على هذا العامل السياسى ونتأمله القريبة والبعيدة نحب أن نضع أمام القارئ صورة موجزة لهذه الصلات السياسية أو الحربية بين الروم والفرس أو بين الروم وبيئة العراق لكي يدرك في يسر أن الاحتكاك بين الشعبين كان متواصلا تقريبا ، ومن ذلك يمكن استنتاج أن هذا الاحتكاك بالرغم من مظهره العدائى ، لا بد وأن يترك أثرا في البيئة وفي الحياة الخاصة والعامة وفي المعرفة والتفكير ، بل ربما كان هذا المظهر العدائى بين الروم وسكان العراق أكثر مدعاة للفت النظر والعناية بكل ما يمكن أن يكون عليه الروم من ثقافة وحضارة : إن أول حرب بدأت بين هاتين الامبراطوريتين كانت حوالى سنة ٥٤ ق. م ، حيث قام جيش روماني على رأسه كراسوس - *Crassus* ، ثالث الثلاثة الذين اقتسموا الحكم في روما : أولهم قيصر وثانيهم يومي . استمر هذا الجيش في زحفه حتى عبر نهر الفرات ووصل إلى مدينة حران (الرها) ولكنه يغلب على أمره ويقتل قائده بأيدي الفارثيين أيام حكم أورود الأول ، الذي تولى الأمر فيما بين سنتي ٥٧ ، ٣٧ ق. م .

تصل أنباء هذه النكبة إلى قيصر ، وهو الرجل الذي أسس مجده على الحرب والانتصار ، فيحزن لها ويحس بالم عميق من جرائها ويأخذ على

(١) انظر الرافدان ص ١٧٨

نفسه الانتقام من الفارثيين ، فيبدأ في أعداد حملة ، ولكنه قد اغتيل في مجلس الشيوخ ١٥ مارس سنة ٤٤ ق.م قبل أن تبدأ الحملة سيرها . أما الفارثيون فكان الأمر لديهم غير ذلك ، فأن هذا النصر الذي أحرزوه ضد كراسوس ، وذلك الاضطراب السياسى الذى كان يسود روما قد أغرياهم بالتقدم نحو الغرب ومهاجمة ممتلكات روما ، وهكذا فعلوا حتى وصلوا إلى مدينة اورشليم في فلسطين . وعندئذ يفرع انطونيوس في مصر فيقوم من الاسكندرية على رأس جيش لايقات زحف الفارثيين ، ويشتبك الفريقان ويكون النصر أولا حليف انطونيوس ، غير أنه لم يلبث أن يهزم فيترجع بعد أن فقد معظم جيشه . وفي عهد الامبراطور أوغسطس نجده يتبع سياسة المهادنة فيعقد صلحا مع الفارثيين ويكتفى بالمحافظة على أملاك روما في كل المناطق الواقعة غرب نهر الفرات . وهنا نجد روما تلجأ إلى سياستها الخطيرة التى استخدمتها من قبل مع البطلمة في مصر ومع السلوقيين في سوريا ، تلك السياسة التى تقوض أركان القومية في الشرق وتهدم كيان شعوبه : جهدت روما في وادى دجلة والفرات ، كما جهدت في غيره من الأقطار سابقا ، فى أن تستحوذ على أولياء العهد أو على رجال آخرين تربهم فى أوساطها وتلششهم بين أبنائها حتى إذا ما حان وقت تتويجهم بعثت بهم إلى بلادهم ، وربما توجهوا فى حضرة الامبراطور فى روما نفسها ثم عادوا إلى أوطانهم ليحكموا شعوبهم ، وهم فى الواقع ليسوا سوى صنائع الرومان وعملاتهم . وها نحن أولاء لانزال نرى صورة هذه السياسية الخطيرة ترسم وتطبق فى لندن . كان من نتيجة سياسة روما فى وادى دجلة والفرات أن خلقت أولا من قبائل الارمن الذين كانوا يعيشون متفرقين وفى شبه عزلة سياسية واجتماعية فى شمال ذلك الوادى وفى غربه ، نقول ، خلقت منهم دولة متماسكة حليفة لتكون شوكة فى جانب الفارثيين وتكأة لتنفيذ

مطامعها السياسية والاستعمارية ، ثم لجأت إلى أخ الملك الفارثي الذي كان يحكم على بيئة العراق آنذاك واستدعته إليها وأعدته لتولى الملك في أرمينية وكان اسمه تيريدات ، وفعلًا توجهت في حضرة الامبراطور نيرون وأعادته ليجلس على عرش أرمينية . والمتتبع لتاريخ روما في الشرق يجد أن هذا العمل من جانبها كان بمثابة التهديد لتنفيذ خطة مرسومة ذات مطامع سياسية واسعة ، وأهداف استعمارية بعيدة المدى . بدأت هذه المطامع تظهر جليًا ، وتلك الخطة المرسومة تنفذ عمليًا في عهد الامبراطور تراجانوس ، إذ قام هذا الامبراطور على رأس جيوشه وتدفق بهم عبر نهر الفرات مطمئنا على مؤخرته ومكتسحا بهم جيوش الفارثيين في بيئة العراق ، ومخترقا معهم نهر دجلة أيضا ومستوليا بواسطتهم على هذه المدن الآتية : بابل ، طيسفون ، نينوى . اربل ، كوكيلة ، وكانت هذه هي أهم المدن في حكومة الفارثيين ، بل كانت العواصم للأقطار المختلفة في وادي الرافدين ، وبذلك أصبحت تلك الاقاليم مستعمرات رومانية من جديد ، وكان ذلك في عهد الملك الفارثي خسرو ، الذي حكم من سنة ١٠٦ إلى سنة ١٢٩ م . يموت تراجانوس ويخلفه هادريانوس فيتبع في بيئة العراق سياسة الامبراطور أوغسطس من قبله ، إذ يترك للفارثيين كل الاراضي الواقعة بين الرافدين ، ويكتفي بالمحافظة على الاملاك الرومانية الواقعة غرب الفرات ، غير أن هذا الحال لا يدوم أكثر من خمسين سنة إذ ثأى جيوش روما مرة أخرى تحت إمرة القائد - كاسيوس وفي عهد الامبراطور - ماركوس أوريليوس - فتغزوا بيئة العراق ، وهكذا تستمر الحرب سجالا بين الروم والفارثيين في وادي الرافدين طورا في جانب هؤلاء وطورا في جانب أولئك مدة حكم ماركوس أوريليوس ، سبتييموس سيفيرس حتى يتولى أمر الجيوش الرومانية - كاراكالا - بن سيفيروس فيني

تلك الحروب المتواصلة بين الإمبراطوريتين بمجرورة يرتكبتها بواسطة خديعة
دنيئة ينصب شراكها ضد الفارثيين ^(١) وبهذا تستمر بيئة العراق تحت حكم
الروم مدة آخر ملوك الفارثيين وأوائل حكم الفرس الساسانيين . إن أول
ملوك الفرس الساسانيين هو أردشير الأول الذي حكم من سنة ٢٢٤ حتى
سنة ٢٤١ م ، وفي أثناء حكمه يدخل في حرب مع الروم وينجح في أجلائهم
عن العراق الجنوبي والأوسط ، ثم يأتي ابنه سابور الأول من سنة ٢٤١ إلى
سنة ٢٧٢ م . فيواصل الحرب على الروم في شمال العراق وينجح في
اجلائهم أيضا عن بعض مقاطعاته ثم يتوج أعماله الحربية مع الروم
بهزيمتهم في موقعه أديسا (الرها) وأسره للإمبراطور الروماني - فاليريانوس
واستيلائه بعد ذلك على مدينة أنطاكية وطرسوس وقيصريه ؛ وبذا أصبحت
أملاكه تمتد داخل الأناضول . يبقى الأمر على هذا الحال ، بالرغم من
المناوشات البسيطة المتكررة بين الطرفين حتى يتولى أمر الفرس نرسيس ،
الذي حكم من سنة ٢٩٣ إلى سنة ٣٠٢ م ، فيتجدد النزاع بشكل جدى بين
الفرس والروم وتنشب المعارك في شمال وادي الرافدين بين هذا الملك
الفارسي والقائد الروماني - جاليريوس - في منطقة حران يكون النصر حليف
نرسيس أول الأمر ، ولكن الحرب تنتهى بنصر الجيش الروماني .

وبعد عهد نرسيس تمضى فترة قصيرة من الهدوء النسبي هي مدة حكم

^(١) تلخص هذه الخديعة في أن كارا كالا تظاهر بالولاء للفرثيين ولكي يؤكد
هذا الولاء طلب الزواج من ابنة الملك الفارثي ، وأقيمت معالم الزينة للاحتفال بهذا
الزواج الملكي . وانتظر كارا كالا بجيوشه خارج مدينة طيسفون ، وعندما خرج
من أسوار المدينة سكانها وجيوشها تزينهم حلل الأفراح لمشاهدة هذا الاحتفال
أعمل فيهم كارا كالا وجيشه السيف ذبحا وتقيلا حتى قضى على قوة الفارثيين نهائيا .

هرمرز الثاني الذي لم تدم إلا من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣١٠ م. ثم يحىء سابور
 الثاني الذي بقى في الحكم ستين عاما من سنة ٣١٠ إلى سنة ٣٧٠ م. وبعد ثلاثين
 عاما من حكمه ، كان أهم ما يشغله خلالها إعداد العدة لمنازلة الروم ، يبدأ
 حروبه معهم فينتصر الروم في مدينة سنجار ، ثم ينازلهم في مدينة نصيبين
 وتنتهى هذه المعركة الأخيرة بهدنة لم تدم إلا ريثما يعد كل فريق عدته
 للحرب ثانية ، ويكون البادى بها سابور الثاني ، فيتجه إلى الشمال ويمر
 بنصيبين ، التي كانت تضم حامية رومانية لم يسلم من أذاها ولكنه يتغلب عليها
 ويصل إلى مدينة آمد التي أوقفت زحفه لمدة سبعين يوما لأنه أراد أن يتخلص
 منها نهائيا ، وكانت كسابقاتها تضم حامية رومانية وعددا كبيرا من أشرف
 الروم ، وأخيراً يصل إلى مدينة سنجار فيستولى عليها بعد هدم ما فيها من
 حصون ؛ وكل ذلك كان تمهيدا للوصول إلى أنطاكية المركز الرئيسى لتجديد
 الحملات الرومانية نحو الشرق . ولكن قبل أن يصل إليها كان قد وصل
 إليها امبراطور روماني جديد هو - جوليانوس ، الذي تولى أمر الدولة
 الرومانية من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٦٣ م. وهنا يتغير مجرى الحرب بين
 الفرس والروم حيث يبدأ هؤلاء بالهجوم تحت قيادة جوليانوس فيعبرون
 الفرات ويكتسحون الفرس أمامهم على طول الطريق شمالا وجنوبا وشرقا
 فن حران إلى نصيبين ؛ ومن ذلك إلى تبساكوس المعروفة باسم - تفساح -
 ومنها إلى مقاطعة آشور ؛ ومن ذلك إلى مدينة طيسفون ، العاصمة المشهورة
 على شواطئ نهر دجلة ، وهناك في هذا الجزء الجنوبي من بيئة العراق
 تتزاحم الكوارث على جيوش الروم فيحرق الاسطول الضخم ، ويموت
 الامبراطور متأثراً بجرح أصابه من سهم في كبده ، ويتجمع الفرس المشتتون
 ويعيدون الكرة على الروم ، الذين أخذوا في التراجع سريعا إلى الشمال
 وإلى الغرب .

ثم يأتي الامبراطور جوفيان ، الذي حكم من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٣٦٤ م
فيتدارك الموقف ويمضى معاهدة مع سابور الثاني يتنازل بمقتضاها عن سنجار
ونصيبين ، وأرمينية ، ويكتفى بأن يكون الفرات هو الحد الفاصـل بين
ممتلكات الدولة الرومانية والدولة الفارسية وتبقى الأمور على هذا الحال نحو
قرن من الزمن حيث تقل جدا الاشتباكات الحربية ولكن تبقى باستمرار
صلات الجوار . وفي عهد قباد الاول ملك الفرس ، الذي تولى من سنة ٤٨٨
إلى سنة ٥٣١ م . تتجدد الحروب مع الدولة الرومانية ، ولكن في دائرة
ضيقة وبناتج حاسمة ، يلتزم قباد فيها جانب الهجوم ويقف الجيش الروماني
منها موقف الدفاع ، وأخيرا يفضل قباد سياسة المهادنة ، وقبل أن تصل
المفاوضات بينه وبين الروم غايتها يموت ويترك الأمر لابنـه كسرى الاول
أو كسرى أنوشروان ، الذي حكم من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م ، ويلتزم
كسرى في أول الأمر سياسة المصالحة ، التي اتبعها والده مع الروم في أخريات
عهدـه ، ولكن على أثر نزاع بين المنذر ، أمير الحيرة ، وسكان تدمر في
الجهة الأخرى من البادية بسبب حقوق الرعى يقوم كسرى على رأس جيوشه
ويصعد مع الفرات ثم يتجه إلى أنطاكية فيحاصرها ، ولما لم يرض الروم
في داخلها بالتسليم يشعل الفرس النار في المدينة فتأق عليها ، وكان ذلك في
عهد جوستينيان ، أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، الذي حكم من
سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ م . وفي هذه الاثناء تظهر على مسرح السياسة
قوة جديدة في الشرق ، وتحاول كل من الدولتين ، الرومانية والفارسية ،
أن تخطب ودها ، وتحالف معها ؛ تلك هي أمة الترك ولكن القسطنطينية
التي ورثت مثل هذه السياسة عن روما ، تتغلب على الفرس ، وتتآلف مع
الترك على حساب الدولة الفارسية ، ولقد ظهر أثر هذا التحالف في آخر

عهد كسرى حينما قام بحصار مدينة دارا في شمال وادي الرافدين ، التي أصبحت أخطر مركز روماني لتدريب الجيوش وإعداد الحملات الحربية ضد الفرس ، إذ أنه فوجيء بقوة هائلة من الترك والروم معا لم يستطع التغلب عليها . ويعقب موت كسرى فترة لا تكاد تتجاوز عشر سنوات يصح أن نسميها فترة ركود ، إذ أن الأمور تظل على ما كانت عليه تقريبا حتى يتولى الأمر كسرى الثاني من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٢٨ م . وقد كان كسرى أبعد نظرا وأوسع أفقا من كل من سبقه من ملوك الفرس ، ولذا فإنه اتبع سياسة مع الدولة الرومانية أقل ما توصف به أنها سياسة عجبية : رأى أن الشرق في ذلك الوقت تتنازعه قوتان ، قوة مادية في يد القسطنطينيين ، وقوة روحية في يد المسيحيين ، ولكي يحقق مخطمعه الواسعة عمد إلى ترضيه هاتين القوتين ، فعقد محالفة مع القسطنطينيين ، وتزوج من مسيحية ، عكس ما كان مألوفا عند الفرس . ولقد جنى بسرعة ثمر ذلك ، فأن محالفته للقسطنطينيين قد جعله يكتشف نقط الضعف في الدولة الرومانية فيعد عدته وينقض شروط المحالفة ويقوم بالهجوم المباغت على كل المراكز الرومانية في الشرق ، وزواجه من المسيحية قد جعل المسيحيين في الدولة الرومانية يتلقون أخبار هذا الهجوم بشيء من الفتور ولا يتحمسون للدفاع عن مصالح الروم ، ولذا فكان من اليسير على كسرى أن يستولى على كل الحصون الرومانية واحدا بعد آخر . فأخذ الرها ، وسنجار ، ونصيبين ، ودارا ، وماردين ، وآمد وأنطاكية ، وفي هذه المدينة الأخيرة يقسم جيشه إلى قسمين : قسم يذهب إلى الشمال لمهاجمة آسيا الصغرى ، آخر معقل للرومانيين ، ويصل في تقدمه إلى شواطئ البسفور ، ويذهب هو على رأس القسم الآخر نحو الجنوب فيأخذ طرابلس ، ودمشق ، وبيت

المقدس ، وهناك لا يقيم وزنا لشعور المسيحيين كما لم يقيم وزنا من قبل
لخالفته مع القسطنطينية فيترك جنده تشعل النار في القدس وتنهب وتخرب
كل ما تقع عليه أيديهم من مقدسات حتى إن مقابر الشهداء لم تسلم منهم .
ثم يعود بما أحرزه من فوز وبما يحمله من كنوز ثملا بخمرة النصر ،
وتاركا خلفه الروم والمسيحيين في غيظ وأسى . ولم يمض على ذلك وقت
طويل حتى تستيقظ القسطنطينية ويبعث فيها الامبراطور هرقل - من سنة ٦١٠
إلى سنة ٦٤١ م - روح القوة من جديد . وقبل أن يعد عدته المادية ليشار
من كسرى بدأ يمهّد لذلك بأمرين : الاول ، تقربه من الترك ثم تجديد
مخالفته معهم حين بدء القتال ، والثاني ، تعبئة الشعور العام عند المسيحيين
ضد كسرى بأثارة ما صنعه بمعتقداتهم ومقدساتهم . وحينما تهيأت له تلك
الاسباب قام بحملة وقسم جيشه إلى عدة أقسام وأرسل كل قسم جهة خاصة
حتى يرتبك أمر الجيش الفارسي وقد نجحت هذه الخطة نجاحا كبيرا فلم
يستطع كسرى أن يلم شعث جنوده ويقا تل العدو في جبهة واحدة . ولم يلبث
هرقل ، بعد أن أحدث هذا الاضطراب في ممتلكات كسرى وفي جيوشه
أن سار بنفسه في اتجاه دجله لكي ينهى الحرب بمعركة فاصلة ، وفي منطقة
ينغوى يلتقى بالجيش الفارسي فيهزمه . ولما سمع كسرى بخبر هذه الهزيمة ،
وكان قد انتقل إلى - دستجرد - المدينة الجديدة التي بناها لتكون عاصمة
ملكه ، فر منها وعاد إلى طيسفون ، حيث تنازل عن العرش . وإن يحسم
النزاع المتواصل المير بين الطرفين نهائيا إلا قوة جديدة تظهر على مسرح
السياسة في هذه الاثناء ، تلك هي قوة العرب وما تحمله من دعوة إلى
الجهاد في سبيل نشر ألوية الإسلام . وإن المؤرخ ليدّش حقا حينما
يفكر في تلك النتائج الحاسمة التي وصلت إليها تلك القوة العربية

البيضة^(١) من قضائها على هاتين الدولتين العظيمتين ذواتي الحصون والقلاع

(١) يروى المؤرخ سيتون لويدي في كتابه - الرافدان - ص ١٩٤ أن خالد بن الوليد في غزوته الأولى للعراق لم يكن معه سوى ٥٠٠ رجل . ويذكر أيضا في ص ١٩٧ أن عمرو بن العاص أقدم على فتح مصر وليس معه إلا ٤٠٠ رجل . ويروى لنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتابه - تاريخ الأمم والملوك - الجزء الرابع - ص ٢٨ - الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية - أن أول أمير عربي يصل الشام لمحاربة الروم كان يزيد بن أبي سفيان على رأس ٧٠٠٠ رجل في سنة ١٣ هـ ثم يذكر بعد ذلك في ص ٣٢ من نفس الجزء أن جيش الروم قبل أن يصل خالد بن الوليد بمدده كان ٢٨٠٠٠٠ رجل وكان المسلمون ٢٧٠٠٠ رجل ، وجاء خالد على رأس ٩٠٠٠ رجل وبذا كان المسلمون جميعا ٣٦٠٠٠ رجل .

ويروى ابن جرير الطبري كذلك بمناسبة الحديث عن حرب الفرس وموقعة القادسية التي كانت بمثابة الحد الفاصل بين عهد الفرس في العراق وعهد العرب أن سعد بن أبي وقاص حينما رأى رستم قائد الفرس على رأس ٦٠٠٠٠ رجل من الجيش المنظم ، وهذا عدا جيش آخر من الحاشية والرقيق والأتباع طلب مددا من عمر بن الخطاب فبعث إليه المغيرة بن شعبه الثقفي في ٤٠٠ رجل من المدينة ، وكذلك أمده بقيس بن مكشوح المرادي في ٧٠٠ رجل ، ثم كتب إلى أبي عبيدة أن أمد سعد بن أبي وقاص بألف رجل ففعل وأمر عليهم عياض بن غنم الفهري ؛ وعلى هذا فكان مدد سعد كله ٢١٠٠ رجل .

هذا ولو رجعنا إلى وراء قليلا ولاحظنا مبلغ الاستعدادات الحربية لما كان يدور من معارك بين الروم والفرس لظهر لنا الفرق الواضح بين جيوش العرب وجيوش هاتين الدولتين ؛ ففي عهد سابور الثاني ، ملك الفرس ، يذكر سيتون لويدي في كتابه - الرافدان - ص ١٦٧ أن هذا الملك قد خسر في معركة واحدة أثناء حصاره الروم في مدينة آمد ٣٠٠٠٠ جندي ولم يؤثر ذلك كثيرا في جيشه . وفي ص ١٦٨-١٦٩ يذكر أن جوليانوس ، امبراطور الروم ، كان يحارب الفرس ومعه ٦٥٠٠٠ جندي عدا أسطول ضخم يضم ١١٠٠ سفينة .

والأساطيل الضخمة ، والجيوش الجرارة المثمرة مئات السنين على أساليب الحرب وخدعها والأعداد لها .

وبعد فلعل القارىء يستطيع أن يلبس من قراءته لهذا العرض السريع مبلغ الصلات بين الروم وبيئة العراق ويدرك مقدار ما يمكن أن يكون لهذه الصلات من أثر للفكر الرومانى والحضارة الرومانية فى هذه البيئة وفى حياتها وفى سكانها . ولننتقل الآن إلى العامل الأساسى الآخر ، ذلك هو : العامل الدينى .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أولا أن العامل السياسى ، الذى تقدم الحديث عنه ، قد مهد كثيرا للعامل الدينى ؛ ثم إن العاملين قد سارا معا جنبا إلى جنب يشد أحدهما إزر الآخر حتى استقل العامل الدينى آخر الأمر . لقد قامت الدعوة الدينية المسيحية أول ما قامت فى بيئة فلسطين أيام حياة المسيح وبعد أن انتهت حياته فى عهد الإمبراطور طيبريوس ، الذى حكم من سنة ١٤ إلى سنة ٣٧ م ، انتشر تلاميذ المسيح المخلصون فى أنحاء البلاد يبشرون بالدين الجديد وينشرون الدعوة إليه بين مختلف الشعوب ؛ وكانت السيادة السياسية إذ ذاك لروما ؛ فلم يكن هناك مناص لهؤلاء الدعاة من أن يتعلموا اللغة اللاتينية ويفهموا حضارتها من أدب وعلم وفن لى يسهل عليهم أداء الرسالة التى وقفوا أنفسهم من أجلها ؛ إذ كان من أهدافهم الأولى أن تعترف روما بهذا الدين الجديد فيصبح الدين الرسمى لكل الإمبراطورية الرومانية وليس يعنينا هنا أن نتعرض لتاريخ هذه الدعوة ، ولا لما تحمله دعائها فى خلال القرن الأول ، والثانى من أباطرة الروم من أنواع الاضطهاد والتعذيب والاستشهاد ، فلقد كان هؤلاء الأباطرة يرون أول الأمر أن من أهم مقومات الدولة الرومانية المحافظة على دين روما الوثنى ،

كما كانت حياة هؤلاء الدعاة للمسيحية صورة رائعة للجهاد ، إذ أن وسائل العنف التي لجأ إليها الأباطرة ضدهم كانت صوراً رهيبية لأفظع ما عرفتـه الإنسانية من قسوة : فمن قتل إلى صلب ، ومن حرق إلى تشريد ومن تعذيب إلى الإلقاء بهم أحياء إلى أفواه الوحوش الضارية تنهشهم أمام الجموع الغفيرة من النظارة . ولكن الذي يهمنا من كل ذلك هو أن نعلم أن هذه الدعوة الدينية الجديدة قد بدأت تنال شيئاً من عطف سادة روما أيام حكم الإمبراطور هادريانوس ، الذي حكم من سنة ١١٧ إلى ١٣٨ م ، فقد منح هذا الإمبراطور حرية الدعوة للدين المسيحي ، وبذل لدعاتها الحماية من ظلم الحكام في سائر الولايات الرومانية . ويستمر هؤلاء الدعاة في أداء رسالتهم حتى تعترف روما بالدين المسيحي كدين رسمي للدولة ، وهنا يبدأ عهد جديد ، وتتغير نظرة المسيحيين لروما ولآثارها العلمية والأدبية والفنية تغيراً كاملاً ، فتصبح اللغة اللاتينية لغة للدعوة المسيحية كما كانت من قبل اللغة اليونانية والسريانية ، وتصبح الثقافة اللاتينية مطعماً للمسيحيين وتنتشر بواسطة مجهوداتهم المتواصلة في كل بلاد الشرق ، ثم يتركز لها نوع من النشاط في وادي دجلة والفرات حيث البيئة المهددة من قبل بما كان فيها من مدارس ومعاهد للعلم . ولعل أهم الطوائف التي عملت على نشر الثقافة اللاتينية في هذه البيئة هي طائفة السريان الذين كانوا بمثابة حلقة اتصال مستمر بين بيت المقدس ، المركز الروحي لهذا الدين ، وبين الكنيسة المسيحية في أرض النهرين . ولو أضفنا إلى ذلك ما هو معروف من أن الصلة كانت وثيقة جداً بين بيت المقدس وروما ، وأن التبادل الفكري كان مستمراً بينهما لما وجدنا عناء في تعليل انتقال الآثار الأدبية والعقلية الرومانية إلى البيئات الدينية والعلمية في أرض النهرين ، ولقد رأينا فيما مضى ، حينما كنا بصدد

الحديث عن نشاط السريان ، أن جانباً من مجهودهم قد اتجه إلى ترجمة بعض الآثار الثقافية من اللغة اللاتينية إلى اللغة السريانية . كما فعلوا مثل ذلك أيضاً بالنسبة للآثار اليونانية ، وهناك مسألة هامة أخرى ينبغي ألا تغيب عنا ، ذلك أن المسيحيين الذين كانوا يقيمون في أرض النهرين كانوا يشعرون برباط روحي متين يربطهم بروما وبالآباطرة من الرومانيين ، ولقد دفعهم هذا الرباط إلى أن يقفوا دائماً في صف الحامية العسكرية الرومانية حينما يهاجم الفرس حصون الروم ومدنهم في بيئة العراق . وكثيراً ما استعان هؤلاء المسيحيون بآباطرة الروم ليخلصوهم من ظلم الفرس ، وقد كانوا هدفاً له ما بين وقت وآخر . مثال ذلك ما حدث في عهد يزدجرد الأول ملك الفرس ، إذ أن المسيحيين في مملكة الفرس قد لاقوا الكثير من أنواع الاضطهاد فذهب - ماروثا - أسقف مدينة - ميفارقات - أو - ميفارقين - أو مدينة الشهداء ، إلى القسطنطينية مستجيراً بالامبراطور أركاديوس لكي يعمل من جانبه على تخفيف اضطهاد الفرس للمسيحيين ؛ وكذلك صنع هذا الأسقف مرة ثانية في عهد الامبراطور تيودوسيوس وفي كلتا الحالتين قد تدخل امبراطور الروم في هذا الأمر وحاول جهده أن يرفع الظلم عن المسيحيين المضطهدين في الدولة الفارسية . وما صنعه الفرس في عهد يزدجرد الأول كان صورة لما صنعه أيضاً في عهد يزدجرد الثاني وسابور الثاني ، وكسرى الأول ، وفيروز . في كل هذه العهود ظهر تشيع المسيحيين للروم بشكل واضح ؛ ونتيجة ذلك أن يكون هؤلاء المسيحيون المنتشرون في بيئة العراق على صلة بالحضارة الرومانية كما كانوا على صلة بالدولة الرومانية . بل إن من هؤلاء المسيحيين من ذهب إلى روما ودرس فيها واتصل بعلمائها وأدبائها مثل اسحاق الرهاوي ، الذي أقام في روما قبيل سقوطها على يد

الارليك . ويبدو أنه مكث بها حتى مجيء هذا القائد القوطي سنة ٤١٠ ، كما يبدو أيضا أن الأثر الروحي لعاصمة الروم كان عظيما في نفس اسحاق الرهاوى ، إذ أنه نظم قصيدتين كلتاهما تشيد بروما وبما أثرها : موضوع الاولى الألغاب التي أقيمت فيها سنة ٤٠٤ للاحتفال بعيدها المموى ، وموضوع القصيدة الثانية سقوط روما وتخريبها على يد الارليك . ثم أنه بعد هذا التاريخ عاد إلى أرض النهرين مارا بالقسطنطينية وعمل قسا في مدينة آمد حيث بقي دون أن يفتقر له نشاط في البحث والتعليم حتى توفي حوالى سنة ٤٦٠ م ^(١)

ومن هؤلاء المسيحيين الذين ذهبوا إلى روما أيضا وكان حظهم من ثقافتها واسعا ، ذلك العالم الدينى الكبير - طاطيان . كان هذا العالم في شبابه مغرما بالدراسة والاسفار فترك البيئة العراقية التي نشأ فيها وذهب إلى بلاد اليونان فدرس فيها الفلسفة ومظاهر الحضارة ثم انتقل إلى روما واتصل ببيئاتها العلمية وبقي يتردد على علمائها وأدبائها ورجال الدين فيها حتى اعتنق المسيحية ، ومنذ ذلك الوقت ينال قسطا من التقدير فيشتغل بالتدريس في روما ويتخرج على يديه كثير من رجال الدين والعلم مثل رودون الآسيوى كليمانس الاسكندري ، ونرسيس المقدسى ، وبعد مدة طويلة يقضيها في روما يعود منها إلى الشرق أستاذا كبيرا في سنة ١٧٢ م . وهناك في بلاد آشور يكرس جهده وما بقي من حياته في نشر معارفه وتأليف كتبه ^(٢) .

وبعد فأن القارىء يستطيع أن يتبين من خلال هذين العاملين : العامل السياسى والعامل الدينى ، مبلغ الصلة بين روما وحضارتها وبين بيئة العراق

(١) تاريخ الأدب السريانى للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدى البكرى

وسكانها ، غير أنه ربما يبدو له أن الأثر المادى لهذه الحضارة الرومانية ضئيل فى بيئة العراق ، وهذا صحيح إذا ما قورن بآثار الثقافة اليونانية ، فإن المترجمين لم يهتموا بالنصوص اللاتينية قدر اهتمامهم بالنصوص الإغريقية ، ولعل ذلك لسببين : الأول أن الحضارة الإغريقية أغنى فى مادتها وأسبق فى وجودها مع تعرف الشرقيين بها من الحضارة اللاتينية ، والثانى هو أن المترجمين والنقلة قد وجهوا همهم إلى الآثار العلمية ، لا الآثار الأدبية ، كالفلسفة والطب والفلك والرياضة ، وثرأ الإغريق وأصالتهم فى هذه المواد أوضح بكثير من أصالة الرومانيين ، بل إن ما وجد عند الروم من هذه المواد إنما هو مقتبس مما كان عند الإغريق . ولكن ينبغى أن ننظر إلى هذه المسألة من جانب آخر ، إذ أن دعاة المسيحية الناشئين فى أحضان الثقافة اللاتينية قد قاموا مقام الأساتذة فى معاهد العلم ، ومقام الكتب المترجمة فى مختلف الأوساط ، فكانوا يدخلون بأفكارهم ومعارفهم فى بيئات لم يكن من السهل عليها أن تقف على ما يدرس فى المدارس أو يكتب فى الكتب المترجمة ، وليس من شك فى أن ما نراه الآن من أثر للرساليات المسيحية فى أبسط البيئات وأبعدها يمثل لنا صورة ما كان يحدث فى أوائل عهد الناس بالدين المسيحى الجديد .

نستطيع إذن أن نخلص من هذا الفصل بأن الثقافة اللاتينية بما تضمنته من آداب ومعارف وقوانين لم تكن غريبة ولا مجهولة عن بيئة العراق بسبب ما كان هناك من صلات سياسية ، ودينية مستمرة ، ولقد أخذت معرفة سكان العراق بهذه الثقافة تزداد بازدياد هذه الصلات وعلى الخصوص بعد أن قامت الدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينية ، وأخذت تنافس روما فى عظمتها العلمية ، ومجدها السياسى . ولقد زاد أثر الثقافة اللاتينية

في الشرق بعد ما سقطت روما نهائياً في سنة ٤١٠ م ، وتحول السلطان
الأدبي والسياسي من الغرب إلى الشرق .

اللون الرابع :

اللون الرابع من الحضارات الأجنبية في بيئة العراق هو لون الحضارة
العبرية . ولعل هذا اللون هو أبسط الألوان جميعاً وأقلها أثراً في وادي
الرافدين ، غير أنه من الضروري أن نترسمه ، ونكتبين معالمة ، ونعرف إلى
حد ما مبلغ ما كان لليهود من نشاط فكري في هذه البيئة . وفي الحق إن
نشاطهم كان ضئيلاً في أول الأمر ، ثم لم يلبث أن ازداد نوعاً ما حينما
بدأت بيئة الرافدين تتخلص من الديانة الوثنية وتنعرض لغزو ديني يفد إليها
من الشرق ومن الغرب ، ونعني بذلك غزو الدين الزود شتي ، وغزو الدين
المسيحي . في هذه الاثناء ساهم اليهود بنصيب ، فقاموا يدعون لدينهم ،
ويثبتون أسسه في الجزء الجنوبي على الخصوص من بيئة العراق . وينبغي
ألا يغيب عنا أن الدعوة للديانة اليهودية إنما هو التعريف بالحضارة العبرية
إذ أن النصوص المقدسة عندهم تعتبر جماع تراثهم العقلي والأدبي ففيها الشعر
بأنواعه وفيها النثر وفيها الحكم وفيها القانون وفيها الفلسفة وفيها التاريخ .

وقد وأينا جانباً من هذا الصراع أو التنافس الديني بين اليهودية والمسيحية
حينما كنا نتحدث فيما مضى عن بداية الدعوة المسيحية وانتشارها في بيئة
العراق ، حيث ذكرنا أن ابن ملك حذيب اعتنق اليهودية بعد أن اقصاه والده
على يد داعية يهودي ، وأنه حينما عاد إلى بلده وجد أمه المملكة أيضاً
اعتنقت نفس الدين على يد داعية آخر . غير أن الدعوة المسيحية قد استطاعت أن
تطغى على كل دعوة دينية أخرى فأصبح رجال الديانات الأخرى في موقف يشبه

موقف الدفاع؛ كان همهم الأول هو المحافظة على ديانتهم وحماية المؤمنين بها من الارتداد، أما مطعمهم في احرار الغلبة لها على حساب الدعوة المسيحية الجديدة فكاد يتلاشى. ومع هذا فقد كان لليهود جالية لا يستهان بها في بيئة العراق قد جاء بعض افرادها طوعاً وفي وقت مبكر لاستغلال مواهبهم والمساهمة بنصيب في رقي الدولة البالية - الاشورية، وجاء البعض الآخر اضطراراً بسبب ما أصابهم من سبي بنوخد نصر، ومن هؤلاء وأولئك تكونت جاليتهم وزاد عددها مع مرور الزمن؛ وبما ساعد على ذلك أيضاً هو ما كانوا يتعرضون له من اضطهاد في فلسطين من أباطرة الروم فكانت بيئة العراق بمثابة متنفس لهم يفدون إليها من وقت لآخر فراراً من ظلم الروم وطمعاً في حماية الفرس، وهكذا تكونت جاليتهم وأصبح لها كيان في بيئة العراق، ولم يمض طويل زمن حتى أخذوا ينافسون الفرس والسريان في الحركة العلمية الواسعة، فكان منهم من يعرف الفارسية ومنهم من يعرف السريانية ومنهم من يعرف اليونانية. وبالنسبة لما كانت تعرف به الدولة الفارسية من التسامح وترك العناصر الأجنبية تمارس نشاطها العلمي والأدبي فقد استغل يهود العراق هذه الفرصة وانشؤا لهم مدارس على غرار ما كان يصنعه الفرس والسريان. وهكذا وجدت لهم حركة علمية واضحة، ونشاط ثقافي ملحوظ، وقد امتد هذا حتى الفتح الإسلامي لبيئة العراق. وحسبنا أن نعلم أن هؤلاء اليهود كانوا يمتلكون جامعتين عبريتين في أرض العراق أثناء فتح العرب، وأن أساتذة هاتين الجامعتين وطلابها قد تجمعوا وخرجوا لملاقاة علي بن أبي طالب حينما وفد إلى العراق وأمضوا معه عهداً كفّل لهم فيه حرية العقيدة وحسن المعاملة. وليس من شك في أن هؤلاء اليهود قد قاموا بنصيب في بناء النهضة العلمية الإسلامية في عهد

الدولة الأموية والعباسية ، فكان منهم العلماء ، وكان منهم المترجمون إلى اللغة العربية .

كيف كانت بيئة العراق أثناء الفتح الاسلامي ؟

أظننا بعد هذه الفصول الطويلة ، والتفصيل الذي بلغ حد التكرار في بعض الأحيان نستطيع أن نرسم للقارئ لوحة شاملة لهذه البيئة العراقية أثناء الفتح الاسلامي . لقد كان وادي الرافدين شبيها ببحيرة واسعة ، تهب عليها من حين إلى حين أعاصير ساخنة فتبخر جزءا غير يسير من مياهها ، ثم تحملها معها إلى أجواء أخرى نائية ، حيث ينقى هذا البخار مما علق به من شوائب ثم يتجمع ويتكاثف ، وأخيرا تسوقه الرياح أمامها إلى بيئات طيبة صالحة فيسقط أمطارا ، وحينئذ تتجمع هذه الأمطار مرة أخرى وتشق لها روافد لتصب في نفس البحيرة التي بدأت منها لكيلا ينضب معينها . هكذا كانت بيئة العراق بالنسبة لحضاراتها الأولى من سومرية - أكادية إلى بابلية - آشورية ، ثم بالنسبة للحضارات الأخرى التي وفدت إليها في ظروف متعددة وفي عصور مختلفة . رأينا أول الأمر كيف وجدت في هذه البيئة مظاهر الحضارة منذ القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد ، ثم كيف زادت هذه المظاهر ووصلت إلى درجة كبيرة من النضوج حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، وأخيرا كيف قامت مدينة آشور ، وعملت على نشر هذه الحضارة فأوصلتها إلى آسيا الصغرى وجزر اليونان في البحر الأبيض المتوسط . ومنذ القرن السادس قبل الميلاد نرى آثار الحضارات الأجنبية ، التي استمدت كثيرا من عناصرها الأولى من وادي دجلة والفرات فقد إلى هذه البيئة فتواصل حلقات النشاط الفكري ، وتربط القديم بالجديد .

استمرت إذن بيئة العراق مركزا هاما للعلوم والمعارف بالرغم من الاضطرابات السياسية العنيفة ، وفترات الركود ، التي كانت تتنابها من حين إلى حين ، حتى الفتح العربي . وأهم ما امتازت به هذه البيئة العراقية دون غيرها من البيئات الثقافية الأخرى هو حرص ملوكها منذ القدم على الرقي العلمي ، وبذلهم كل ما يمكن في سبيل إيواء العلماء وإنشاء المكتبات ونقل الكتب والمحافظة عليها . وفي كل ما قرأناه متصلا بالحضارات القديمة من مصرية واغريقية ولاتينية نجد الدليل على أن هذه الميزة قد انفرد بها ملوك وادي الرافدين ، ثم سارت الدول والملوك على سبيلهم فيما بعد . ومن أجل هذا فقد رأينا أول مكتبة عرفها التاريخ تنشأ في بيئة العراق - مكتبة شرجينا في مدينة وركاء - (١) وأول تفكير في استدعاء العلماء الأجانب والاستعانة بهم قد وجد لدى ملوك بابل - استدعوا في أزمنة مبكرة العلماء من فلسطين ومن غيرها وسار على سبيلهم ملوك آشور - (٢) وأول عمل يتصل بنقل الكتب أو بنسخها والتعليق عليها قد تحقق في بابل وفي آشور (٣) . وقد وجد صدى ذلك واضحا عند ملوك الفرس والخلفاء العباسيين . ولو أضفنا إلى ما طبع عليه هؤلاء الملوك من العناية بالعلم ما عرفت به بيئة العراق نفسها من أيوائها الكثير من أفراد شعوب أجنبية ، ومن سماحها لهؤلاء الأجانب بالبقاء مع اعتناق العقيدة التي يريدون وممارسة العلوم التي يعرفون ما داموا يخضعون لسياسة البلاد العليا ، نقول لو أضفنا هذا إلى ما طبع عليه الملوك من العناية بالعلم لانكشف لنا جليا حقيقة الأمر بالنسبة

(١) ص ١٥ - ٢٧ من كتابنا - العراق وما توالى عليه من حضارات

(٢) ص ٥٤ من نفس المرجع

(٣) ص ٥٥ من نفس المرجع

للعراق وما كان عليه من تقدم في العلم والأدب والفن ، فكان هناك السريان واليهود ، وبقايا اليونان والفرس ، وسكان البلاد الأصليين ، وكان لكل فريق من هؤلاء مجتمعه وديانته ، ومعارفه ومعاهده ، وليس من شك في أن هذه الظروف قد أوجدت بين المجتمعات المختلفة نوعا من التنافس العلمي والتسابق في ميدان البحث والانتاج ، وبهذه الصورة وجد العرب بيئة العراق: وجدوا اليهود وهم على ما ذكرنا من المحافظة على تعاليمهم الدينية ، والعناية بالدرس والبحث في جامعتهم ، وحسبهم أن قدموا إلى العربية أمثال - ماسرجويه - الذي ترجم إلى العربية كتابا في الطب يحتوي على ثلاثين فصلا وزاد عليه فصلين من عنده ^(١) ، وجدوا السريان منتشرين في كل المدن العراقية وهم على ما وصفنا من النشاط العلمي ، والدراية الواسعة بالحضارتين اليونانية والرومانية ، والانتاج الضخم في ميادين المعرفة المختلفة ، علماؤهم منبثون في مختلف الأوساط ، ومدارسهم منتشرة في المدن وفي القرى ، فكان لهم ما يزيد عن الخمسين مدرسة ، نذكر منها : مدرسة الرها ، ومدرسة نصيبين اللاهوتية ، ومدرستها الأدبية ، ومدرسة إربل عاصمة حذيب ، ومدرسة سلوقيا ، ومدرسة الحيرة ، ومدرسة قنسرير ، ومدرسة الحزه ، ومدرسة عين الدالية ، ومدرسة دير كفر ماري ، ومدرسة بيت زبدى ، ومدرسة دير عيدا .

وكانت المدارس الرئيسية عند السريان تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الأكاديمية الحديثة في بعض الدول الغربية الآن ، بمعنى أن تفشى المدرسة الرئيسية مدارس فرعية أخرى في المنطقة المحيطة بها ثم تشرف عليها من

(١) تاريخ الأدب السرياني ص ١٩١

ناحية المدرسين وبرامج التعليم ، وأخيرا وجدوا الفرس وهم في أزهى
عصور نهضتهم من ناحية العلم والأدب والفن ، فأن ملوكهم بعد أن
اتصلوا بالغرب ووقفوا على معالم حضارتهم أرادوا مجاراة اليونانيين
والرومانيين في حياة الترف المادى والعلى وفي الثقافة الواسعة ففتحوا
أبوابهم للفلاسفة والعلماء المضطهدين ، وأرسلوا بعوثهم إلى الهند لينقلوا ثمرة
الآثار الأدبية عندهم ، واستعانوا بالترجمين ليرجموا إلى الفارسية عيون الكتب
الأغريقية ، واستخدموا ثروتهم الطائلة في توسيع المدن وتجميلها وإنشائها وفي
بناء المدارس والانفاق عليها ، فأنشأ كسرى أنوشروا مدينة - دستجرد -
لتكون عاصمة جديدة للملك ، وأنشأ مدينة كسرى المفضلة على أنطاكية
بالقرب من طيسفون لتكون صورة للدين الغربي في كل مظاهرها ، وأسس
بالقرب من مدينة السوس مدرسة جامعة لتكون أهم مركز على في الشرق
وأخذت تظهر في أيامه مدارس أخرى في الشعر والفلسفة والبلاغة ، وبهذه
النهضة وصلت الحضارة الفارسية إلى أوج عظمتها وبقيت كذلك حتى جاء
العرب لفتح العراق ورأوا مظاهر تلك الحضارة فكانت موضع الدهشة
والإعجاب . وهكذا انفتح للعرب بفتح العراق كنوز من المعارف الواسعة
والكتب العديدة ، والعقول المثقفة ، وتقدم اليهم جمع كبير من العلماء على
استعداد واسع لأن يمدوا اللغة العربية وثقافتها المحدودة بما عرف في
الحضارات الأجنبية من فلسفة ، وطب ، وعلم ، وأدب ، وفن ، وهذه
ثروة لم تتوفر في أى بيئة أخرى من البيئات التى فتحتها العرب ، ولم ير
الاسلام فى أى بلد غير العراق هذا الخليط العجيب من الأمم ، ومن
الحضارات ، ومن العلماء . ولقد عرف العرب كيف يستغلون هذه الثروة
فوفدوا إلى العراق واتصلوا بعلمائه وفلاسفته وأدبائه واخذت تظهر مبكرة

بعض المدارس العربية وأولها مدرسة اللغة ثم تلتها مدرسة الدين، ومدرسة
الفلسفة أو الكلام، ومدرسة الأدب. ولو استعرضنا تاريخ هذه المدارس
جميعا لوجدنا الكثرة من رجالها أجنب عن العرب، إما فرس وإما
سريان، وإما روم. وإذن فأن هذه المدارس الإسلامية وما كان فيها من
درس، وبحث، وجدل، وإنتاج لم تكن سوى امتداد لما عرفته بيئة
العراق من قبل. ولعل الجديد في الأمر هو أن هؤلاء العلماء الأجانب
المتباينون في الجنس وفي اللغة وفي الدين قد وجدت فيما بينهم اللغة العربية
وأصبحوا بمثابة روافد تصب في بحيرة واحدة فيتكون من مجاريها المختلفة
ما نسميه بالحضارة الإسلامية ومن هنا كان من العسير أن نفهم هذه
الحضارة كما قلنا في أول هذا الكتاب دون أن نسبر غور تلك البحيرة
ونسير مع تلك الروافد التي أمدتها حتى نصل إلى منابعها الأولى.

الأسكندرية ٣/٨/١٩٥٣ م

الساعة ٤ صباحا

الدكتور حسن عونه

فهرس لما محتويه الكتاب

- ٣ مقدمة الطبعة الثانية .
- ٦ تمهيد
- السبب في دراسة بيئة العراق من ناحية الحضارة
- ٩ البيئة العراقية في أول عهودها التاريخية
- الشعب السومري ١٠ ، أصله ومظاهر حضارته ١١ ، الفرق بين الحضارة السومرية والحضارة الفرعونية ١٢ ، عود إلى مظاهر الحضارة السومرية : الهندسة المعمارية والكتابة السومرية ١٣ ، وجه الشبه بين اللغة السومرية والهيروغليفية ١٣ ، مظاهر حضارتهم من ناحية الدين ومن ناحية الفن ١٥ ،
- ١٦ الأكاديون : أصلهم وموطنهم
- ١٨ البابليون - الآشوريون : أصلهم ومن أين وفدوا ولماذا ؟ ٢٩ ، صفات الشخص السامي ٢١ ، ماذا وجد البابليون في بلاد السومريين ٢٣ ، مظاهر الحضارة البابلية ٢٥ مكتبة وركاء ٢٦ ، قانون حمورابي ٢٧ ، مقارنته بقانون الاثني عشر لوحا ٢٧ ، كيف اكتشف ؟ ومتى ؟ ومواد هذا القانون ٢٨ . مبدأ « النفس بالنفس » في قانون حمورابي وفي التوراه وفي القرآن ٢٩ ، أثر قانون حمورابي في البيئات الأجنبية ٣٠ ، قانون حمورابي في بيئة الحجاز ٣٠
- ٣٢ عمالة العراق :
- مبدأ التحكيم الإلهي عند البابليين ثم عند العرب ، وأشارة القرآن إليه ثم بقاء أثره حتى الوقت الحاضر ٣٢ ، قانون حمورابي عند العبريين ٣٣ ، الكاهن يثرو وعوثيل - قصة موسى وخروجه من مصر وصلته بهذا الكاهن ٣٣ ، تعاليم موسى وشريعته ٣٤ ، انتقال أثر قانون حمورابي إلى اليونان ٣٥ ، سولون أكبر مشرع عند اليونان ٣٦ ، ينبغي ألا نبالغ في مدى أثر هذا القانون في البيئات الأجنبية ٣٦ - ٣٧
- ٣٨ بعض العناصر الأساسية : الحضارة البابلية : الناحية الدينية ٣٨ ، الناحية الأدبية ٣٩ ، أصل « كليله ودمنه » ٣٩ ، ظاهرة الأدب المروي على السنة الحيوانات

منشؤها ٣٩ ، انتقلها إلى اليونان ثم إلى الروم وأخير آ إلى الفرنسيين ٤٠ ، المسرحيات عند البابليين ووجه الشبه بينها وبين مسرحيات اليونان ٤٠ ، ملحمة جلجميش ووجه الشبه بينها وبين الشعر القصصي اليوناني واللاتيني ٤١ ، موضوع الملحمة وتحليلها ٤١ ، الناحية العلمية ٤٣ ، علم الطب ٤٤ ، علم الفلك ٤٥ ، نتائج أبحاثهم الفلكية ٤٦ ، أثر معارفهم الفلكية عند العرب ٤٧ ، ماذا آلت إليه حالة بابل ٤٩ .

٥٠ أثر الآشوريين الخاص : النباتات ٥١ ، أنساب الآلهة ٥٢ ، وجه الشبه بينهم وبين اليونان والروم ٥٣ ، آشور بانيمبال ومجوده العلي والفي ٥٤ ، أثر الآشوريين العلي ٥٥ .

٥٨ وادي دجلة والفرات بعد البابليين والآشوريين ، ماذا أصاب الحضارة البابلية - الآشورية بعد فتح الفرس ٦٠ ، الفرق بين مؤرخ الحضارة والمؤرخ السياسي ٦١ ، لم يقض الفرس على الحضارة البابلية - الآشورية ٦٣ ، أثر الفرس في الحضارة البابلية - الآشورية ٦٣ ، الأثر الديني ٦٣ ، نشأة الدين الفارسي وتطوره ٦٤ ، رسول الفرس ، زرتشترا ٦٤ ، الوحدة في الألوهية مظهر للنضوج العقلي ٦٥ ، غزو بيئة العراق بالدين الفارسي القديم ثم الحديث ٦٦ ، الأثر العلي ويتمثل في الكتابة تطور الخط المسامري على أيديهم ٦٧ ، تعرض وادي دجلة والفرات إلى ألوان من الحضارات الأجنبية في الفترة ما بين فتح الفرس وفتح العرب لبيئة العراق ٦٨ ، الأثر المتبادل بين الشرق والغرب في ميدان الحضارة ٦٧ ، يخطئ كثير من الناس في تصورهم أن الغرب قد أثر في الشرق بحضارته ٦٩ ، كل آسيا الغربية كانت ميداناً للنشاط الحضارة البابلية - الآشورية ٧٠ ، كيف وصلت حضارة الشرق الأدنى إلى اليونانيين ؟ ٧٤ ، لم يكن البحر الأبيض حازراً بين اليونان والشرق ٧٤ ، شهرة اليونان بالملاحة ٧٥ ، الفرق بين التجارة قديماً وحديثاً ٧٥ ، مسألة الحروب وأثرها في نقل الحضارة ٧٨ ، الجواب عن السؤال الثاني وهو مدى تأثر اليونان بالحضارة الشرقية ٨١ ، أهم الآثار الفكرية عند اليونان ووجه الشبه بينها وبين الآثار الفكرية في الحضارة البابلية - الآشورية ٨١ ، قصص الملاحم ٨٢ ، وجه الشبه بين ملحمة جلجميش وملحمته هوميروس : الألياذة والأوديسا ٨٣ ، الأشعار الدينية عند اليونان وعند البابليين ٨٦ ، فن التاريخ عند اليونان وعند البابليين والآشوريين ٨٦ ، التشريع عند اليونان : سولون ونشأته وأثر الشرق فيه ٩٦ .

١٠٠. بيئة آسيا الصغرى وما جاورها من جزر بحر إيجه : كانت مأوى للأغريق منذ أزمنه بعيدة - الخلافات السياسية بين القبائل في شبه جزيرة اليونان ١٠١ ، ظهور قبيلتين من بين القبائل : الدوريان ، واليونان ١٠٢ ، هجره اليونان إلى آسيا الصغرى ١٠٣ ، الفرق بين كلمتي يوناني وأغريقي ١٠٣ ، تكوين نهضة علمية بين اليونان في الفترة بين القرن ١٢ والقرن ٨ ق م ١٠٤ ، انتقال هذه النهضة إلى أثينا ١٠٤ ، كان اليونانيون تلامذة لأساتذة الشرق - الرد على صاحب قصة الحضارة ١٠٧ ، مالذي استفادته حضارة الاغريق من الشرق بعد فتح الاسكندر ؟ ١٠٨ ، عود إلى البيئة العراقية ١١٠ . ألوان الحضارات الاجنبية في بيئة العراق : الحضارة السريانية : أصل السريان ؟ ومن أين جاؤا ؟ وأين استقروا ؟ ١١١ ، حقيقة الكلدانيين ١١٣ ، قصة ابراهيم مع ابيه أزر تلقى ضوءا على الديانة في وادي الرافدين ١١٤ ، عود إلى الاراميين ١١٥ ، انقسامهم إلى أراميين شرقيين وأراميين غربيين ١١٦ ، أهم مظهر لنشاط الآراميين هو اللغة : انتشارها في آسيا وفي أفريقيا ١١٦ ، لماذا تغلبت اللغة الآرامية على اللغات الاخرى ١١٧ ، اعتناق الآراميين للدين المسيحي ١١٨ ، الآراميون فلسفوا الدين المسيحي ١١٨ ، حركة الاراميين العلمية كانت أثرا لعوامل عدة ١١٩ ، مقارنة بين الآراميين واليهود ١٢٠ ، تعدد اللهجات في اللغة الآرامية ١٢٠ ، مبدأ تسمية الآراميين بالسريان ١٢١ ، تغلب اللهجة السريانية على اللهجات الاخرى ١٢١ ، الانقسام الديني بسبب الخلاف في فهم طبيعة المسيح بين نسطوريوس ويعقوب بارادوس ١٢٢ ، عدم تأثر نهضة السريان العلمية بالاحداث السياسية ١٢٢ ، خطاب مارا بن سارابيوس ١٢٣ ، موضوع الخطاب وهدفه ١٢٤ ، دارا - أخيل - أجاممنون ١٢٦ ، پرياموس - أرشميدس ١٢٧ ، سقراط ١٢٩ ، فيثاغورس ١٣٠ ، الآراميون يفرضون لغتهم على مساحة من الارض تبلغ ٦٠٠٠٠٠ ك.م مربعا ١٣١ ، النهضة المسيحية مدينة للآراميين ، كما أن الثقافة الآرامية مدينة للدين المسيحي ١٣٢ ، نشاط اليهود في شبه الجزيرة العربية وفي وادي الرافدين ١٣٢ ، لم يستطع نشاط اليهود مقاومة التيار المسيحي - نقطتان هامتان . كيف نشأ الدين المسيحي وعلى أي أساس قام ؟ إلى أي حد يعتبر الدين المسيحي مدينا للسريان من ناحية ولللسنة اليونانية من ناحية أخرى ؟ ١٣٤ ، نتيجة نشاط الآراميين العلمى : مؤلفات تشرعية ، مجموعة من كتب التاريخ ، النقل من اليونانية ١٣٨ ، استمرار نشاط السريان حتى فتح العرب

لعراق - تسامح الاسلام معهم ١٤١ ، الفرق بين تسامح الاسلام وتسامح الفرس مع السريان ١٤٢ ، المدارس السريانية في بيئة العراق ١٤٣ ؛ أثر نشاط السريان في الحركة العلمية الاولى عند المسلمين ١٤٤ ؛ إحدى نتائج دراستنا لبيئة العراق ١٤٥ ؛ نتائج دراستنا للسريان ١٤٦ ؛ أصالة الانتاج لدى السريان ١٤٨ .

١٤٨ اللون الثاني من الوان الحضارات الأجنبية في بيئة العراق لون الحضارة اليونانية . الحدث التاريخي لهذا اللون في العراق : فتح الاسكندر ١٥٠ ، حملة الاسكندر إلى الشرق ١٥٢ ، مطامع الاسكندر ١٥٥ ، معاملة الاسكندر لشعوب الشرق ١٥٦ ، المدن الاغريقية في الشرق وأثرها العلمي والادبي ١٥٧ ، التنافس العلمي بين هذه المدن ١٥٨ ، قواد الاسكندر يقسمون ملكه ويسرون على نهجه ١٦٠ ، أثر الاغريق في بيئة العراق ١٦٢ ، مدينة دورا نموذج للمدن الاغريقية في وادي الرافدين ١٦٣ ، كيف كان يعيش الاغريق في وادي الرافدين ١٦٥ ، الفرق بين مهمة المؤرخ السياسي ومؤرخ الحضارة ١٦٦ ، لافونتين *Lafontaine* ، فيدر *Phedre* أيزوب *Esop* ١٦٧ ، فيكتور هوغو - *V. Hugo* ، تورولدوس - *Tuoldos* ١٦٨ ، فيرجيل ، لوكانوس - *Lucretius* ، هوميروس *Homerus* ١٦٩ ، لم يكن ضياع سلطان الاغريق في بيئة العراق قاضيا على الثقافة الاغريقية فيها ١٧٠ ، الثقافة الاغريقية في الشرق أخذت مظاهر عده ١٧١ ، الثقافة الاغريقية في بيئة العراق تعيش بجانب الثقافة البابلية في مدينة بابلونيا ١٧٢ ، العوامل التي ساعدت على نمو الحضارة الاغريقية في الشرق وتقبل الشرقيين لها ١٧٢ ، أرسطو ١٧٤ ، أفلاطون ١٧٥ ، بروتا جوراس ١٧٧ ، جورجياس ١٧٨ ، بروديكوس ١٧٩ ، أيشيل ١٨٠ ، سوفوكل - سيمونيد ١٨١ ، بندار ١٨٢ . القرن الاغريق ١٨٣ ، المباريات الفنية والأدبية عند الاغريق ١٨٣ ، بلاد الاغريق تبدو كبوتقة لصهر المعارف الاولى وسبكها من جديد ١٨٥ ، صدى معارف الاغريق في فروع المعارف الاسلامية ١٨٦ .

١٨٧ اللون الثالث هو لون الحضارة الرومانية : الخطوط الرئيسية للحضارة الرومانية بعض أوجه الشبه بين الحضارة الرومانية والحضارة الاسلامية ١٨٧ ، روما وبغداد أوفيدوس وبشار - المسيحيون مع فيرجيل والمسلمون مع القرآن ١٨٨ ، الصلة بين الحضارة الرومانية والحضارة الاغريقية ومناقشة ذلك ١٩١ ، هوراسيوس ١٩٣ ،

سيسيرون ١٩٤ ، سينيك ١٩٦ ، القانون الروماني ١٩٧ ، لماذا لم يتأثر الشرق
سريعا بالحضارة الرومانية ١٩٨ ، ظهور حضارة الروم في الشرق كان نتيجة لعاملين :
العامل السياسي ١٩٩ ، آثار هذا العامل ٢٠٠ ، صورة ووجزة للصلات السياسية بين
الروم والفرس ٢٠٣ العامل الديني : بدء المسيحية - سيادة روما السياسية - أهداف
دعاة المسيحية ٢١٢ ، ملاقاه دعاة المسيحية من أباطرة الروم ٢١٣ ، اعتراف روما
بالدين المسيحي ٢١٣ ، تشيع المسيحيين للروم - ظلم الفرس للمسيحيين - سفر مسيحيوا
العراق إلى روما ودراساتهم فيها ٢١٤ ، ضالة الآثار المادية للحضارة الرومانية في
بيئة العراق - ينبغي أن ننظر إلى المسألة من جانب آخر ٢١٦ .

٢١٧ اللون الرابع : لون الحضارة اليهودية - أساس حضارة اليهود الكتاب المقدس -
الصراع الديني بين اليهود والمسيحيين في وادي الرافدين ٢١٧ ، جالية يهودية في
بيئة العراق ٢١٨ .

٢١٩ كيف كانت بيئة العراق اثناء الفتح الاسلامي : أهم ما امتازت به بيئة العراق
دون غيرها ٢٢٠ ، اليهود وما كانوا عليه - السريان ونشاطهم ومدارسهم ٢٢١ ،
الفرس ونهضتهم وآثارهم العلمية والأدبية والفنية - انفتح بفتح العراق للعرب كنوز
من المعارف ٢٢٢ .

فهرس الأعلام

اللاتينيون ١٥٢، ١٥٩، ١٧٤، ١٧٦

١

أبجر ١٢٠	أثوس <i>Athos</i> ١٦٨
أبدير ١٧٧	أجا مئون ١٢٦، ١٢٧
إبراهيم ١١٥، ١١٤، ٣٠	أجريبينا <i>Agrippina</i> ١٩٦
ابن أبي أصيبعة ١٤٢	الاحباش ١٨، ١٤
ابن آمون ١٥٦	أحمد تيمور ١٤٥
ابن ديسان ١٢٣	أحمد عبد الباقي ١١
ابن عباس ١٩	الأخدود ١٣٣
ابن النديم ١٤٥، ١٤٢، ٦٣، ٧	الأخمينين ١٢٦
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢١١	أخيل (أشيل) ٩٢٧، ١٢٦، ٨٤
أبو جعفر المنصور ١٦١	أدابا الحكيم ٥٧
أبو عبيده ٢١١	إديسا (الرها) ٢٠٦، ١٢١، ١١٦
أبولى ١٩٣	إربل ٢٢١، ٢٠٥، ١٣٣
أبيقور ١٩٢	أربينوم <i>Arpinum</i> ١٩٤
أبيس ١٥٦	ارتخششتا ١٥١
أتينا ٩٨، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٨	أردشير ٢٠٦
١٤٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٢	أرشميدس (أرخميدس) ١٢٧، ١٢٩، ١٢٨
١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠	أرسطو ٩٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠
١٦٣، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٦	١٤٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩
١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠	
١٨١، ١٨٢، ١٩١، ١٩٣	
١٩٥	

الاسكندر ١٠٧، ٩٦، ٨٠، ٧٩، ٧٨	أرض النهرين ١٤٦، ١٣١، ١١٥
١٥١، ١٥٠، ١٤١، ١٠٨	١٦٠، ١٥٧، ١٥٣، ١٤٩
١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢	٢١٣، ١٦٦، ١٦٥، ١٦١
١٦٥، ١٦٠، ١٥٧، ١٥٦	٢١٤
٢٠٢، ١٨٢، ١٧٤	الآراميون ١١١، ٦٨، ٤٨، ١٤
الاسكندرونه ١٥٣	١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٣
الاسكندرية ١٠٨، ١٠٢، ٢٦	١٢١، ١٢٠، ١١٩، ١١٨
١٥٨، ١٥٧، ١٤٠، ١٣٧	١٣٠، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣
١٩٨، ١٩٢، ١٧٢، ١٧١	١٣٦، ١٣٤، ١٣٢، ١٣١
١٢٣، ٢٠٤	١٤٦، ١٤٤، ١٣٨، ١٣٧
الاسلام ٨١٠، ٦٥، ١٩، ٨، ٧	١٦٤، ١٦٣، ١٤٨
١٤٥، ١٤٤، ١٤٢، ١٢١	الارمن ٢٠٤
١٢٢، ٢١٠	أرمينيا ٢٠٨، ٢٠٥، ٧٨
آسيا ٥٣، ٥١، ٣٦، ٢٣، ١٠	أورو ٤٢
٨٥، ٨٤، ٧٨، ٧٥، ٧١	آزر ١١٤
١٠٢، ٩٧، ٩٢، ٩٠	أزميرن ١٠٤، ٨٤
١٤٩، ١٢٧، ١٢٦، ١١٦	إزاك Isaac ١٥٩
١٦١، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٠	أسيانيا ١٩٦، ١٢٠
١٧٠، ١٦٦	اسباطيون ٢٥١
آسيا الاغريقية ١٥٧	استرابون ٩٥
آسيا الصغرى ٧٤، ٧٣، ٧١، ٦٠	اسحاق الرهاوى ٢١٥، ٢١٤
٩١، ٩٠، ٨٥، ٨٤، ٧٨	أسد ١٩
١٠٠، ٩٧، ٩٤، ٩٢	أسطورة العصور :
١٠٦، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢	١٦٨ <i>Liege des siecles</i>

١٨٩، ١٦٧ (اوكتافوس) اغسطس	١٣١، ١١٦، ١٠٨، ١٠٧
٢٠٤، ١٩٣، ١٩٠	١٥٣، ١٥٠، ١٤٧، ١٣٢
٢٠٥	١٧٥، ١٧٠، ١٦٤، ١٥٨
أغنية رونالد	٢١٩، ٢٠٩، ١٨٥
١٦٨ <i>Chanson de Roland</i>	١٦١، ١١٥، ٩٠، ٧٠ آسيا الغربية
٦٩، ٥١، ٣٥، ٢٢، ١٠ أفريقيا	١٢٦، ٩١، ٧٥، ٧٣ الآسيويون
١٥٤، ١٣٢، ١٢٠، ٩٢	١٥٣ اسوس
١٨٢، ١٦٩، ١٥٩	أسواق العرب ١٩
أفريم ١٤٥	أشعار ٤٢
أفستا ١٤٨	أشور ٢١، ٥٩، ٥٨، ٥٦، ٥٠
أفغانستان ١٦٠	٧١، ٦٧، ٦٦، ٦٣، ٦٠
الأفغانى ١٩	١٠٦، ١٠٣، ٩٤، ٨٨
أفلاطون ١٧٥، ١٧٤، ١٣٧	٢١٥، ١٣٣، ١١٤، ١٠٧
١٧٨، ١٧٧، ١٧٦	٢٢٠، ٢١٩
أكاد ٢٠، ١٦	أشور بانيبال ٥٦، ٥٥، ٥٤
أكاديون ٢٣، ٢٠، ١٧، ١٦	٨٣، ٥٧
٥٩، ٥٠، ٤٨	الأشوريون ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠
أكتانا ١٥٣	٧١، ٦٥، ٥٩، ٥٨، ٥٥
ألاريك ٢١٥، ٦٢	١١١، ٨٨، ٨٥، ٨٣، ٧٢
ألفريد كروازيه <i>Alfred Croiset</i>	١٦٣، ١٤٧، ١١٩، ١١٢
٩٩، ٥٣	١٨٥، ١٧٣، ١٧٢
اليشع بن قوزبايا ١٤٥	١٨١، ١٨٠، ٧٦ <i>Eschyle</i> إشيل
المانيا ١٤٨، ١٢٠، ٨١	الأغريق (الأغريقيون) انظر
المانيون (الألمان) ٧٩، ٣١	ترتيبها فى ص ١

أهورا - مزدا ٦٥	١٤٨، ٨١
أوروبا ١٠، ٣٥، ٩٢، ١٢٠	آمد (ديار بكر) ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٩
الأوروبين ١٣، ١٠٥	٢١١
أوروك ١٤، ٤١، ٤٢، ٤٣	امفيوليس ١٦٢
أور ١٥، ١١٤	أمريكا ٢٢، ١٠٦، ١٢٠، ١٤٨
أوديسا ٤١، ٨٣، ١٥٤، ١٧٠	الأمريكيون ٧٩، ٨١، ١٠٥
١٧٩	١٤٨
أورشليم ٧٩، ٨٠، ١٠٠، ٢٠٤	أميانوس مارسيانوس ٢٠١
أوريبيد ٨٦	اميتاس ١٧٤
أوفيدوس <i>Ovidius</i> ١٣٠، ١٨٧	الاناضول ٢٠٦
١٨٨، ١٨٩، ١٩١	انجيدو ٤٢، ٤٣
أورفه ١٢١	انجلترا ١٢٠
أورپوس <i>Europos</i> ١٦٢	الانجليز ٨١
أوليس ١٧٠	الاندلس ٢٢
الأوزاعي ١٨٧	أنو ٤٢
أورود ٢٠٣	اندروماك ١٢٧
أوكاديوس ٢١٤	الانصار ١٣٥
ايزيس ٨٧	أنطاكية ١٠٨، ١٥٧، ١٥٨
ايزيس وأوزوريس ٨٧	١٦١، ١٧١، ١٩٨، ٢٠٠
الآينباده ٤١، ١٦٩، ١٨٩	٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨
إيليوزي <i>Eleusie</i> ١٨٠	٢٠٩
إيزوقراط ١٧٤	أنطيوخوس (أنطيوخوس) ١٦١
اينيه ١٦٩	أنطونيو (أنطونيوس) ١٩٠، ٤٠٤
إيران ١١	أهرمان ٦٥
إيفيجيني ١٢٧	

٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٩، ٧١،

٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧،

٨٨، ٨٩، ٩٤، ١١١، ١١٢،

١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢١،

١٤٧، ١٥٦، ١٦٣، ١٧٠،

١٧٣، ١٨٥،

البابليون - الاشوريون ٩٦، ٩٧،

بابيلونيا ٢٠، ١٧١، ١٧٢،

بابيلون *Babylone* ١٦٠،

البابيروس ١٥٨، ١٦٤،

بابريوس *Babrius* ١٦٨،

البحر والمناظرة ١٧٨،

البحر الأبيض المتوسط ٣١، ٣٥،

٤٩، ٦١، ٧٠، ٧٢، ٧٤،

٧٥، ٧٦، ٧٧، ٩٤، ١٠٧،

١١٢، ١١٥، ١٥٨، ١٥٩،

١٦٩، ٢٠٢، ٢١٩،

البحر الاسود ٧٠،

البحر الاحمر ٧٦، ١٥٤،

بحر ايجيه ٧٢، ٨٥، ١٠٠، ١٠٢،

١٥٠، ١٧٧،

بحر الشمال ٧٥،

بدران ٤١،

باريس ٥٨، ٥٨، ٨٧، ١٦٧،

بروسس ٨٨،

ايساغوجي ١٤٠،

ايونيا ١٠٦،

ايبمينيد ٩٩،

ايروس ٨٩،

الياذه ٤١، ٨٣، ١٢٦، ١٢٧،

١٥٤، ١٧٠، ١٧٩،

ايطاليا ١٠٢، ١٤٧، ١٥٩، ١٦٩،

١٧٧، ١٧٨،

الايطاليين ١٥٣،

ب

بابل ٢١، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٦،

٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٤٩،

٥٠، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٠،

٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧١، ٧٤،

٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٨، ٩٤،

١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦،

١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٥،

١١٦، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤،

١٥٦، ١٦٠، ١٧٢، ١٨٥،

٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢٠،

البابليون ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣،

٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠،

٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧،

٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٥،

- برجام ١٠٨ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٩٨ ، ١٧١
 بليست ٥٦
 بلين القديم *Pline l'ancien* ٥١
 بيرهوس *Pyrrhus* ١٢٧
 بومي ١٦٩ ، ٢٠٧
 بوكوليك ١٩٠
 بولس ١٣٩
 البيان ١٧٩
 بيت زبدى ٢٢١
 بيت المقدس ٢٠٩ ، ٢١٣
 ت
 تابساك *Thpsaque* ١٦٢
 تابساكوس (تفساح) ٢٠٧
 تاريخ الادب السرياني ٤٩ ، ١١٧
 ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٧١
 ٢١٥ ، ٢٢١
 تاريخ آداب اللغة العربية ٢٥ ، ٣٤
 تاريخ الادب اللاتيني ٣٦
 تاريخ الادب الاغريقي ٥٣ ، ٩٩
 تاريخ الامم والملوك ٢١١
 تاريخ ديانة آلهة الاسكندرية ٨٧
 التاريخ الطبيعى ٥١ ، ٥٢ ، ١٨٤
 تبوك ١٣٢
 بريانيوس *Paresius* ١٨٤
 بروتاجوراس *Protagoras* ١٧٧
 ١٧٨
 بريانوس (پرياموس) ١٢٧
 بروديكوس *Prodicos* ١٧٩
 البسفور ٢٠٩
 بشار بن برد ١٤٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨
 بشير فرنسيس ١٥١ ، ١٥٥
 البصرة ١٣٣
 بطليموس ٢٦ ، ١٥٨
 البطالمه ١٥٨ ، ٢٠٤
 بغداد ٢٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٧
 ١٩٣ ، ٢٠٠
 بNDAR *Pindare* ١٨٢
 بلوخستان ١٦٠
 بلوتارك *Plutarque* ٨٧
 بلاد الغال ٩٦
 بلاد الاناضول ١٥١
 بلاد الرافدين ١١٠ ، ١١١
 بلاد اليونان ١٠٧ ، ١٥٣ ، ٢١٥
 بلاد فارس (الفرس) ١١٥ ، ١٢١

جزيرة الفيلة ١١٦، ٩٤	تدمر ٢٠٨، ١٣١
جزيرة صقلية ١٧٤، ١٢٨، ١٠٢	التدمريون ١٤
١٨١، ١٨٠، ١٧٨، ١٧٦	تراجانوس ٢٠٥
١٨٢	الترك ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨
جزر بحر ايجه (الجزر اليونانية في	التركستان ١٢١
بحر ايجه) ١٥٠، ١٠٧، ١٠٤	تل العبيد ١٥
جزر اليونان ٢١٩	تل العمارنه ٥٠
الجزيرة العراقية ١١٦، ٢١	التوراه ١٤٨، ١٣٩، ٣٤، ٢٩
جزيرة كورسيكا ١٩٦	تونس ٧٥
جزيرة خيوس ٨٤	تورولدوس ١٦٨
جزر المحيط الهندي ٢٢	تيريدات ٢٠٥
جلجميش ٨٢، ٤٣، ٤٢، ٤١	تيساليا ١٨٢، ١٨١
١٧٠، ٨٤، ٨٣	تيسليس ٤١
جمدت نصر ١٤	تيموتاوس ايلروس ١٣٩
جنديسابور ١٢١، ٢٦	تيوجوني ٨٩، ٥٣
جورجياس ١٧٩، ١٧٨	تيوس ١٧٥
جورجي زيدان ٤٨، ٣٤، ٢٥	تيودوسيوس ٢١٤
جورج لافاي ٨٧	
جوستينيان ٢٠٨، ٨١	ج
جوفيان ٢٠٨	جاك بيرين <i>J. pirenne</i> ٢٨
جوليانونوس ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠	جاليريوس ٢٠٦
٢١١، ٢٠٧	جان جاك روسو ١٣٠
ح	الجزيرة العربية ١١١، ٤٩
الحبشه ٢٢، ١٨	جزيرة كريت ٩٩، ٧٤، ٧٣
	١٠٦

٢٠٩

الحجاز ١٨، ٣٠، ٣٢، ٥٠

حذيب ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٩ داود ١٥

الدجلة ١٠، ٧٢، ١٣٣، ١٦٠

١٤٦، ١٤٧، ٢١٧، ٢٢١

١٦٢، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥

حران ١١٥، ١١٦، ٢٠٦، ٢٠٧

٢٠٧، ٢١٠

الحزنه ٢٢١

دجله والفرات ٩٠، ٩١، ٢٠٠

الحضارات القديمة :

دراسات جغرافية ٩٥

٢٨ *Civilisations antiques*

دراسات تاريخية (المكتبة التاريخية)

الحقيقه ١٧٨

٩٥، ٩٦

حمورابي ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠

الدردييل ٧٢

٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧

دستجرد ٢١٠، ٢٢٢

٤٤، ٤٩، ٥٤، ٥٩، ٧٢

دفي ٢٠٠

٩٧، ١٠٠، ١٠٦

الدلتا ٧٨

حنانيا ١٣٣، ١٣٤

دمشق ٨، ٢٠٩

الحواريون ١٣٥

دورا ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠

الحيثيين ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤

١٧١

٩١، ١١٢

الدوريان ١٠٢

الخيره ٢٢١

الدولة الاموية ٨، ٢١٩

خ

الدولة البابلية - الاشورية ٢١٨

خالد بن الوليد ٢١١

الدولة الرومانية ١٩٨، ١٩٩

خسرو ٢٠٥

٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤

خراسان ١٦٦

الدولة العباسية ١٨٦، ٢١٩

الخليج الفارسي ١١٣، ١١٥

الدولة الفارسية ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٨

د

الديايطسرون ١٣٨، ١٧٠، ١٧١

دارا ٩١، ١٢٦، ١٥١، ١٥٣، ٢٠٠

الرها (حران) ١١٩، ١١٦	ديميتريوس الفاليري
١٤٣، ١٣٩، ١٣٦، ١٢١	١٦٨ <i>Demetrius de phalere</i>
٢٠٩، ٢٠٣، ٢٠٠، ١٤٦	دير كفر ماري ٢٢١
٢٢١	دير عبدا ٢٢١
١٧١ <i>Robere cohen</i> روبير كوهين	الديانات في عهد الوثنية الرومانية
رودس ٧٤	١٧
رودون الاسيوى ٢١٥	ديموستين ١٩٤
الروس ١٤٨، ٨١	ديوان ايود ١٩٤ <i>Epodes</i>
روسيا ١٤٨، ١٢٠، ٣١	» ايبيتير ١٩٤، ٦٢ <i>Epitres</i>
روما ٦٢، ٦١، ٥٤، ٤٠، ٣١	» أود ١٩٤ <i>Odes</i>
١٠٦، ١٠٥، ٨٧، ٨٠، ٧٦	» ١٩٤ <i>Carmen saeculare</i>
١٤٠، ١٣٢، ١٢٨، ١٢٠	» الفن الشعرى <i>Ars poetica</i>
١٦٩، ١٦٠، ١٥٩، ١٤٧	١٩٤
١٩١، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧	» ساتير ١٩٤ <i>Satirae</i>
١٩٥، ١٩٤، ١٩٣، ١٩٢	ديودور الصقلي ٩٦، ٩٥
٢٠٣، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٦	ديوجين ١٥٩
٢١٢، ٢٠٨، ٢٠٥، ٢٠٤	ديونيزوس ٤١ <i>Dionysos</i>
٢١٦، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣	
٢١٧	ر
الرومانيون (الروم) ٣٠، ٢٧، ٧	الرافدان ٢٠٠، ١٥٥، ١٥١
٦١، ٥١، ٤٦، ٤٠، ٣٩	٢١١، ٢٠٣، ٢٠١
٧٧، ٧٦، ٧١، ٦٨، ٦٢	الرباعى ١٣٨
١٠٢، ٩٥، ٨٧، ٨١، ٨٠	رستم ٢١١
١٢٤، ١٢٣، ١٢٢، ١١٩	الرسول ١٣٣
١٤٨، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٥	الرشيد ١٤٢، ٢٦
١٦٥، ١٦٣، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩	الرقه ١٣٩
١٩٢، ١٩١، ١٨٧، ١٦٦	

سبتيموس سيفيروس ٢٠٥ ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١؛
 ستاجير ١٧٤ ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥؛
 مرجوس ٧٨ ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩؛
 سرجيس الراعي عيني ١٤٠ ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤؛
 السريان ٦٣، ١١١، ١٢١، ١٢٢؛ ٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٢؛
 ٢٢٣

ز

زحل ٤٨

زريسترا ٦٤، ٦٥، ٦٦
 الزردشتيه ١١١
 زرع ١٣٣
 زينون ١٢٥، ١٩٢، ١٩٦
 زيوكسيس ١٨٤

س

سابور ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨؛
 ٢١١، ٢١٤
 الساسانيين ١٢١
 سارايون ١٢٤
 سارديس ١٥١
 سالامين ١٨١
 الساميون ١٦، ١٨، ٢٠، ٢١؛
 ٢٢، ٢٥، ٣٠، ٤٧، ٤٩؛
 ٦٠، ٦٣، ١١٠، ١٦٣؛
 ١٧١
 سيلوقيون (السليوسيد) ١٦٠، ٢٠٤؛
 سيليقوس ١٦٠، ١٦١
 سنجار ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩؛
 سورة الانعام ١١٤
 سوريا ١٨، ٣٤، ٦١، ٦٢، ٧٨؛
 ١١٦، ١٢١، ١٥١، ١٥٣؛
 ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٦؛
 ٢٠٠، ٢٠٤
 السوس ٢٨، ٩٤، ٩٧، ٢٢٢؛
 سوفوكل ٨٦، ١٨١

سولون ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٢٦

١٩٧، ١٠٠

سومر ١٦٨، ٨٣، ٢٠، ١٠

السومريون ١٥، ١٣، ١٢، ١٠

٢٣، ٢٢، ٢٠، ١٧، ١٦

٤٩، ٤٨، ٤٥، ٣٨، ٣٧

٦٧، ٦٠، ٥٩، ٥٥، ٥٠

١٧٢، ١٧٠، ١١٢، ٨٢

السوفسطائيون ١٧٨

سومكا ١٣٣

سويروس الانطاكي ١٣٩

سيتون لويدي ٢٠٠، ١٥٥، ١٥١

٢١١، ٢٠١

سيراكوز ١٨٢، ١٢٨

سيسيريون (ماركوس) ١٩٤، ٢٧

١٩٧، ١٩٥

سيفيروس ٢٠٥، ٢٠١

سيلاكس ٩١

سيمونيد ١٨٢، ١٨١

سيناء ١٤٠، ٧٠

سينيكا ١٩٦

ش

شاب - آد ١٥

الشام ٦٠، ٣٣، ٢٢، ١٩، ٨

١٠٨، ٧١

شبه الجزيرة العربية ٢٠، ١٨، ١١

١٣١، ١١٣، ٧٧، ٧٦، ٣٠

١٥٤، ١٣٤، ١٣٣، ١٣٢

شبه جزيرة ايطاليا ٧٨

شبه جزيرة اليونان ١٠٣، ١٠١

١٥٣، ١٥٢، ١٠٧، ١٠٦

١٨٢، ١٧٠، ١٦٥، ١٦٤

شبه جزيرة سينا ١٣١، ١١٦

شرجال ٥٧

شرجينا ٢٢٠، ٢٦

الشرق الادنى ٧٤، ٢٩، ١٦

الشعر ١٧٩

شمش نيشتم، ٤٣، ٤١

ص

الصائبة ١١١

صالح بن عبد القدوس ١٤٤

صبوره ٣٣

صور ١٥٣

ط

طايطيان ٢١٥، ١٣٨

طرابلس ٢٠٩

طرسوس ٢٠٦

١٤٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٨،

٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣

العرب قبل الاسلام ٣٤

العراق ٣، ٤، ٥، ٦، ٨، ٩، ١٠،

٢١، ٢٢، ٢٦، ٣٧، ٤٧،

٤٨، ٤٩، ٦٢، ٦٣، ٦٨،

٧١، ١١٢، ١١٦، ١١٨،

١٢٠، ١٢١، ١٣١، ١٣٨،

١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥،

١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢،

١٥٤، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٢،

١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦،

١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٩،

١٨٦، ١٨٧، ١٩٨، ١٩٩،

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،

٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١،

٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦،

٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠،

٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣

العراق وما توالى عليه من حضارات

١٥٠، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥،

٢٢٠

العصر الوسيط (العصور الوسطى أو

القرون الوسطى) ١٠٦، ١٢٠،

١٨٩، ١٩٠

طرواده ٩٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٦٩،

١٧٠

طه باقر ١٥١، ١٥٥،

طيه ١٧٢، ١٨٢،

طيميريوس ٢١٢

طيسفوس (المدائن) ٢٠٠، ٢٠١،

٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧،

٢١٠، ٢٢٢

ع

العباسيون ١١٢

عبد مناف ١٩

عبد نرجل ١٣٣

عبد الوهاب عزام ٣٩

عبادة القمر عند العرب :

Die altarabische mondreligion

٣٤

العبرانيون ٧، ١٣، ١٤، ١٥،

٣٣، ٣٥، ٣٦، ٧١، ١١١،

١١٢

العرب ٧، ١٣، ١٨، ١٩، ٣٠،

٣٢، ٣٤، ٤٧، ٤٨، ٦٢،

٦٨، ٧٦، ٧٧، ١١٣، ١١٨،

١٢١، ١٢٨، ١٣٩، ١٤١،

١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧،

على بن أبي طالب ٢١٨

على عبد الواحد وافي ١٣، ١٤،

١١٧

عمالة العراق ٣٢، ٣٣

عمر بن الخطاب ٢١١

عمرو بن العاص ٢١١

عمرو بن عبيد ١٤٤

عياض بن غنم الفهري ٢١١

عيسى ١٣٥، ١٣٦، ١٩٠

عيلام ٢٨

العيلاميون ٢٨

عين الدالية ٢٢١

غ

الغاليون ١٠٢

ف

الفارثيون ١٦٦، ١٧٠، ٢٠٣

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦

فارس ٣٩، ٦٦

فارسان ١٦٩

فاليريانوس ٢٠٦

الفرات ١٤٠، ١٤٣، ١٦٠

١٦٢، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨

الفراعنة ١٢، ١٣

الفرس ٧، ٣٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣

٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨

٧٠، ٧٩، ٨٠، ٩١، ٩٤

٩٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩

١١٠، ١١١، ١١٨، ١١٩

١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٣١

١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠

١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧

١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨

١٧١، ١٧٢، ١٩٩، ٢٠٠

٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦

٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤

٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢

٢٢٣

فورفوريوس ١٤٠

فرنسا ١٤٨، ١٦٨

فرنسيون ١٤٨

الفريجيون ٧١، ٧٣، ٧٤، ٩١

فقه اللغة ١٣، ١٤، ١١٧

فلسطين ٣٤، ٦٢، ٧٨، ٨١

١١٦، ١٣١، ١٥٣، ١٦٠

١٦١، ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٨

٢٢٠

فن الحب ١٨٨، ١٨٩

الفهرست ٧، ٦٣، ١٤٥

فيتاغورس ١٣٠، ١٧٣

القسطنطينية ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠

٢١٤، ٢١٦

القسطنطينيون ٢٠٩

القصائد الهجائية ٦٢

قصة الحضارة ١٦، ٢٩، ٥٢

١٠٩، ١٠٥، ٨٢، ٥٨، ٥٦

قنسرين ١٤٠، ١٤٣

قورش (كورش) ٦٠، ٦١

١٥٠، ١٥١، ١٦٣

القوط ٦٢

قيس بن مكشوح المرادي ٢١١

قيصر ٩٦، ١٦٩، ١٩٣، ١٩٥

٢٠٣

قيصرية ٢٠٦

ك

كاتون ١٥٩

كاراكالا ٢٠٥، ٢٠٦

كارنياد ١٥٩

كاساندر ١٢٧

كاسيوس ٢٠٥

الكاشيون ٤٩، ٥٩

كاليس ١٧٤

كانتوس ١٩٤، ١٩٥

كاون ٤٨

فيدر ٤٠، ١٦٧

فيروز ٢١٤

فيرجيل ٤١، ١٦٨، ١٨٩، ١٩٠

١٩٣

فيكتور هوجو ١٦٨ -

فيليب ١٥٢، ١٧٤

فينيقيا ٣٤، ٧٨، ١١٦، ١٣١

الفينيقيون ١٤، ٣٥، ٣٦، ٥٤

٦٧، ٧١، ٧٤، ٧٥، ٧٧

٨٦، ٩٧، ١١١، ١١٢

١٥٩

مجموعة الاساطير Fables ١٦٧

ق

القادسية ٢١١

قانون البلاد ١٢٣

قباذ ٢٠٨

قبرص ٧٤، ٧٨

القدس ٢١٠

القرآن ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣

١١٤، ١٣٣، ١٨٩، ١٩٠

قرطاجنه ٧٥

قرطبه ١٦٩، ١٩٦

قريش ١٩، ٧٧

القرشيون ١٣٣

كومون Cumont ٨٧

كيولوس الاسكندري ١٣٩

كيش ١٤

كيوريتون ١٢٤

كيوس ١٨١

ل

اللاتينيون ١٤، ٢٩، ٤٥، ٥٣، ٦١، ٨٢، ٧٥

لاسيوم ٦٢

لاروس ١٠٣

لافوتين ٤٠، ١٦٧

اللغة والنحو ١١٨

لندن ٢٦، ٥٨، ٢٠٤

اللوfer ٢٨

لوكانوس ١٦٩

ليديا ١٧٦

ليديا ١٦٨

الليديون ٧٣، ٧٤، ٨٦، ٩١

١١٢

ليونارد وولي ١١، ١٢، ١٤

م

مارا بن سارايبون ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧

ماراتون ١٨١

ماردوك ١٧٢

الكتاب المقدس ١١٨

كتاب الله أو الحكمة العليا

١٩٧ de Providentia

كتاب قوة الاحتمال

١٩٧ de Constantia

كتاب الغضب ١٩٧ de Ira

١٩٧ de vita beata كتاب السعادة

كراسوس ٢٠٣، ٢٠٤

كريتولاوس ١٥٩

كريزوس ١٦٨

كسرى ١٦، ٨١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٤

٢٢٢

كلد ١١٣

كلده ١٦، ٤٩

الكلدانيون ٤٨، ١١١، ١١٣

١١٤، ١١٥، ١٤٧

كلوديوس ١٩٦

كليلة ودمنه ٣٩

كليمانس الاسكندري ٢١٥

كليوبا طره ١٩٠

الكنعانيون ١٨، ٣٠، ٣٥

١١٢، ١١٥

كوكيله ١٥٣، ٢٠٥

كولون ١٨١

ماردين ٢٠٩، ٢٠٠

ماركوس أويلوس ٢٠٥

ماروثا ٢١٤

ماسرجويه ٢٢١

مارسيالوس ١٢٨

المأمون ١٤٢، ٢٦

ماله Mallet ١٥٩

مايسيناس ١٩٣

المتحف البريطاني ٢٦

متريدات ١٦٢

المجوس ٦٦، ٦٤

المجوسية ١١١

محمد بدران ١٠٥، ١٦

محمد حمدي البكري ١١٧، ٤٩

١٢٤، ١٣٣، ١٤٥، ١٧١

٢١٥

المحيط الاطلنطي ٧٥

المحيط الهندي ٩١

مخزوم ١٩

المدينة ٢١١، ٨

مدينة كسرى المفضله على أنطاكية

٢٢٢، ٢٠٣

مدين ٣٣

مراد كاميل ١٢٤، ١١٧، ٤٩

٢١٥، ١٧١، ١٤٥، ١٣٣

مرداخ ٤٨

مردك ٥٧

المريخ ٤٨

مرسيليا ١٠٢

مسر حية القسس ٤١

مسر حية ألعاب مأتم ييلياس ٤١

مسر حية الشبان ٤١

مسر حية المستعطفات ١٨٠

مسر حية الفرس ١٨٠

مسر حية الرؤساء السبعة أمام طيبة

١٨٠

مسر حية بروميتيه في الاغلال ١٨٠

مسر حية أجا ممنون ١٨٠

مسر حية الساقيات في نخب الآلهة ١٨٠

مسر حية الخيرات ١٨٠

مسر حية هيركول غاضب ١٩٧

مسر حية نساء طرواده ١٩٧

مسر حية أوديب ١٩٧

مسر حية فيدر ١٩٧

المسلمون ١٨٩، ١٤٢، ١٤١

٢١١، ١٩٠

المسيح ١٢، ١١٨، ١١٩، ١٢٢

١٣٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦

١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٤٧

١٦٦، ١٩٠، ٢٠٢، ٢١٢

المسيحيون ٤٤، ١١٩، ١٣٨، ١٨٩،	موسى الاجيلي ١٣٩
١٩٠، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣،	موسوليني ١٥٣
٢١٤، ٢١٥	الموسيقا ١٣٠
مصر ١٢، ٣٣، ٤٥، ٥١،	مونوباز ١٣٣، ١٣٤
٦٢، ٧٦، ٧٨، ٩٢، ٩٤،	ميتافيزيقا ١٣٠
١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨،	الميديون ٥٩
١١٦، ١٣١، ١٤٥، ١٤٩،	ميزوبوتاميا ٦
١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨،	ميسالينا ١٩٦
١٦٤، ١٧٦، ٢٠٤، ٢١١،	ميفارقات (ميفارقين أو مدينة الشهداء)
المصريون ٢٢، ٢٤، ٣٣، ٣٩،	٢١٤
٤٥، ٤٦، ٨٧، ٩٤، ١٣١،	مينيلاس ١٢٧

ن

المعتزلة ١٤٤	نابو ٥٧
معجم اللغة الفرنسية ١٠٣	النبط ١٤، ١٣١
معن ١٢٠	نبوخذ نصر ٧٩، ٨٠، ٢١٨
المعهد الاكاديمي ١٧٦	نجران ١٣٣
المغيره بن شعبه الثقفي ٢١١	الفسطوريون ١١١، ١٢٢، ١٣٧،
مقدونيا ١٦٨، ١٧٤،	١٣٨
المقدنيون ١٥٢، ١٥٥،	نرسيس ٢٠٦
مكه ٨، ١٣٣،	نرسيس المقدسي ٢١٥
مفليس ١٥٦، ١٧٢،	النصارى ١٢١
المنديون ١٢٠	نصيبين ١٤٣، ٢٠٠، ٢٠٧،
المنذر ٢٠٨	٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢١
موريس كروزيه ٥٣، ٩٩،	نلسن ٣٤
موسى ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦،	نهر الاردن ١٢٠
١٠٠	

نهر التيسير ١٠

نهر دجله والفرات ١٠

النورماندى ١٦٨

نسطوريوس ١٤٥، ١٣٧، ١٢٢

نيرون ٢٠٥، ١٩٦، ١٦٩

نيزار *Nisard* ١٨٤

النيل ١٥٤، ١٢، ١٠

نينوى ٢١٠، ٢٠٥، ٥٥، ٢١

هـ

هادريانوس (ادريانوس) ١٢٠

٢١٣، ٢٠٥

هاشم ١٩

هاليكارناس ٩٤

هرقل ٢١٠

الهكسوس ٥٠

هرمز ٢٠٧

الهند ١٢٢، ١٢١، ٣٩، ١٠، ٧

١٦٠، ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣

٢٢٢، ١٦٨

الهنود ٣٩، ١٤

هوراسيوس ١٩٤، ١٩٣، ٦٢

هوميروس ١٠٤، ٨٩، ٨٤، ٤١

١٧٩، ١٧٠، ١٦٩، ١٢٧

١٨٠

هومير *Humbere* ١٠٩

هيودوت ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٢

١٨٥، ١٨٠، ١٦٧

هيزيود ٩١، ٩٠، ٨٩، ٥٣

١٨٠، ١٠٤

هيكاتيه ١٨٥، ٩٢

هيكاتور ١٢٧، ١٢٦

هيلانه ١٣٤

هيلوبوليس ١٧٢

هيرون *Hieron* ١٢٨

و

وائل ١٢٠

وادي دجله والفرات ١٨، ١٧

٥٠، ٤٩، ٣٠، ٢٢، ٢١

٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٣

٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤

١١١، ١١٠، ٩٠، ٧١، ٧٠

١٣٢، ١١٦، ١١٣، ١١٢

١٤٣، ١٤٠، ١٣٦، ١٣٣

١٦١، ١٥٣، ١٥٠، ١٤٦

٢٠٤، ١٨٥، ١٧٠، ١٦٤

٢١٩، ٢١٣

وادي الرافدين (أو النهرين) ٩٠

١١٠، ١٠٤، ١٠١، ١٦

التمنيون ١٤، ١٨، ٣٣

يوحنا فيلبونس ١٢٩

يوسيفوس ١٣٣

يوناني ١٠٣

يوني ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

يونيان ١٠٢

اليونانيون ٧، ٣٠، ٣١، ٣٥

٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٥

٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٦١

٦٢، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١

٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨

٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤

٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠

٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧

٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩

١١٢، ١١٩، ١٢١، ١٢٢

١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧

١٢٩، ١٣٢، ١٤٠، ١٤١

١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠

١٥١، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠

١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥

١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١

١٧٢، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢

١٨٥، ٢٢١، ٢٢٢

اليهود ٢٨، ٤٤، ٧٩، ٨٠، ٨١

١٠٥، ١٠٦، ١٢٠، ١٢١

١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥

١٤٨، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢١

١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١

١٢٣، ١٢٢، ١٣٣، ١٣٤

١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠

١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١

١٦١، ١٦٤، ١٨٧، ٢٠٥

٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٧، ٢١٩

٢٢٠

وادي الرافدين مهد الحضارة ١١، ١٢

وادي النطرون ١٤٠

وادي النيل ٩٤، ١٧٢

واصل بن عطاء ١٤٤، ١٤٥

وركا ٢٦، ٢٧، ٢٢٠

الولايات المتحدة ٣١، ٨١

ول ديورانت ١٦، ١٠٥، ١٠٧

ي

يثرور عوئيل ٣٣

يحي النحوي الاسكولاني ١٣٩

يزد ١٣٣، ١٣٤

يزدجرد ٢١٤

يزيد بن أبي سفيان ٢١١

يعقوب بارادوس ١٢٢، ١٣٧

اليقويون ١١١، ١٢٢، ١٣٧

١٣٨

الين ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٥٠

١٣٢، ١٣٣

تصويب

ص	س	خطأ	صواب
١٤	٥	(١)	(٢)
١٤	٥	(٣)	(١)
٢١	٥	Nenive	Nenive
٢٤		وصولنا	وصولها
٢٦	١٧	البابليين ومن بعدهم الاشوريين	البابليين والاشوريين من بعدهم
٦٦	١	القرن التاسع عشر	القرن التاسع
٨٧	٥	Histoire du lulte des dininités	Histoire du elte des divinités
٩٤	٣	أن نرى فيه	أن نرى فيها
٩٤	٥	غير أنا	غير أنه
١٠٦	٤	العبارة	العبارة
١٢٥	١٤	ثم ما نره	ثم ما نراه
١٣٥	٥	يتبع	يتبع
١٦٢	١٦	فيما بعد مدينة امفيبوليس	فيما بعد شبيهة مدينة امفيبوليس
١٦٢	١٦	Ampohpolis	Amphipolis
١٦٧	١٢	Fedre	Phedre
١٧٣	٩	كانما	كانها
١٨١	١٥	في الكيف	في الكم
١٩٧	٧	القانون الروماني	القانون اليوناني
١٩٨	١٠	أن بسط	أن تبسط
٢٠٦	١	بمجره	بمجزره
٢١٧	١٦	وأينا	رأينا
٢٢٣	١١	الأول	الأولى

DATE DUE

DS
69.5
A85
1952

31 MAY 1987

DS

69.5

A85

1952